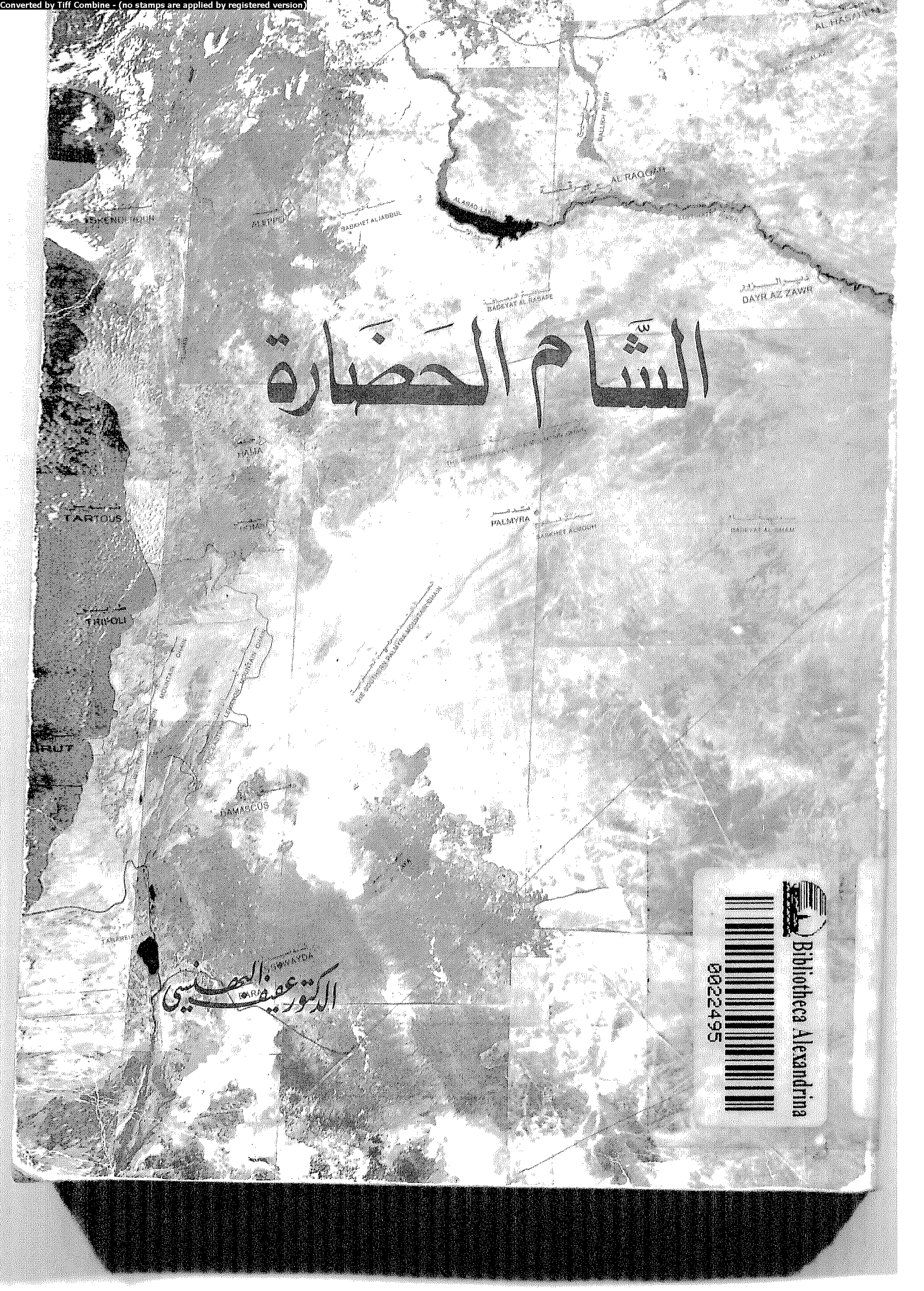
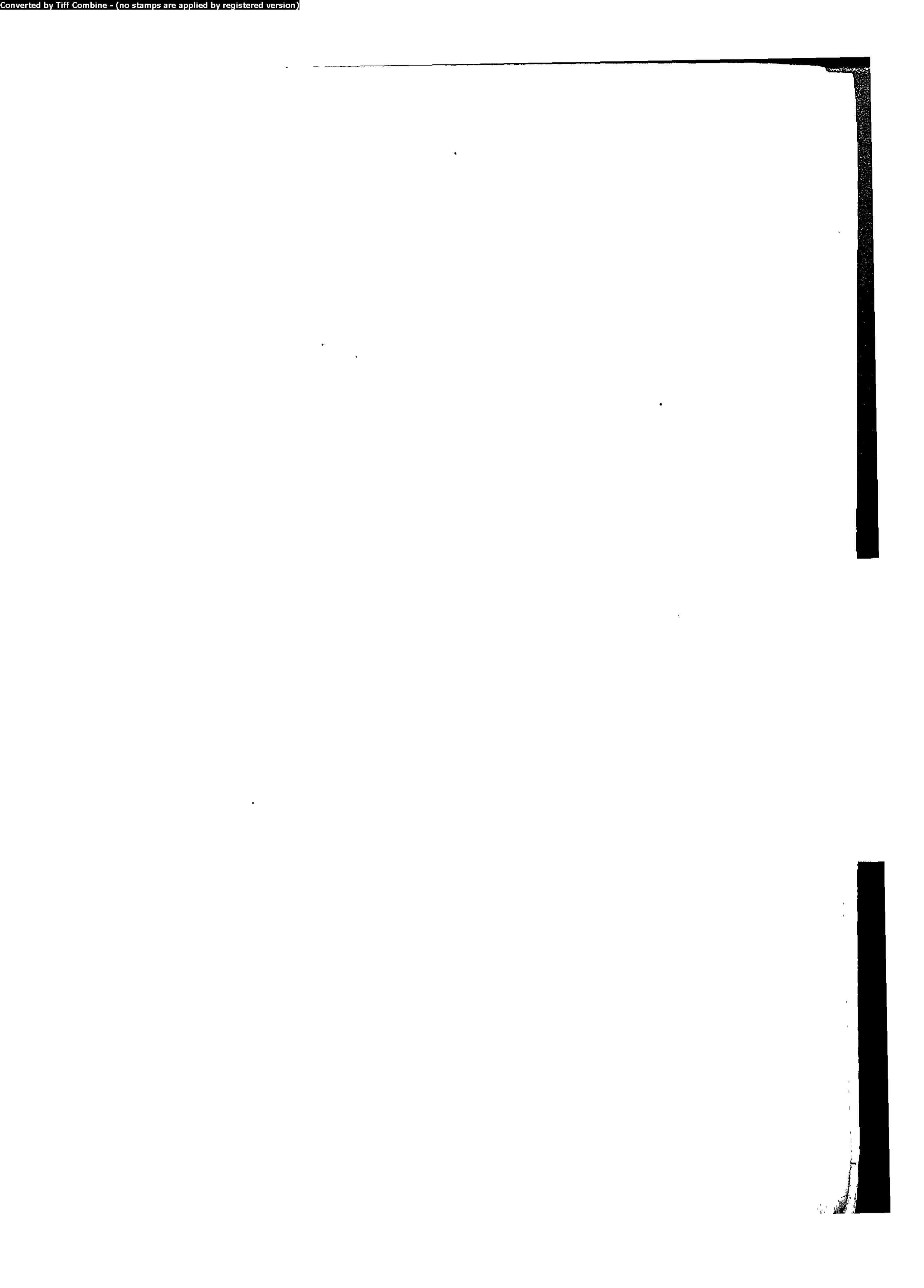


الشام الحضارة

الدكتور عفيف البهنسي

الإشراف الفني : زهير الحمو

الشام الحضارة



الدكتور عفيف البهنسي



الشام الحضارة

دراسة تاريخية

الشـــام الحضارة : دراســة تاريخية / عفيف بهنسي .-
ط ١ .- دمشـــق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٦ .- ٢٩٣ ص :
موضح ؛ ٢٥ ســـم .

١- ٩٣٣ ب هـ ن ش ٢- ٩٥٦ و٧٠٠ ب هـ ن ش
٣- العنوان ٤- بهنســـي

الإيداع القانوني : ع ٣١٤ / ٤ / ١٩٨٦

المقدمة

بلاد الشام هي المنطقة الشمالية من الارض العربية كما يدل عليها لفظها . وهذه المنطقة لعبت دورا أساسيا في تكوين الحضارة العربية قبل الاسلام وبعده ، وتشهد المكتشفات الاثرية على بعد اصول هذه الحضارة التي ترجع الى بداية التاريخ .

ولقد كانت بلاد الشام حتى عام /١٩٢٠/ موحدة جغرافيا وحضاريا ، ولكن معاهدة سايكس ـ بيكو ، خلقت من بلاد الشام كيانات سياسية ، وتقاسمت الدول الاستعمارية النفوذ عليها ، ثم تمادت في تقطيع اوصال الشام في غفلة من اليقظة العربية .

على أن جميع اشكال التجزئة لم تؤثر على الوحدة التاريخية والحضارية لبلاد الشام . وهذا الكتاب المختصر وضعناه للتعريف بالواقع التراثي والدور الثقافي الكبير الذي لعبه العرب من أبناء بلاد الشام عبر التاريخ ، وأردناه تذكرة لجيلنا الذي كاد ينسى اسم بلاد الشام وينسى الواقع الحضاري لهذه البلاد العريقة .

ولشد ما ينعش الآمال الوحدوية الحديث عن بلاد الشام بعيدا عن التجزئة السياسية ، فوحدة بلاد الشام واقع لا مجال لنكرانه ، وهدف الوحدة العربية شعار لا بد أن يتحقق ، وسورية العربية بقيادة قائد فذ هو الرئيس حافظ الاسد ماضيةبعزيمة وايمان في سبيل تحقيق هذه الوحدة . وانني لأرفع هذا الكتاب تقدمة اليه كرمز للنضال العربي .

ولا بد هنا أن أعبر عن شكري وتقديري للدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة على رعايتها ودعمها لنشر هذا الكتاب ، الذي سيكون حلقة من حديث طويل عن بلاد الشام التي نؤمن بوحدتها ودورها القومي والانساني .

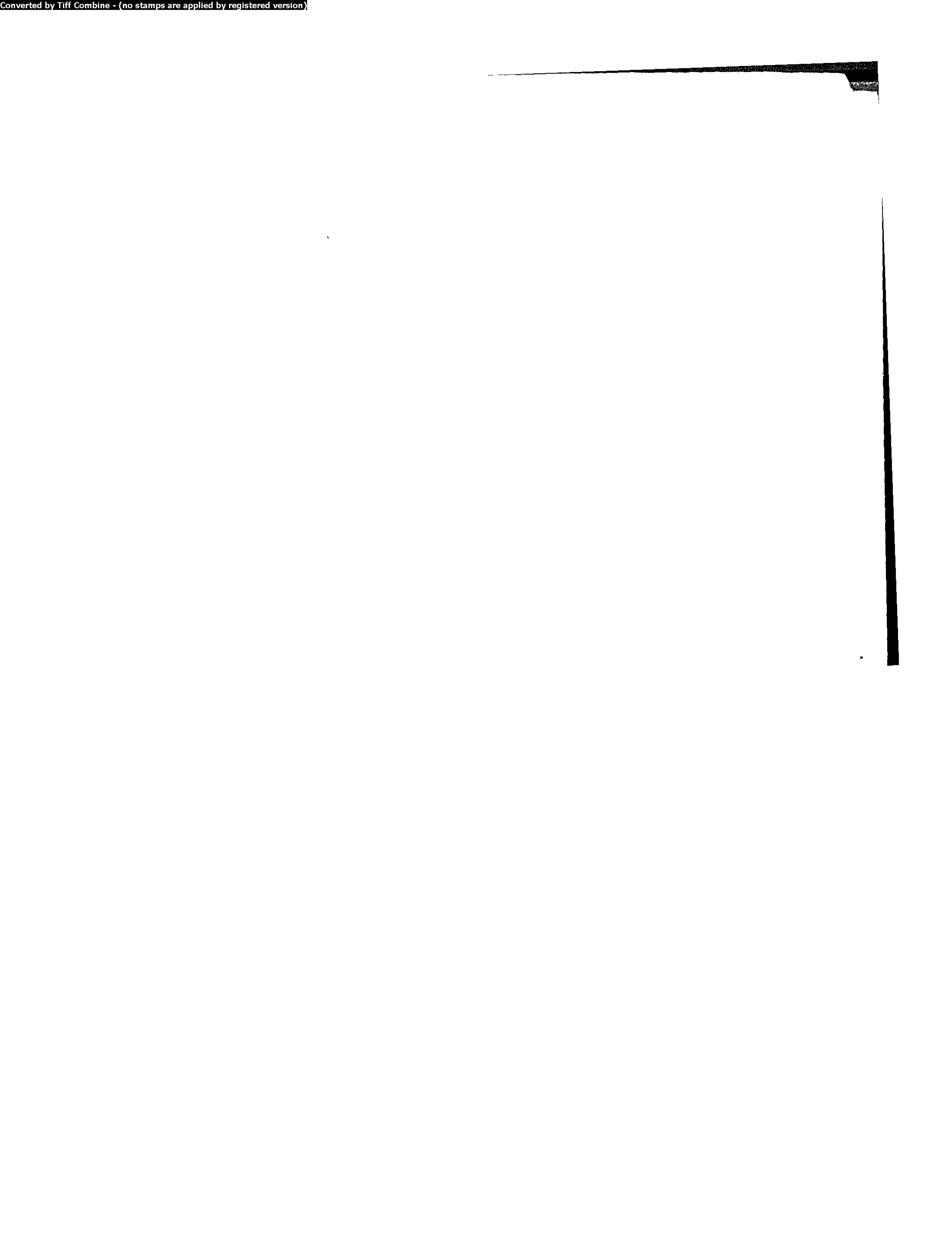
الدكتور عفيف البهنسي





١ ـ قصر سبتيم سيفير على هضبه البالاتين في روما ـ الصورة من القرن ١٦ ٠

ـ اطلال حمامات كارا كالا في روما كما كانت عليه في القرن ١٦



الفصل الأوّل

الشام
في جغرافية التاريخ

أصول أهل الشام المشتركة
عبر التاريخ

بلاد عمورو

بلاد أرام

اسورا عربايا

سُوريَّة

أصول أهل الشام المشتركة
عبر التاريخ

لابد أن نوضح أولا أن الرأي القائل من أن جميع الأقوام التي شكلت حضارات فيما بين الرافدين والبحر الابيض المتوسط ، قد هاجرت تباعا وبصورة مباشرة من الجزيرة العربية لم يعد أساسيا في تحديد هوية هذه الاقوام . فاذا كان الاكاديون الاوائل منذ الألف الثالث قبل الميلاد قد هاجروا من مكان ما في الجزيرة العربية حاملين معهم لغة الجزيرة وعقائدها . فان الآشوريين والعموريين والكنعانيين والآراميين والكلدان هم العرب الذين انتقلوا من الرافدين باتجاه الشمال والغرب ليشكلوا حواضر وحضارات أصبحت أكثر أبعادها واضحة بعد الحفريات الاثرية المتتالية .

ولا يعني هذا أن الهجرات في منطقة الهلال الخصيب انما ابتدأت بعد ازدهار الأكاديين والبابليين ، بل ان الوجود العربي أو السامي في بلاد الرافدين قد يعود الى الالف السادس قبل الميلاد وأن تلك الهجرات تتابعت منذ ذلك التاريخ : لتشكل وحدة قومية .

ويكفي باعتقادنا أن تكون اللغة والعقائد هي مقياس هذه الوحدة وهذا الانتشار الاكادي العربي المتتالي ، فلقد تبين أن الفروق بين

اللهجات تتفق جدا مع الفروق بين المسافات المتباعدة عن المصدر الأساسي للوجود العربي[1] .

وكما سنرى فان الشعوب التي تعاقبت على المنطقة المحصورة فيما بين النهرين والبحر كانت تنتسب الى قومية واحدة لا تختلف عن بعضها الا بالمطامح السياسية والاقتصادية وبالنفوذ الجغرافي ، بل ان العالم الاثري « مورتغات » يسمي الحضارات التي تعاقبت على هذه المنطقة منذ العموريين باسم « الحضارة الكنعانية » كتعبير عن وحدة قومية شاملة[2] .

على أنه لا بد من الاشارة الى أن تكوّن دولة بالمعنى الذي نفهمه اليوم لم يتم بوضوح . بل ثمة دولة ذات عاصمة واحدة أو أكثر كانت واسعة السلطان تفرض نفوذها على مدن كبيرة أو صغيرة أخرى قريبة ؛ فتقوم بالحاقها أو بتعيين ملوكها لتأكيد نفوذها عليها .

ومع ذلك نستطيع أن نحدد تسميات لهذه المنطقة التي نعرفها اليوم باسم سورية ولبنان وفلسطين والاردن ، وذلك بالاعتماد على الخصائص الحضارية والسياسية لكل مرحلة من مراحل تاريخ هذه المنطقة : ولعل أقدم تسمية أطلقت على هذه المنطقة العربية هي :

بلاد عمورو

ان هذه التسمية تعني سكان الغرب ولقد أطلقها الأكاديون منذ

---

(١) انظر بحثنا : وحدة الحضارة العربية ـ مجلة التراث العدد (١) دمشق ١٩٧٩ .

(٢) A. Moortgart Die kunst Vor derasiens , Dumont Schn berg , Cologne
الترجمة العربية د. عيسى سلمان بغداد ١٩٧٥ .

عهد صارغون على اخوانهم ممن نزحوا باتجاه الغـرب ، وفي اللغـة السومرية أطلق عليهم اسم « مارتو » التي تحمل نفس المعنى •

ولقد عرفت هذه المنطقة باسم بلاد عمورو وأطلق على البحر الابيض المتوسط اسم « بحر عمورو العظيم » كما عرف اله العموريين اسـم « عمورو » وهو اله الصيد والحرب وزوجته عاشرة ، ربة المسـرات والنشاط وتشبه عشتار •

وتمتد حدود بلادعمورو لتشمل سورية ولبنان والاردن وفلسطين• بل لقد امتدت الى بلاد الرافدين بين عام (٢١٠٠ ـــ ١٨٠٠ ق•م) • ففي الجنوب كانت سلالة ايسن في (لارسا) ، ثم قضت على هذه السلالـة سلالة بابل الاولى التي تزعمها حمورابي وهي سلالة عمورية أيضا • وفي الشمال فان سلالة شمشي أدد ١٨١٣ التي أسست بلاد آشور كانت ذات أصل عموري أيضا[١] •

أما صارغون ملك أكاد ٢٣٥٠ ق•م فان أعقابه ينتمون الى الهوية العمورية ودليل ذلك اسم أحدهم (نارام سين) الشهير • ولعل ماري (تل الحريري على الفرات في سورية) كانـت عاصمـة الامبراطورية العمورية ودليل ذلك اسم أحدهم (نارام سين) الشهير • ولعل ماري ودورها • وتتابع التنقيبات في التلال الاثرية السورية أعمالها للكشف عن أبعادها • وليست ايبلا (تل مرديخ ـــ سورية) الا حاضرة عمورية لا تقل أهمية عن ماري ، بل لعلها كانت أوسع نفوذا نظرا لموقعهـا المتوسط من بلاد عمورو •

---

(١) **A. T. Clay : The Empire of the Amorites 1919**

واللفظ الادق لهذه المدينة امواري أو عقواري ، ولعلها مشتقة من عمورو .

أما يمحاض « حلب » وترقا العشـــارة وألالاخ « تـــل عطشانة » وعمريت وقطنة « المشرفة » وتل خويرة ، فانها مواقع هامة حافلة بالاثار المكتشفة أو هي في طريق الاكتشاف ، وهي تؤكد اتساع الامبراطورية العمورية هذه الامبراطورية التي استمرت حتى منتصف الالف الثاني ق•م ، حيث ظهر النفوذ المصري واشتد التنازع بينهم وبـــين البابليين والآشوريين والحثيين • وكان الهكسوس من العموريين الذين هاجروا الى مصر واستمر حكمهم لها من عام ١٧٨٥ ق•م ـــ ١٥٨٠ ق•م[١] •

ولقد تم التعرف على ملوك ماري وايبلا من خلال ألوف الرقـــم التي أوضحت أبعاد هذه الامبراطورية ووضحت علاقة المدن ببعضها • وتحدثت عن الحروب التي تمت مع الاقوام أو المدن الاخرى •

وبعد ذلك أطلق على هذه المنطقة التي نتحدث عنها اسم :

بـــلاد ارام

ويبدو أن هذه التسمية هي جغرافية أيضا ، فهي تعني الأراضـــي العالية وذلك بالنسبة للرافدين أو هي تعني الأراضي المرتفعة الجبلية •

فمصطلح أرام النهرين كما ورد في التوراة انمـــا يعني الأقســـام الشمالية من الرافدين وبالتحديد المنطقة الواقعة بين منبع البليخ وحتى الفرات ، ولقد عرفت باسم بين النهرين أو (ميزوبوتاميا) ومركزهـــا (حران) • وكان بوليبوس (٢٠٢ ـــ ١٢٠ ق•م) المؤرخ الاغريقي أول من أطلق هذه التسمية •

---

(١) في الواح تل العمارنة من ١٤ ق.م ، الرسالة ١٨ ، ورد اسم (سودي) واسم (سوباري) وهي اسم منطقة في شمالي سورية . وعرفت جبال لبنان باسم جبال ساريانا وجبال لبلاني .

على أن الآشوريين هم الذين أطلقوا اسم أرومو وأرامو وجمعهم اريسي على بلاد أرام وعلى سكان تلك المنطقة ٠ وكأن اسم أرام قد عرف منذ عهد نارام سين ٢٢٥٠ ق٠م[1] ولسنا نعتقد بأن أرام خامس أبناء سام بن نوح هو جد الآراميين وأن تسمية الآراميين جاءت من هـذا الجـد المفترض ٠

ولقد كان هؤلاء السكان قد استقروا منذ الألف الثالث في هـذه المنطقة فكانت لهم لهجتهم المتميزة التي حملت فيما بعد اسمهم ٠ أمـا وجودهم السياسي فلم يتضح الا بعد زوال الامبراطورية العمورية أو بعد ضعف نفوذها عام ١٥٠٠ ق٠م ٠ الا أن تواجدهم المستقر والمشترك اوضح حدود هذه البلاد التي اطلق عليها في ذلك الوقت بلاد أرام ٠

منذ ذلك الوقت تقريبا توسع الآراميون باتجـاه الجنوب لكـي يستولوا على جميع المنطقة أو لكي تظهر مدن وممالك تحمل اسمهم ٠ ومن ممالك الآراميين آرام النهرين وفدان ارام وارام دمشق من الفرات الى اليرموك وآرام صوبا في البقاع وأرام بيت رحوب عند نهر الليطاني وأرام مقلة (مقاطعة دان) وجشور بين اليرموك ودمشق وبيت اغوشي في حماة وعاصمتها ارفاد (تل رفعت) وبيت بخياني ومركزها كوزانا (تل حلف) وحلب وقرقميش (جرابلس) وشمأل (زنجرلي) تركيا ، وما زالت آثارها الآرامية واضحة وبيت عديني (بورسيبا ـ العراق) ومملكة زوحي بين عانة والبليخ ٠ هذه هي أبعاد بلاد آرام اذن ٠

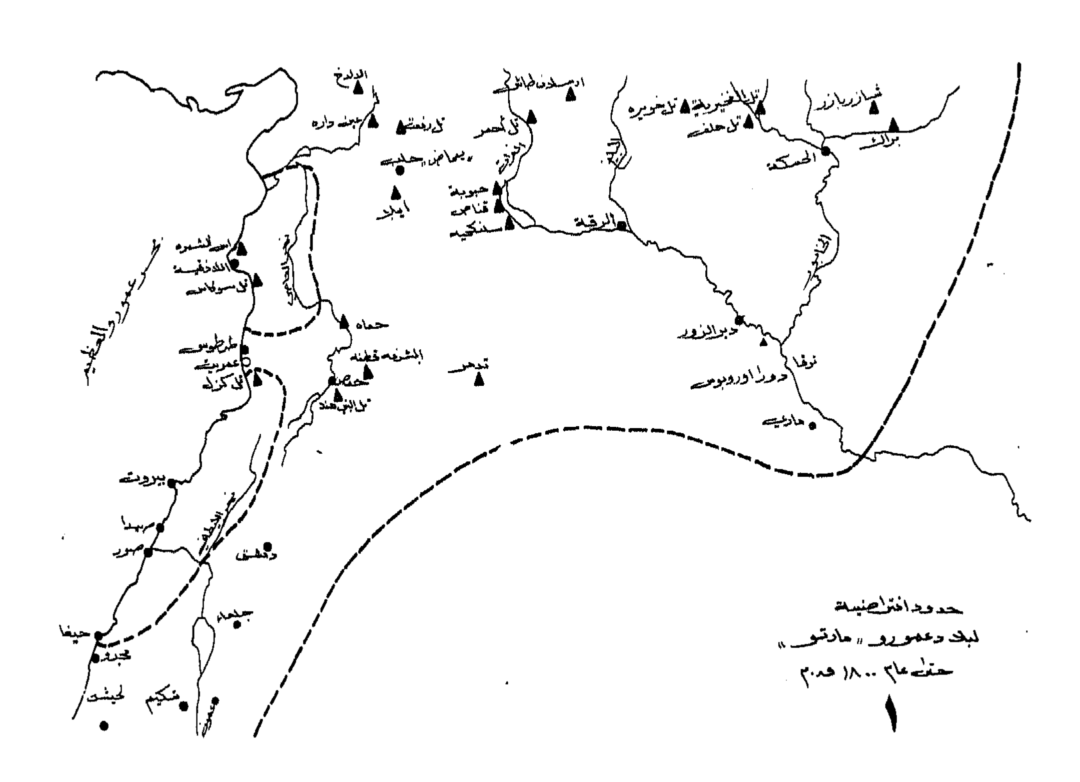
ومن المؤكد أن الآراميين لم يكونوا على مستوى واحـد مـن

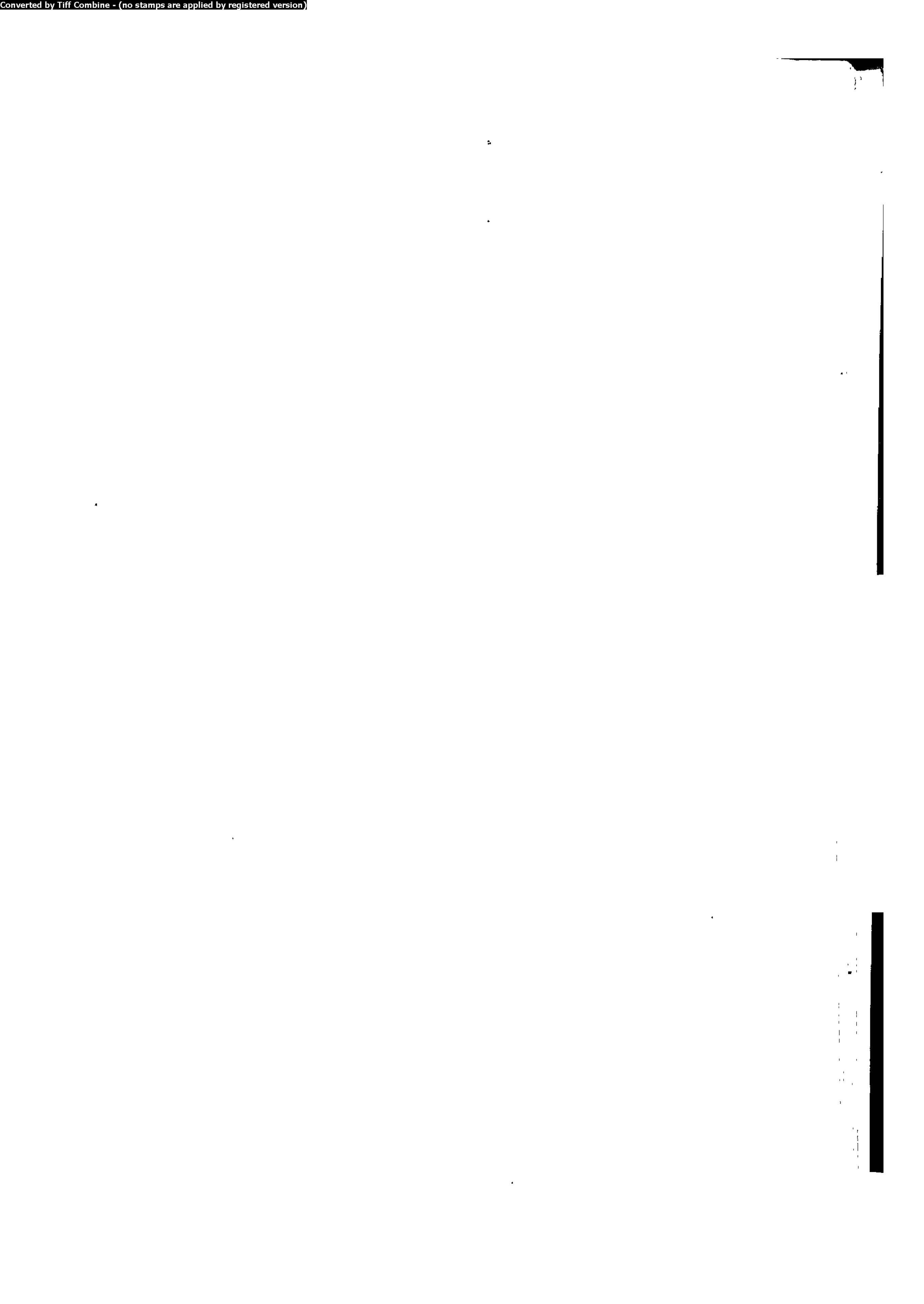
(1) Moscati : Ancient Civilisation

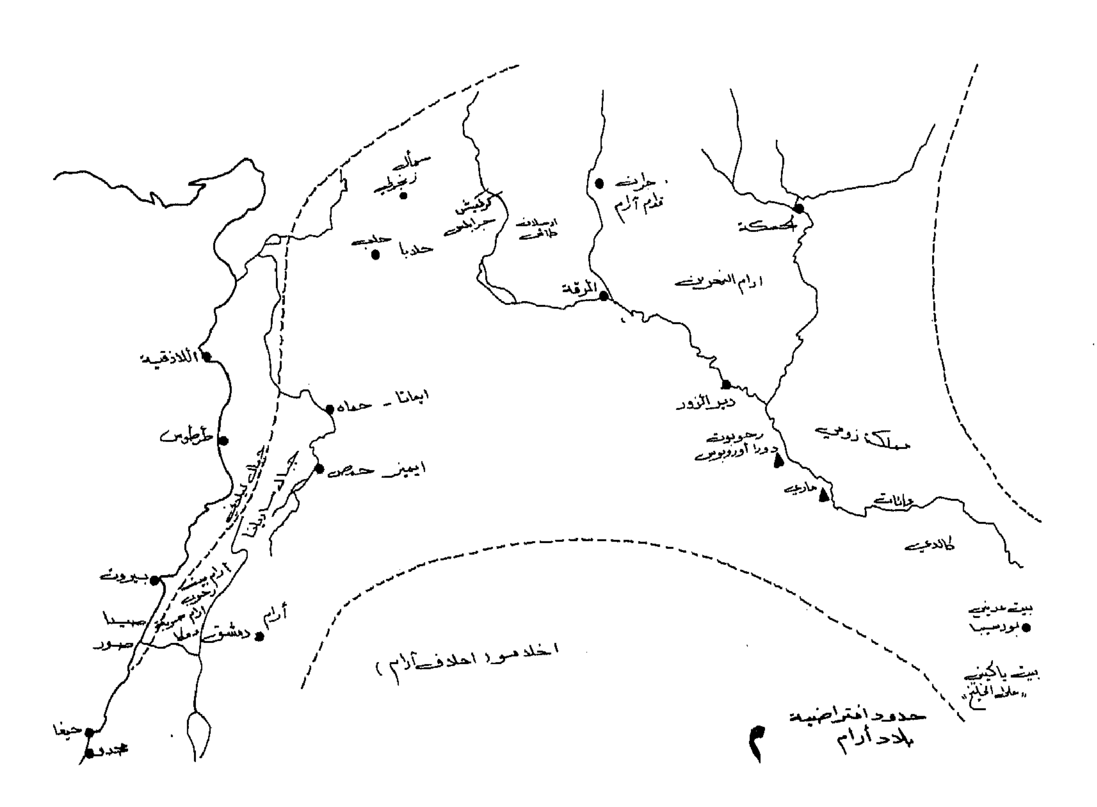
الحضارة . فكان منهم أهل البداوة ومنهم أهل الحضر والمدن • ولقد عرفت بعض أسماء القبائل والعشائر التي كان لها دور تاريخي . مثل أخلامو وهي تسمية شاملة لجماعة القبائل البدوية في شمالي الجزيرة العربية الذين لعبوا دورا في صد الهجوم الآشوري مع أهل المدن من الآراميين ثم اندمجوا بهم بل صار اسمهم كثيرا ما يطلق على الآراميين أنفسهم • ولقد وردت هذه التسمية « اخلامو » في رسائل تل العمارنة في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق•م وكان المقصود بها احلاف آرام • وهناك تسمية الخبيرو أو العبيرو وكانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب البادية فهم العابرون في البادية وأهل الخبرة في مساراتها ولعل التسمية جاءت من هذين المعنيين • الا أنه لا بد من الاشارة آن هذه التسمية أطلقت أيضا على أتباع موسى وهم من القبائل الرحل أيضا . ولقد حرّفت التسمية فأصبحت (عبري) وليس لهذه التسمية أية علاقة بالعبور •

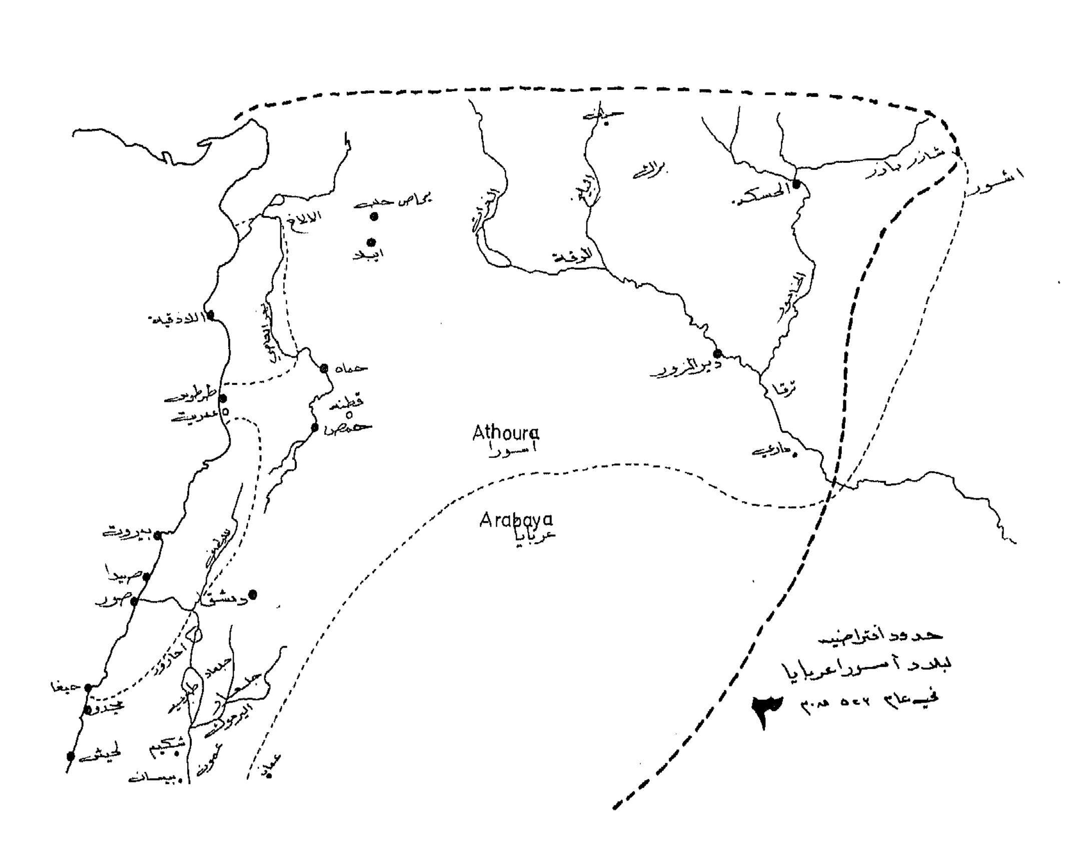
ولقد امتد الآراميون بنفوذهم التجاري الى خارج حدود هذه المنطقة ، وكان منهم بطون في العراق وبطون في سيناء وفلسطين ، وانتشرت مع تجارتهم لغتهم حتى أصبحت لغة رئيسية في بابل وآشور ومصر وفارس وفلسطين • وكانت الارامية لغة السيد المسيح ، بل ان انتشار الآرامية أدى الى اطلاق تسمية آراميين على جميع من يتكلمها من بلاد فارس وحتى حدود بلاد الارمن وبلاد الاغريق ومصر •

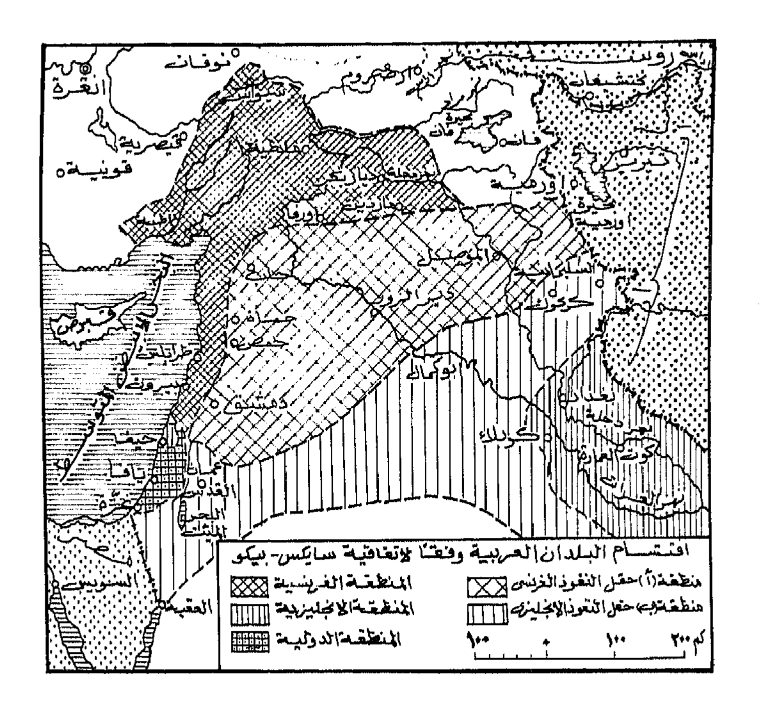
ولعل الالتحام القوي الذي تم بين الآراميين والآشوريين في الألف الاول ، وبين الآراميين والكلدان وبين هؤلاء والكنعانيين. قد وسع رقعة


بحر عمورو العظيم
حماه
حمص
تدمر
قطنة
طرطوس
بيروت
صيدا
صور
حيفا
دمشق
الرقة
دير الزور
الحسكة
ماري
ايبلا
حبوبة
شكيم
حدود انتشار صبغة
لبلاد عمورو «مارتو»
حتى عام ١٨٠٠ ق.م
١




حلب
كركميش
جرابلس
ارسلان طاش
حران
قدم آرام
الحسكة
الرقة
ارام النهرين
دير الزور
رحوبوت
دورا أوروبوس
ماري
كالدي
بيت عديني
بورسيبا
بيت ياكيني
"بلاد الخليج"
اللاذقية
طرطوس
ايمانا - حماه
ايميز حمص
بيروت
صيدا
صور
أرام
دمشق
حيفا
مجدو
حدود افتراضية
بلاد أرام


Athoura
آسورا
Arabaya
عربايا
حلب
الحسكة
دير الزور
ماري
الرقة
الخابور
اللاذقية
طرطوس
حماه
حمص
بيروت
صيدا
صور
دمشق
حيفا
مجدو
شكيم
بيسان
آشور
حدود افتراضية
لبلاد آسوراعربايا
في عام ٥٢٦ ق.م
٣



اقتسام البلدان العربية وفقا لاتفاقية سايكس- بيكو
المنطقة الفرنسية
المنطقة الانجليزية
المنطقة الدولية
منطقة (أ) حقل النفوذ الفرنسي
منطقة (ب) حقل النفوذ الانجليزي
كم ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠
قونية
قيصرية
أرضروم
قبرص
دمشق
حيفا
يافا
القدس
العقبة
السويس
الموصل
كركوك
بوكمال
بغداد
كربلاء

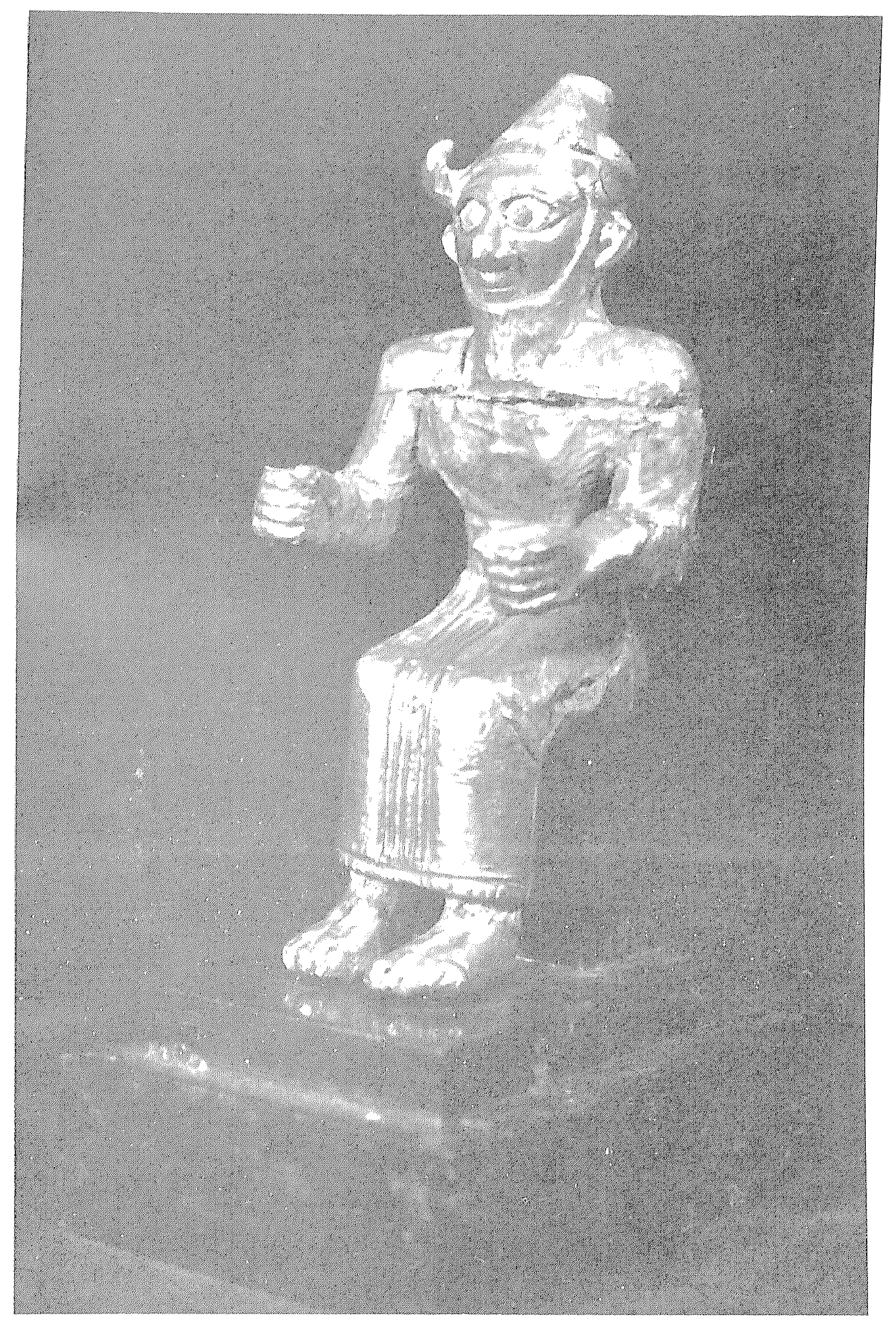
البلاد الآرامية • ولا بد أن نشير الى تحالف الارامين مع بعضهم ضد شلمنصر عام ٨٥٣ ق•م وانتصارهم في موقعه قرقار •

وعندما هلك آخر أقوام الآراميين وهي عاد وثمود أصبح اسم الآراميين (أرمان) • وهي آرام وأضيف اليها (ان) في النهاية وهما حرف التعريف حسب الجنوب العربي • والاقوام البائدة وهي عاد وثمود وطسم وجديس واميم وعماليق ورهط وجاسم وقحطان الخ •• ولقد أطلق عليها اسم العرب البائدة وكانت تحمل اسم العرب العاربة بمعنى الرساخة في العروبة كما يقول ابن خلدون.• وهذا يعني أن الآراميين هم من أصول العرب في الشمال • وكذلك العموريين وبقاياهم العماليق •

ولقد انتهت الدولة الآرامية التي لم تكن موحدة سياسيا في عام ٧٢٠ ق•م على يد صارغون (شاروكين) ملك آشور ، حيث قضى على مملكة حماة ، وكان تغلات بلاسر الثالث قداحتل دمشق عام ٧٣٢ ق•م• لكن النفوذ الآرامي استمر عن طريق نشوء الدولة الكلدانية ٦٢٥ على يد نبو بلاسر • ومازالت أكثر المدن السورية تحمل أسماء آرامية حتى اليوم • وقد أطلق على اللغة الآرامية اسم اللغة السريانية نظرا لانها كانت لغة الآشوريين أيضا •

اسوريا عربايا

وصلت الدولة الآشورية الحديثة أوج توسعها في عهد آشورناصربال وكانت سورية جزء هاما من هذه الامبراطورية ؛ ولكن بعد أن



بعل ـ الاله الارامي

استولى شاروكين ٧١٣ ق٠م على ميديا قام ملك كيديا مع ملك بابل ودمرا عام ٦١٢ نينوى وانتهى بذلك عهد الاشوريين ٠

وظهر الاخمينيون الفرس من أعقاب الميديين وأسس قورش Cyrhus [1] ٥٥٩ ـ ٥٢٩ ق٠م دولتهم ٠ ثم جاء بعده قمبيز الذي استولى على سورية وعلى مصر وكان مستبدا أشبه بالمجنون ٠

ثم جاء دارا الاول ابن هيستاسيس ٥٢٣ ق٠م الذي قسم الامبراطورية الضخمة التي وصلت الى جبال الهندوس شرقا والى مصر غربا ٠ الى ٢٠ ولاية Satrapies مرزبانة وتتمتع بحكم ذاتي مع سلطة مركزية وتعني بالفارسية سيد البلاد ٠ ولقد عددت هذه الولايات في كتابات هيرودوت (III XC-XCV) على أن كتابة بهيستون تضمنت أسماء ثلاثة وعشرين ولاية ، أما كتابة ، نقش رستم (حيث قبور الملوك الاخمينيين) فلقد تضمنت أسماء ثمانية وعشرين ولاية ٠ وكانت ولاية سوريةمن حران شمالا الىسيناء تسمى اسورا عربايا Athoura Arabaya وتشمل منطقتين : شمالية هي منطقة الجزيرة وحلب وحتى حوران والليطاني ، وجنوبية هي بلاد العرب وهي بذلك جزء من الاقليم الخامس (مرزبانة عبر نهرا (سفر عذرا ٦٠٦ ، ٨ ، ١٣)) وكان هذا بداية تسمية هذه المنطقة باسم سورية ، ولكن هذه التسمية اقترنت

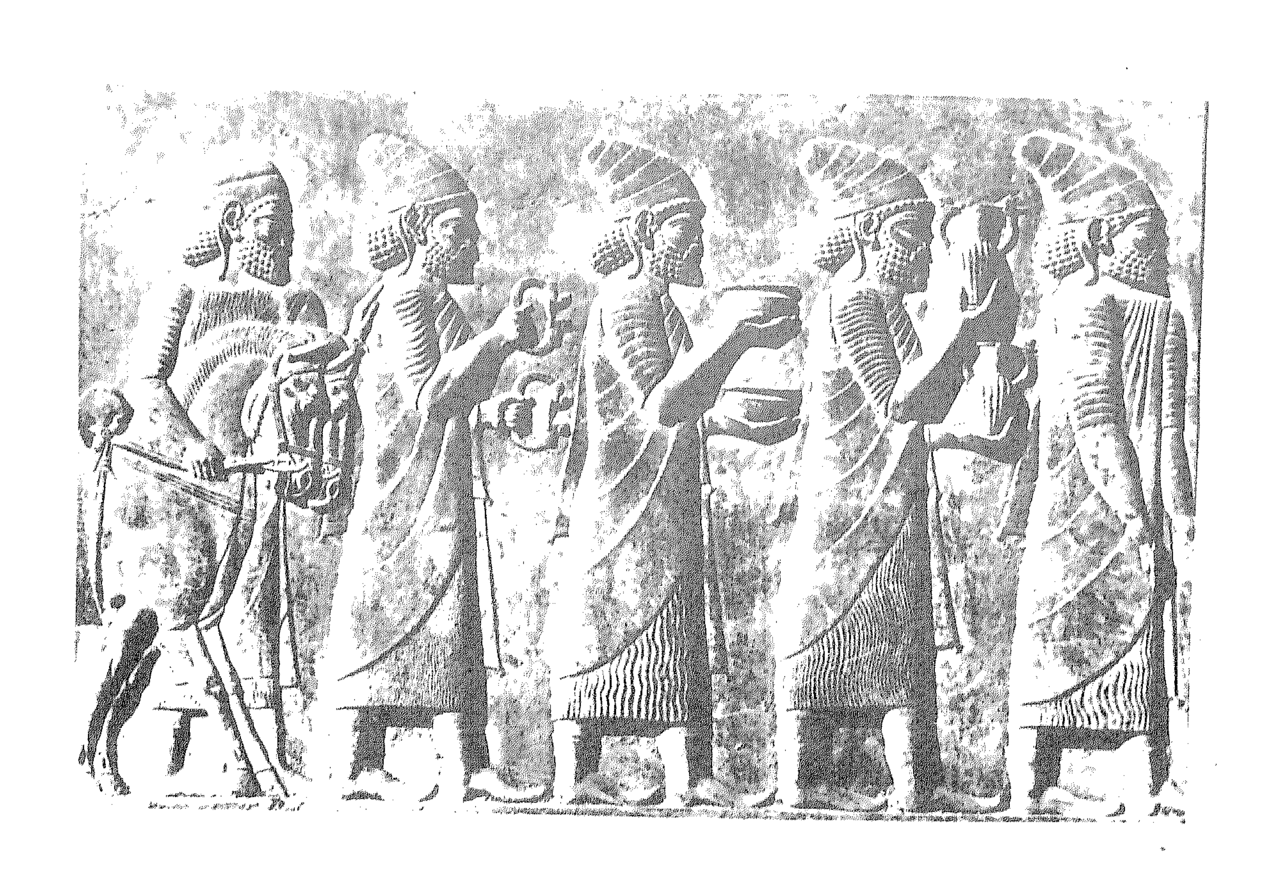
(١) سيروس او قورش سمح لليهود المهجرين في بابل بالعودة الى فلسطين ولذلك اطلق عليه المخلص ارسله الله (اشعيا ٤٤ : ٢٨) واعتقد خطا ان اسم سورية مشتق من اسمه وسبب هذا الادعاء ما اطلقه الرومان على كل من تكلم السريانية اسم Syrus

بصيغة عربية لاول مرة • وكانت صيدا عاصمة هذه الولاية ، ولمع اسم صور ـــ تير ـــ أوتسور (وتعني الصخر) في ذلك العهد وليس لاسم صور أية علاقة باسم سورية • ويقول استرابون أن دمشق كانت المدينة الاكثر أهمية في العهد الفارسي ، أما أرواد وجبيل وصيدا وصور فكانت تتمتع بحكم محلي • وفي القرن الرابع توحدت تحت سيطرة طرابلس (أثـــار) •

ولقد كانت برسيوبوليس (اصطخر) واكباتانا (همدان) وسوسا وبابل من عواصم امبراطورية دارا الاول • وكان هذا الملك الفاتـــح قد توسع في انتصاراته وسجل ذلك على جدار جبل بهيستون (الذي يقع بين همدان وبابل) ، وفيه نقوش تمثل انتصار دارا واهورا مزدا يبارك هذا الانتصار • مع كتابات مسمارية تعبر عن هذا الانتصار ، ومن هذه الكتابات تمكن العالم راولنسون من فك رموز المسمارية •

ومن أهم حروبه الحروب الميدية ضد ايونيا الاغريقية • ورمز الى الشعوب التي استولى عليها في النقوش الرائعة التي مازالت قائمة من آثار برسيوبوليس وفيها رمز لاسورا عربابا مؤلف من رئيس بيـــده عصا وفي حزامه خنجر وعلى رأسه قلنسوة كالطربوش ويرتدي قميصا فضفاضا وشروالا عريضا •

وخلفه تابع ممسك بيده جلبابا وعلى رأسه قلنسوة ذات طبقات خمســـة • ووراءه تابع آخر بنفس الملامح ولكنه يحمل في كل يـــد اناء ذا عروتين على شكل أفعى •



برسيوبوليس ــ وفود آسورا عربايا

وتابع ثالث بنفس الملامح ويحمل في كل يد خلخالا كبيرا أو حلية ما • ونرى أخيرا تابعين حاسري الرأس يقودان حصانين عربيين •

ويقع القصر على رابية تسمى تخت جمشيد ، وتتكون من قصر كبير ذي قاعات ثلاثة كبيرة أشهرها ، ابادانا المائة عمود ، ومن قصور ثلاثة أخرى •

سورية

وتحرّف اسم (أسورا) الى اسم (سورية) وكان الاغريق أول من استعمل هذه التسمية التي وردت على لسان هيرودوت المؤرخ • ولكن في نصوص أوغاريت (ق ١٤) ورد اسم سورين Shryn، وفي المصادر العبرية ورد اسم سريون عند الاشارة لاقليم لبنان الداخلي سفر التثنية ٩١٣ ـ المزامير ، أما اسم لبنانفهو تحريف لكلمة (لابن) وتعني البياض وذلك لان جبال لبنان مكسوة بالثلج في أكثر أشهر السنة •

وكان الاسكندر المكدوني قد قضى على دارا الثالث في موقعة ايسوس عام ٣٣٣ ق•م واستطاع الاسكندر ان يضع حدا للمحاولات الفارسية المستمرة للسيطرة على بلاد الاغريق بل استطاع ان يقضي نهائيا على الفرس الساسانيين وأن يجعل سورية تحت حكم الاغريق السلوقيين حتى عام ٥٦ ق•م • ثم أصبحت تحت حكم الرومان والبيزنطيين حتى الفتح الاسلامي وكانت المنطقة تعرف باسم سورية • وكانت اللغة الآرامية هي اللغة السائدة في الداخل حتى الجزيرة في الشمال • وكانت اللهجة الكنعانية هي السائدة في الساحل • أما اللهجة

الكلدانية فلقد كانت اللهجة الشرقية • وهذه اللهجات الثلاثة هي لهجات شـقيقة •

ولم تكن حدود سورية واضحة ؛ ذلك أن السلطة السلوقية امتدت الى أطراف تشمل آسيا الوسطى والعراق وقسما من ايران • أي أن القسم الآسيوي من امبراطورية الاسكندر أصبح يحمل اسم المملكة السورية ، اذ اعتبر الملوك السلوقيون ملوكا لسورية • وعندما فتح بومبي البلاد عام ٦٤ ق•م أعاد لسورية حدودها التقليدية ولكنه أطلق عليها اسم ولاية سورية •

ولقد أطلق اسم Syri على السكان الذين يرجعون الى أصل سوري (شرقي المتوسط) والذين استعمروا بلاد البحر المتوسط في القرنين الثاني والثالث م •

كما أطلق اسم الاسرة الرومانية السورية بين (١٨٣ ــ ٢٣٥) على أعقاب سبتيموس سيفروس وزوجته وهي من حمص ومن جاء بعدهما ــ كاراكالا ــ الا غابال ــ اسكندر • أما الامبراطور فيليب (من شهبا) (٢٤٤ ــ ٢٤٩) فلقد حمل اسم صفة العربي •

وفي العهد البيزنطي وفي نهاية القرن الرابع اقتصر اسم سورية على الشمال وقسم الى قسمين : سورية الاولى Syria prima وعاصمتها أنطاكية وتشمل سلوقية ولاوديسة (اللاذقية) وغابالا (جبلة) وبيروبا (حلب) وخالسيس (قنسرين) • وسورية الثانية Syria Secunda وعاصمتها أفامية وتشمل ايفانيا (حماة) واريثوزة (الرستن) ولاريسة

(شيزر) • وقسمت الاجزاء الاخرى الى قسمين ؛ فينيقية الاولى Phoenicia prima وعاصمتها صور ومدنها عكا ــ صيدا ــ بيروت ــ جبيل ــ طرابلس ــ عرقة ــ ارواد . وفينيقية Phoenicia Secunda الثانية ومركزها حمص (ايميزا) وتضم دمشق وهليوبوليس وتدمر •

وقسمت فلسطين الى ثلاثة أقسام ، الاولى عاصمتها قيصرية وضمت القدس (اورشاليم) ونابلس وجوبا (يافا) وغزة وعسقلان ، والثانية عاصمتها بيسان ومدنها جورة وطبرية • والثالثة مركزها البتراء •

وكانت حدود الدولة في العهود الرومانية والبيزنطية ، واسعة أيضا ، وفي كلا العهدين كانت سورية جزء متداخلا في كيان الدولة الكبرى لاتميزه الا لغة أهل البلاد وهويتهم القومية •

الشـــام

كان العرب في الجنوب يطلقون اسم الشام على جميع اجزاء المنطقة الشمالية من البلاد العربية •

ومازال اسم الشام يتردد على ألسنتنا ، على الرغم من الاسماء البديلة الرسمية ، فالناس في جميع أنحاء البلاد العربية ، عرفوا (الشام) من خلال التاريخ ، وتضطرهم ظروفهم لكي يعرفوا الشام من خلال الحدود السياسية ، فيتبادلون تسميات اخرى ، ولكن اسم الشام مازال أكثر تداولا ، على الرغم من أن حجم هذا الاسم تكثف في مدينة واحدة هي دمشق •

ان اسم الشام قديم ؛ ولقد استعمله العرب للدلالة على جميع

المناطق الشمالية . كما أن عرب الشمال كانوا يطلقون اسم اليمن (يمنات) أو يمون على مناطق الجنوب ، وكان الهمذاني في كتابه الاكليل قد ذكر لأول مرة اسم الشام .

ولم يكن لبلاد الشام حدود سياسية ثابتة ، ولكن الاصطخري كان أقدم من أوضح حدود الشام فهو يقول :

(وأما الشام فان غربيها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة الى الفرات ، ثم من الفرات الى حد الروم وشماليها بلاد الروم ، وجنوبيها حد مصر وتيه سيناء ، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح ، ومما يلي الروم الثغور)[1] .

ويضيف الاصطخري وهو يتحدث عن الحدود الشمالية لبلاد الشام انها مما (يلي الروم وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية وعين زربة والمصيصة واذنه وطرسوس) وهي ثغور شامية ، وتقع اليوم في تركيا .

ويتفق الاصطخري مع ابن حوقل والمقدسي في تحديد أقسام أو أحياء بلاد الشام ، فيرون أنها فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين ويضيفون اليها الجبال والشراة .

ويرى المقدسي[2] أن دمشق هي المكان الوحيد في اقليم الشام الذي يصح أن يسمى مصرا . والمصر عنده (كل بلد حله السلطان

---

(1) الاصطخري ـ المسالك والممالك

(2) المقدسي ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٥٤ .

الاعظم وجمعت اليه الدواوين وقلدت منه الاعمال وأضيفت اليه مدن الاقليم . مثل دمشق) •

وأما حلب وحمص وطبرية والرملة وصفد فهي قصبات وما تبقى فهي مدن عادية ؛ ولم تكن هذه القصبات وحدات ادارية ثابتة •

حدود بلاد الشام اذن ، وبحسب ما أورده الجغرافيون العرب الاوائل هي تقريبا سورية الحالية ولبنان وفلسطين والاردن وسينا •

واستمر اسم الشام قائما في ظل الامبراطورية العثمانية . وعندما ظهرت الحركة العربية لم يكن اسم سورية متميزا بل كان اسم البلاد العربية هو السائد ، فلقد حاول أعضاء المؤتمر العربي وأعضاء جمعية العهد الدعوة الى ثورة عربية شاملة . والى تكوين دولة عربية مستقلة • ولقد أصدرت حكومة تركيا الفتاة مرسوم آب ١٩١٣ متضمنا حقوق العرب • وفي عام ١٩١٦ بايع جميع العرب الملك حسين شريف مكة ملكا على بلاد العرب بما فيها سورية • ولكن الدول الاجنبية حالت دون ذلك . وعقدت اتفاقا سريا عرف باسم اتفاق سايكس ــ بيكو عام ١٩١٦ قضى بتحديد منطقتين على الخارطة العربية الشمالية ، واحدة باللون الاحمر وسميت المنطقة الحمراء وتشمل غربي سورية ولبنان وكيليكيا والجزء الجنوبي الشرقي من الاناضول وهي من حصة فرنسا ، والمنطقة الزرقاء وتشمل جنوبي وأواسط العراق وسيناء وفلسطين ــ (حيفا عكا) من حصة انكلترا . والجزء الباقي من فلسطين (المنطقة البنية) تديرها ادارة دولية •

وبعد الثورة العربية الكبرى اعلن الملك فيصل المملكة العربية في

في دمشق بين تشرين الثاني ١٩١٨ وتموز ١٩٢٠ ، ثم اعلن المؤتمر السوري قراره عام ١٩٢٠ باعلان استقلال سورية وملكية الامير فيصل.

ولكن المجلس الاعلى للحلفاء قضى في مؤتمر سان ريمو ٢٥/٤/١٩٢٠ الى خروج فيصل من دمشق والى تقسيم ديار الشام الى ثلاثة أقسام ، فلسطين وسورية ولبنان وماتبقى من بلاد الشام وعهد الى فرنسا بالانتداب على سورية ولبنان ، كما عهد الى انكلترا بالانتداب على فلسطين والعراق بما فيها الموصل ، ودخل غورو دمشق ٢٥/٧/١٩٢٠ وأضاف الى لبنان اقضية سورية هي بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا ومرجعيون ،والحقت بلبنان تصرفيات طرابلس وبيروت وصيدا وصور . وأضاف اليه قسما من قضاء قلعة الحصن وقسما من قضاء عكا ،وأطلق عليها دولة لبنان الكبير ، ثم قسم سورية الى دويلات أربعة يحكم كل منها حاكم عسكري فرنسي ، وثار الشعب السوري على تجزئة بلاده مما دفع غورو الى اقامة اتحاد سوري يشمل دمشق وحلب ومحافظة اللاذقية عام ١٩٢٢ . ثم قام ويكاند فألغى الاتحاد وانشأ دولة سورية المؤلفة من دمشق وحلب وكان ذلك سببا ــ مع ما رافقه من اضطهاد الفرنسيين ــ لاعلان الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ ، وبعد تسويف طويل من بونسو ، عقدت معاهدة عام ١٩٣٦ التي أعادت سورية الى وحدتها وفرضت احترام استقلال لبنان دون ذكر الاقضية الاربعة ، وسلخ لواء الاسكندرون عن سورية وأصبح اسم سورية . دولة سورية . ثم أصبح الجمهورية السورية .

وابان الوحدة التي تمت بين مصر وسورية تحت اسم الجمهورية

العربية المتحدة اطلق على سورية اسم الاقليم الشمالي ، ثم عادت بعد الانفصال لتحمل اسم الجمهورية السورية وفي ٨ آذار ١٩٦٣ اصبح اسمها الجمهورية العربية السورية أو سورية العربية وبهذا تستعيد اسمها القديم الاول الذي ظهر لاول مرة في القرن السادس قبل الميلاد .



الفصل الثاني
الشام الحضارة

الزراعة والكتابة

بوادر الفن والحضارة

الحضارة الكلاسية

حضارة العرب في الشام

الشـــام الحضارة

الزراعة والكتابة

الشام اسم تاريخي يمتد عبد حضارة أصيلة ، من انسان قبل التاريخ في العصر الحجري الى يومنا هذا • وليس من السهل التوسـع الآن لشرح هذا المعنى التاريخي •• ولكن لا بأس أن نمر مرورا سريعا من خلال تحولات التاريخ في بلاد الشام لكي نتلمس الجانب الثقافي الذي كان أكثر الجوانب أهمية ، لانه شع وانتشر فأعطى للانسانية زادا من المعرفة والعلم ، استفادت منه في تعيين القيم الأخلاقية والاجتماعية •

والموقع الجغرافي لبلاد الشام ، أعطى هذه البلاد مسؤولية نقـل الحضارة من الشرق الى الغرب وبالعكس • ثم مسؤولية اختزان أرقى حضارات المتوسط ، فلقد كانت الشام تقع في قلب العالم القديم الذي قدم الحضارة المصرية والرافدية ثم الحضارة الاغريقية والرومانية •

منذ قبل التاريخ وفي العصر الحجري المتأخر الذي يرجع الى آلاف السنين ، كان الانسان على هذه الارض قد مارس الزراعة ثم اكتشف النحاس ، وتحركت حياته من الصيد والبداوة الى الزراعة والاستقرار في الأرض ، واستصنع الاواني الخزفية التي تدل على ذوق ومهارة •

ولقد كانت اللغة منذ ذلك الوقت ولا شك ، ولكنها كانت لغـة

بدائية ، لعل المقارنة بين اللغة الآرامية والعربية تبين لنا المنحى الـذي تطورت عليه لغة الانسان القديم الى اللغات الاولى •

ولكن الكتابة . المسمارية ثم الابجدية التي نشرت الكتابة . اذا تأخرت عن ظهور اللغة . فهي تبقى أول أبجدية ظهرت في التاريخ ، وبها دونت أروع الآداب ، ومنها نقل اليونان لغتهم وكتابتهم . ثم قدموهـا للرومان وبالتالي الى شعوب أوربا الحديثة •

وقصة قدموس الذي نقل الابجدية الى ضيبة معروفة •

والعرب اليوم يكتبون بأحرف ، نقلها الآراميون الشاميون مـن الكتابة القديمة ، فجاءت معدلة قليلا ، ثم انتقل الحرف العربي هذا الى الفرس والهنود والى أنحاء اخرى من آسيا وأفريقيا كي تكتب بهلغتهم•

واذا أردنا أن ننقل بتواضع ما قالة المؤرخون ، لزادنا ذلك اعتزازا بمركز الشام الثقافي ، لقد قيل (لو أن الشام لم تقدم للعالم أية خدمـة أخرى غير الابجدية لكان ذلك كافيا بأن يتميز السوريون ، كأعظـم المحسنين للبشرية) •

بوادر الفن والحضارة

ولقد ظهرت بوادر الفن الاولى منذ العصر الحجري أيضا ، فكـان من جملة اللقى الرائعة في المريبط تمثال صغير لربة الخصب مصنوع من الطين المشوي ، يرجع الى العصر الحجري المتوسط •

لقد عرف انساننا القديم الآلهة وربطها دائما بالحقول والارض والمواشي • وعرف صناعة الخزف وثمة قطع خزفية تبين ان أهل هـذه البقعة اخترعوا دولاب صناعة الخزف قبل الالف الرابعة من ظهـور المسيح ، وأنهم ارتفعوا في مضمار هذا الفن الى مستوى لائق • ثـم استعملت الشام المعدن ، فكانت الأختام والحلي والأواني •

ان أجدادنا الذين نزحوا من الجنوب الى بلاد الرافدين ، ثم نزحوا نحو الغرب في الشام ، وأطلق عليهم اسم العموريين ، هؤلاء الاجـداد الأوائل ، كانت لهم حضارة تشهد عليها مدينة ماري (تل الحريري) وخاصة قصرها الرائع • ولقد وصلوا الى دمشق وكانت لهم مدن مثل قطنة ، وحرانو في الشمال• وأقام الكنعانيون في الجزء الساحلي من بلاد الشام ، ولقد برعوا بصناعة المعادن فكانوا لا يبارون في هذه الصناعة ، وابتكروا الخزف البراق واستعملوا النسيج من الصوف والقطن والكتان والحرير ، وهم الذين أوجدوا اللون الارجواني من السمك الصدفي ، وهم الذين استخلصوا اللون القرمزي من حشرة تقف على جذع شجر السنديان •

و فيأواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، تأسست مملكة الشام الآرامية التي امتدت حتى الفرات والى اليرموك ، وسيطرت على لبنان وسورية الشمالية وكان اسمها بلاد آرام •

وازدهرت الآداب والفنون الآرامية وكانت الآرامية تكتب بالأحرف الأبجدية التي لا تختلف كثيرا عن الكتابة العربية ، ولقد عثر على رسم يرجع الى عام ٧٣٠ ق•م يمثل كاتبا يدون بالآرامية ممسكا بيده ملف



الاله ايل

بردى وريشة ـــ وليس اسفينا ـــ ، مما يؤكد أنه كان يكتب بالأبجدية •

ولقد سيطرت اللغة الآرامية التي اشتقت منها العربية ، وأصبحت الاولى لغة المسيح وشعبه ، وأول كتابة آرامية مسيحية ترجـع الـى عام ٧٩ م •

ولقد عبد الآراميون الاله حدد ، اله البرق والرعد والمطر ، اله الخصب اذا رضي ، واله السيول اذا غضب • وكانت زوجته أتارغاتيس الهة الشاميين ربة الخصب ، تعرف بتاجها وأسدها ، وبالهلال وقرص الشمس معها ، ولقد تفنن النقاشون بتصويرها ، كما توسع الادبـاء بوصفها وسرد أخبارها المثيرة والاساطير المحبطة بها •

الحضارة الكلاسية

ومنذ عهد الاسكندر عام ٣٣٣ ق•م وحتى بداية الاسلام في الشام عام ٦٣٣ كا نقد مضى الف عام عاشتها الشام ، تأخذ فيها وتعطي في ظل الفن الكلاسي والفكر والعقيدة والآداب الكلاسية ، وللشام أن تفخر بما أعطت ، ذلك أن هذه الحضارة التي وصلـت الى ذروتها في أثينا في عام ٤٥٠ ق•م ، كانت قد اعتقدت أنها وصلت الى ذروة الكمال على يد حكماء عظام من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، أو على يد فنانين وشعراء بارعين من أمثال فيدياس وسكوباس وآشيل وسوفوكل •

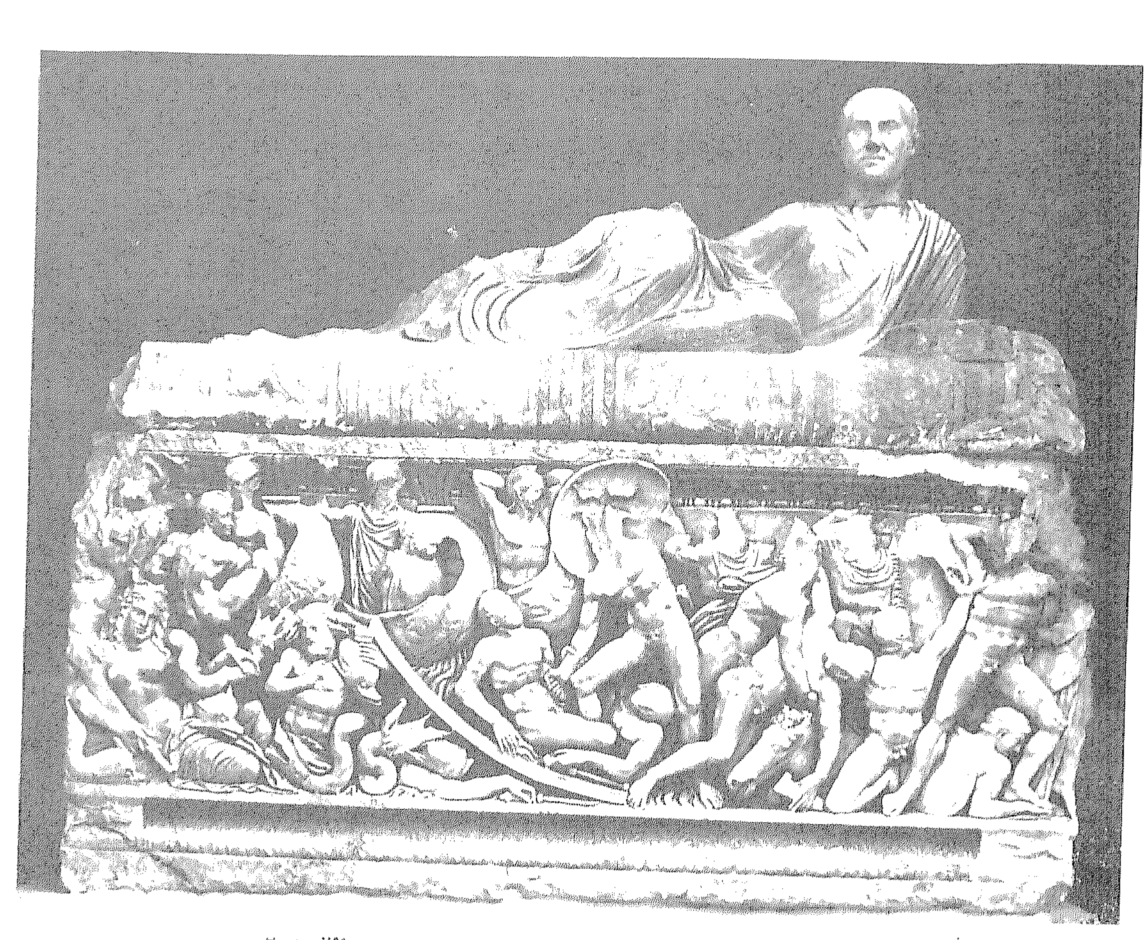
ولكن من الشام ظهر تيار فكري غزا ذلك البناء الفكري الكلاســي الرصين ، فكان زينون الصيداوي ، مؤسسا للمدرسة الرواقية فــي الفلسفة ، ولقد استكبر الاغريق أن يأتي شامي بمـا يخالف الفلسفة

الافلاطونية ، ولكنهم ما لبثوا أن اعترفوا بفضله وفضل بلاده ، عندما كتبوا على قبره (اذا كانت بلادك الاصيلة هي فينيقيا فهل ثمة ما يضير ؟ ألم يأت قدموس من هناك ليعطي اليونان كتبها وفن كتابتها) •

الحياة الثقافية في بلاد الشام كانت أكثر ازدهارا من أية بقعة أخرى من بقاع الامبراطورية • ولقد تحدث بوسيدونيوس الافامي ، وهو من أبرز الكتاب الشاميين كما هو فيلسوف ومؤرخ وعالم طبيعي ، عن واقع الحياة الثقافية في بلاد الشام فقال : (كانت هناك عدة اندية ، وكان الفنانون والمفكرون والأدباء يجتمعون في الحمامات وأماكن الرياضة ويستخدمون المدارس لاجتماعاتهم ••) •

وبرز من الشعراء انتيباتر الصيداوي ، فقد أشعارا لكل مناسبة وحادثة من تاريخ الشام •

ولابد من ذكر لوقيانوس السمسياطي ، الرحالة الذي جاب أرجاء الامبراطورية وكتب « المحاورات » و « قصة صميمية » و « الالهة السورية » وأصبح حاكما على مصر • وفي روما العاصمة برز اوبتيموس مكسيموس الدمشقي وأصبح عضوا في مجلس الشيوخ ، وحمل معه عقيدة الشاميين المتمثلة بجوبيتر الدمشقي • كما برز الطبيب ارشيغين الذي أصبح طبيبا لتراجان • أما بابيان ولوبيان فهما مشرعان ظهرا في عهد سبتيم سيفير أضافا على الشريعة الرومانية ستمائة مادة • ثم ظهر أبوللودور الدمشقي ،الفنان المعمار الذي مضى في عهد ادريان الى روما لكي يقيم ساحة وجسرا وقبابا • وهؤلاء وغيرهم من أهل الشام لعبوا دورا حضاريا هاما • ومنهم من لعب دورا سياسيا وأصبح



تابوت الرستن ، وعليه نحت يمثل موقعه طرواده ـ القرن ٢ م

امبراطورا • جوليا دومنا زوجة الامبراطور سبتيم سفير وأختها جوليا ميزا زوجة بوليوس افيتوس التي أنجبت جوليا ماميا وابنها الامبراطور اسكندر سيفير الذي قتل عام ٢٣٥ . هذه الاسرة الشامية نقلت الى روما حاضرة العالم آنئذ ، التشريع والآداب والفنون ، والعقيدة الجديدة المتمثلة بالحجر المقدس السوري • اما فيليب العربي هذا الامبراطور العظيم الذي ولد ونشأ في حوران • فكان هو الذي رعا احتفالا خارقا في روعته بمناسبة مرور ألف عام على تأسيس روما •

مرة أخرى لتعتز الشام بما قدمت للعالم من أمثلة ثقافية ، وليس الاعتزاز بالعطاء غرورا بل دافعا للمزيد من العطاء والحب •

ان هذا يذكرنا بقول شاعر شامي هو فيلوديمس اليرموكي وهو يقول : ويبدو أن الأقدار ذاتها قد اسمتني (فيلوديمس) أي محب الناس ، لأنني أشعر دائما برغبة ملحة لشخص محب •

هكذا الشام التي تحب الناس جميعا وتبحث عنهم في كل مكان تنشد حبهم . تستقبلهم في أرضها رحبا وسهلا •

حضارة العرب في الشام

بلغت الشام أوج مكانتها أيام الأمويين . أصبحت عاصمة أكبر امبراطورية حتى ذلك الزمان ، امبراطورية امتدت حدودها من الاطلسي وقمم البيربنية حتى حدود الصين •

وكانت كلمة الخليفة في الشام هي القانون الساري لهذه الامبراطورية الواسعة • ومنها انبثقت حركة التعريب التي امتدت على

أراض واسعة ما كانت لتنطق أو تكتب بهذه اللغة • ومنها سمع العرب أصداء أشعار الفرزدق وجرير وكانت مؤئل العلماء • فيها كان الطبيب ابن آثال وخالد بن يزيد الخليفة عالم الكيمياء ، وعمر بن عبد العزيز أول من افتتح معاهد للطب • وفيها كان يوحنا الدمشقي قديسا مسيحيا انتقلت رسالته الى أرجاء العالم المسيحي •

في الشام كان أول مسجد أدهش العالم بروعته وكانت أروع القصور ، الحير وعمرة ، والمفجر وأسيس ، وفيها روائع الرسم والنقش•

الشام الثقافية هي التي احتوت صبوات أبي تمام وصبابات البحتري ومأساة ديك الجن ، ومنها ترسخت عزة الادب العربي على لسان أبي الطيب •

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

ومن الشام كان كشاجم (ك = كاتب ش = شاعر أ = أديب ج = جدلي م = منجم) موسوعة معرفة وابداع • وكان الوأواء الدمشقي من بني غسان يصور لوحة رائعة لشامية جميلة •

واستمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا وعضت على العناب بالبرد

وفي الشام عاش المعلم الثاني الفارابي ، فيلسوفا منطقيا وموسيقيا ، فيها قدم المقدسي اضخم كتاب جغرافي (أحسن التقاسيم) ، وفيها ولد وعاش المعري عبقرية العرب الخالدة ، الذي لم يجعل شعره للتكسب بل كان فلسفة وقضية تدعو الى التأمل والقلق والهم •



٨ ـ الجامع الاموي

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة   وحق لأبناء البسيطة أن يبكوا

وكنت أريد الوقوف كثيرا عند ابي العلاء ولا بأس أ نأذكربرسالة الغفران ، وبتأثيرها على أدب عصر النهضة ، وخاصة على الكوميديا الالهيـة .

لابد أن نذكر هنا كتاب المجسطي الذ ي نقل الى اللاتينية وكتاب اسامة بن منقذ عن حياة الصليبيين ومخازيهم ، لا بد أن أشير الى ابن النفيس الذي أشرف على التطبيب في بيمارستان النورى بدمشق ،فكان لا يصف دواء متى كان الغذاء وافيا بالغرض . وله الفضل في اكتشاف دورة الـدم .

ولعل ابن أبي أصيبعة الشامي الطبيب ابن الطبيب سيتحدث وافيا عن الاطباء الشاميين . كذلك فعل ابن النعيمي الذي عـدد المدارس ، الدارس منها وغير الدارس ، ومازالت دمشق تحوي عددا من آثـار هذه المدارس ومنها المدرسة النورية والمدرسة العادلية .

هذه هي الشام الثقافية ، الشام التي أسمعت العالم آراء ابن العربي أعظم عبقرية تأملية في التصوف . وفيها قدم ابن عساكر المؤرخ الكبير ، تاريخ دمشق ، وفيها كان ابن خلكان والصفدي وأبو حيان وأبو شامة وأبو الفداء من كبار كتاب التاريخ المفصل .

الفصل الثالث

الشام والعالم

عطاء الشام

أصل الأبجدية الاوربية من الأبجدية الشامية

أصل السلّم الموسيقي الدياتوني

أوربا اسم منحته أميرة شامية لقارة جديدة

اللون الأرجواني

الأسرة السورية التي تحكم روما

فيليب العربي من شهبا، امبراطور روما

المعمار الدمشقي أبولودور

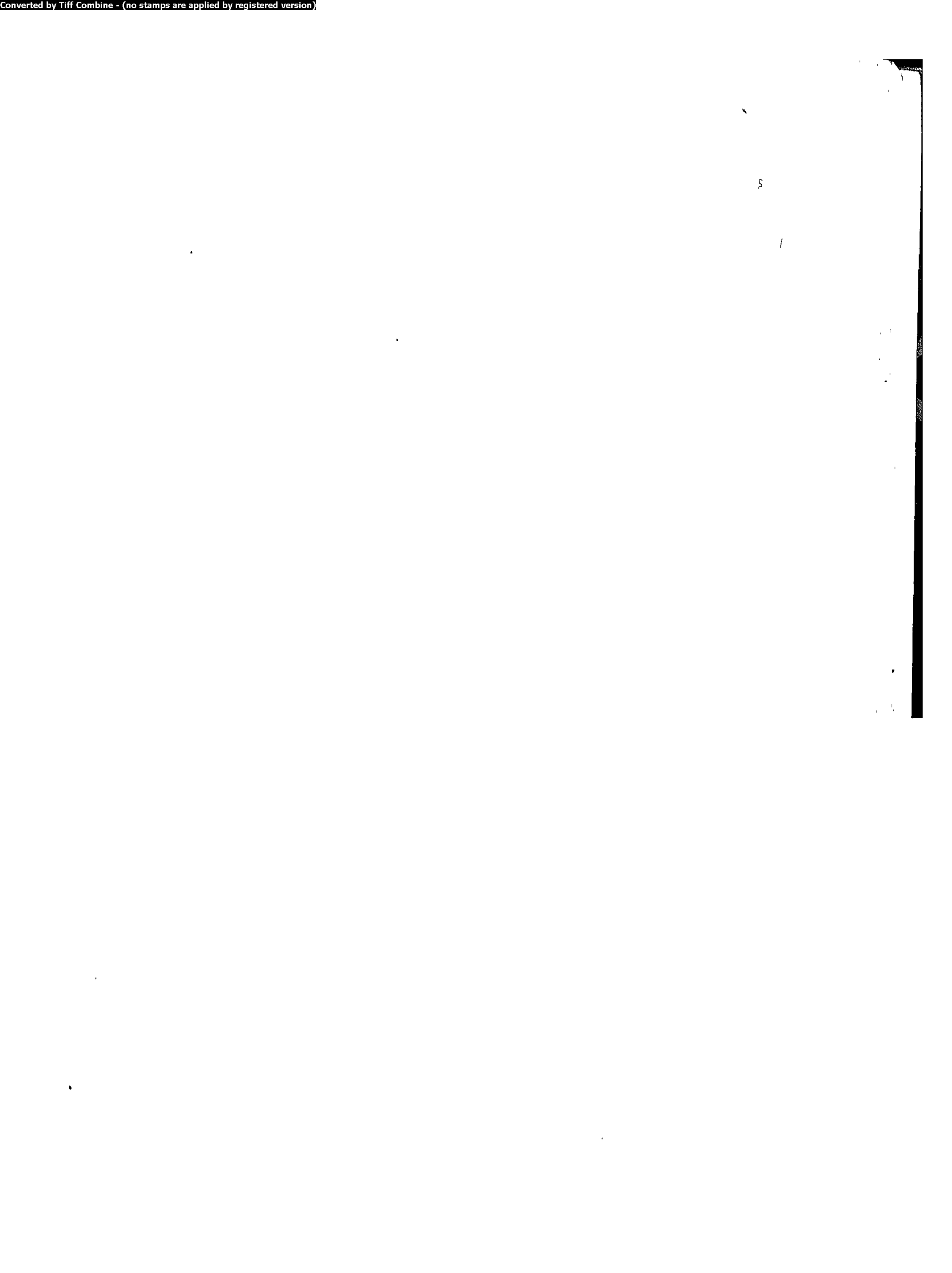
أصل الإيتروسك، الفن الرومي

الشام والدين المسيحي

امتداد التراث الشامي إلى الأندلس

الشام مهد الكتابة العربية

نشوء النقد الإسلامي في بلاد الشام



الشـــام والعـــالم

عطاء الشام الى الغرب

المكتشفات الاثرية من كتابات أو شواهد فنية ، حددت مكانة بلاد الشام الحضارية وأثبتت أن هذا القطر قد قدم الى الانسانية ومنذ بداية التاريخ انجازات حضارية متقدمة ، ولم يكن في حضارته أقل شأناً من حضارتي الرافدين والنيل •

وتمتد حضارة الشام منذ الالف الثالث قبل الميلاد ، وكانت بلاد الشام في جميع مراحل التاريخ ، وبحسب موقعها الجغرافي ، على اتصال مستمر مع العالم المحيط بها •

ومنذ أن بدأ الغرب حضارته ، في عهد الاغريق والايتروسك كانت الشام أول معين لبناء هذه الحضارة ، فقدمت له العقائد والكتابة والموسيقى ثم شاركت في حكم العالم الروماني ، وكان لها دور في نشر المسيحية ، وتدخلت من خلال اسبانيا الى نهضة جزء من أوربا التي كانت غارقة في ظلامات القرون الوسطى : ثم لعبت دورها في صدر الاسلام عندما كانت دمشق عاصمة الامويين • وخلال الغزو الصليبي انتقلت الى الغرب كثير من مظاهر حضارتها •

ولكي نبدأ الحديث عن الشام الحضارة وما أعطته الى الغرب ٠
لا بد أن نتحدث أولا عن الابجدية التي ابتكرها السوريون القدماء ونقلوها الى الغرب ٠

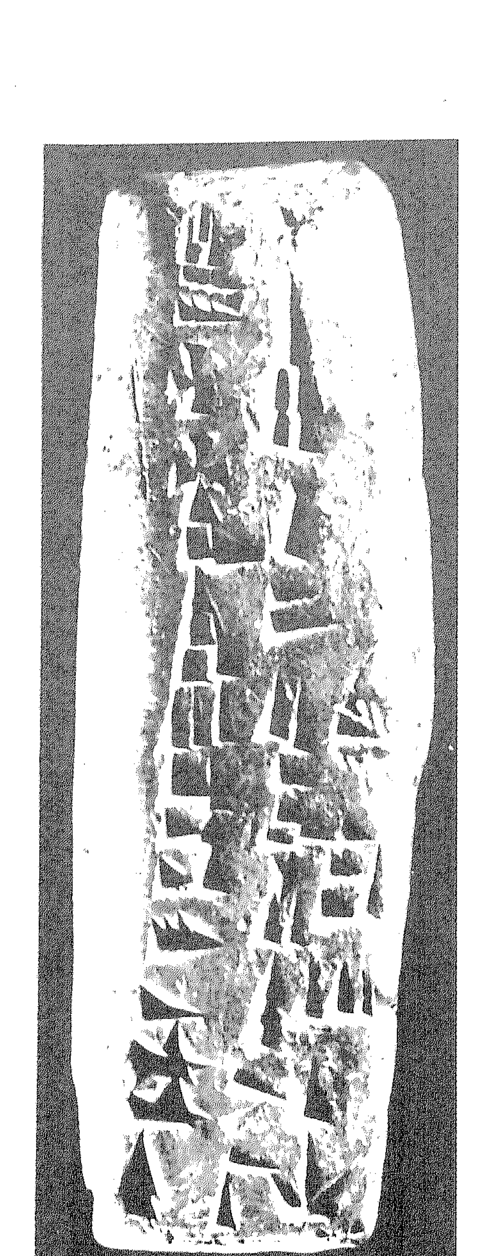
اصل الابجدية الاوربية من الابجدية الشامية

في عـام ١٩٣٣ عثر في مدينة أوغاريت (رأس الشمرة) قرب اللاذقية على رقيم صغير الحجم يحوي عـدداً من الصيغ المسمارية وعددها ثلاثون شكلا ، تبين بعد الدراسة والتدقيق أن هذه الاشكال المسمارية ما هي الا حروف أبجدية لم يعرف لها نظير ، بل لقد تأكد للباحثين أن هذه الابجدية هي الاولى في العالم وانها ترجع الى منتصف الالف الثاني قبل الميلاد ٠

وكان قد عثر عام ١٩٢٢ على أبجدية أخرى في جبيل منقوشة على ضريح احيرام وترجع الى زمن لاحق[١] ٠٠

وعلى الرغم من أهمية ضريح أحيرام هذا ، والذي يرجع الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد إذ يمتاز برسوم نافره جميلة تمثل أحيرام (والد ايشو بعل ملك صور أو جبيل الذي صنع التمثال) وأمامه رتل من الباكيات النائحات والعابدات ، وبعضهن يمزقن ثيابهن علامة الحزن ٠ فإن أهميته التي اشتهر بها ترجع في الواقع الى النص المكتوب عليه بأحرف أبجديـة ما زالت تعتبر حتى الآن الشكل الأولي للأحرف الأبجديه العربية واللاتينية ٠

(١) A. Parrot , M. Chehab .. Les Pheniciens . P . 264



الابجدية المكتشفة في اوغاريت

وكان الكنعانيون وهم قدماء العرب السوريين على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، قد تبنوا منذ العصور الأولى ، الكتابة التي نراها في أوغاريت ؛ حيث كان من المألوف هناك استعمال الكتابة المسمارية التي كانت منتشرة في بلاد الرافدين ، والتي استمرت وسيلة الأكاديين والعموريين العرب القدماء ثم سكان أوغاريت من الكنعانيين ، وكان لا بد من استعمال هذه الكتابة بسبب طريقة النقش على ألواح الطين بمسمار خاص . ولكن المهم في أوغاريت أن الكتابة المسمارية على الرقم الفخارية كانت غير أبجدية كالكتابة الصينية ، ثم قاموا بحذف كثير من الاشارات التي كانت تلازم الكلمات ذات الدلالة الصوتية المختصرة . واكتفوا بصورة تناسب الصيغة الصوتية . فكانت الحروف الأبجديه الاوغاريتية وعددها ثلاثون حرفاً ، وهي أول أبجدية في العالم . ويقول أحد الباحثين (جورج بيرو) : « ان ابتكار الأبجدية كان حدثاً هاماً جداً لا يمكن مقارنته بأي حدث آخر في تاريخ الجنس البشري ، وهو أعظم من ابتكار الطباعة ، اذ أن تحليل الكلام وارجاعه الى عناصره الأولية يحتاج الى عمل فكري عظيم » .

على أن نقش احيرام يقدم لنا أبجدية كاملة مقروءة ومفهومة بوضوح ، ذلك ان كل حرف يعتمد بصيغته وشكله على دلالته المادية لأشياء معروفة ، فاذا كانت الاشارة يمكن أن تترك بعض الشك في هويتها بالنسبة للشكل المادي الذي يمثله الحرف ، فان اسم هذه الحروف يسعفنا في تثبيت هذه الدلالة .

وتسميات الحروف باللغات الكنعانية أو الفينيقية في ذاتها تسميات الحروف العربية لوحدة اللغتين ، وهي تبين أن الحرف الاول (كما نراه

في الجدول التالي) يسمى ألف ، وتعني البقرة ، ويرمز اليها بما يوضح خصائص البقرة . وهو الرأس ذو القرنين • وأن بيتا (الباء) وتعني المنزل أو البيت كما هو واضح ورمزها مخطط غرفة أو صحن دار • و (الجيم) جميل أو الجمل . ويشل بسنم . وداليت (الدال) وتعني الدلاية أو مطرقة الباب وتأخذ هذا الشكل . وياء (الياء) وتعني اليد ورمزها الزند والساعد • وكوف (الكاف) وتعني الكف ورمزها مشابه لكف اليد ، وراس (الراء) وتعني الرأس وتحمل شكل الرأس، وسن (السين) وتعني السن ويأخذ الحرف شكلا مضرساً . وماء (الميم) وتعني الماء وتتجلى بشكل تموج . وهكذا •••••

والقد انتقلت هذه الابجدية الى الكتابة الآرامية والنبطية . ومن ثم الى العربية الاولى ثم العربية الحديثة •

كذلك انتقلت الى الاحرف الاغريقية واللاتينية كما يبدو ذلك جلياً من الجدول المرفق •

ويقول المؤرخون ، أن قدموس شقيق أوروبا وقد مضى الى بلاد اليونان باحثاً عن أخته وبعد أن وصل الى (بيوتي) أنشأ مدينة (طيبة) شمالي أثينا • وقام هناك بتعليم الناس أبجدية الكنعانيين . واستمرت هذه الأبجدية مستعملة مع بعض التحوير ، وحاملة نفس التسميات الكنعانية القديمة ، ثم انتشرت هذه الابجدية في جميع الكتابات الغربية بعد أن تبناها الرومان •

ولقد عثر على نقد برونزي من عهد الامبراطور غاليان يحمل في



- قدموس يعلم اهل طيبه الابجدية الاولى

أحد وجهيه صورة قدموس يعلم أهل طيبة الاحرف الابجدية الفينيقية ، وهذا النقد محفوظ حاليا في المكتبة الوطنية في باريز .

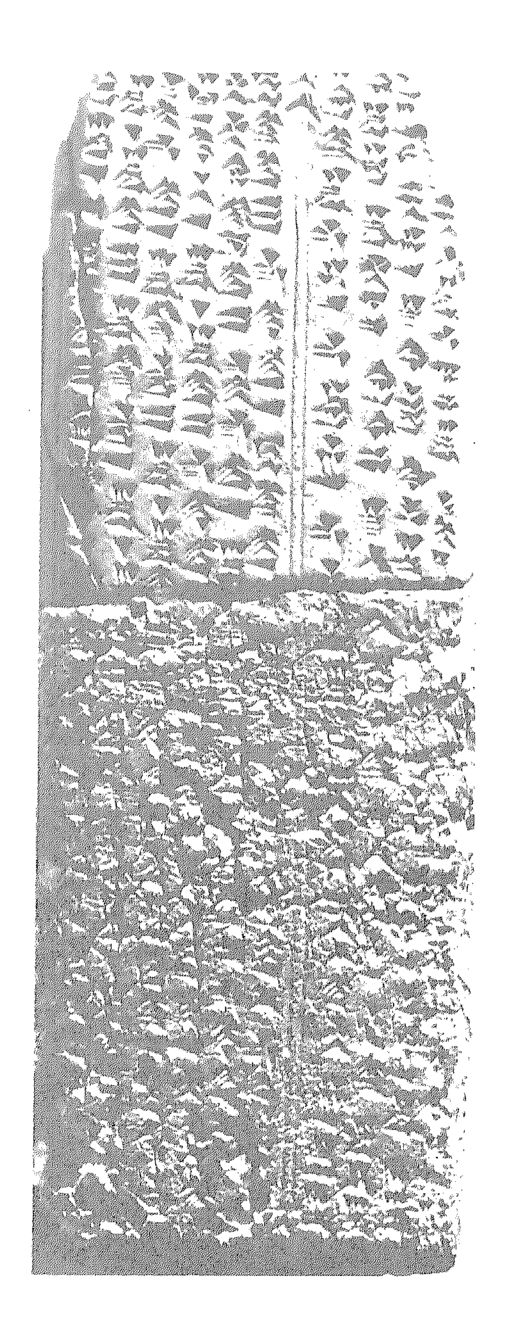
ولقد كتب هيرودوت (ق ٥ ق.م) : ان الفينيقيين القادمين مع قدموس (ابن أجينور) ، جلبوا الى الاغريق معارف كثيرة ومنها الحروف التي لم يكونوا يعرفونها . وكان القدموسيون يستعملونها بادئ الامر بشكلها الفينيقي المألوف . ومع الوقت آدخلوا عليها بعض التغييرات كما غيروا أيضاً في لسانهم ، وآنئذ كان آكثر الاغريق الذين يحيطون بالفينيقيين من الايونيين ، فتعلموا منهم الحروف واستعملوها محرفة قليلا ولكنهم استمروا على تسميتها بالكتابة الفينيقية[1] ، ولقد أدخل الاغريق الاوائل على هذه الحروف ، الحروف الصوتية .

وحوالي عام ٨٠٠ ق.م ظهر الاتروسكيون في شمالي ايطاليا ، ويعود أصلهم الى الساحل السوري وكيليكيا ، وقد نقلوا نفس الابجدية الى الرومان وبدت باللغة اللاتينية . وقام كيريللوس بالاستفادة من هذه الحروف لوضع أسس الكتابة السلافية .

اصل السلم الموسيقي الدياتوني

لم يكن اللوح الطيني الصغير الذي اكتشف في رأس الشمرة (أوغاريت) والذي يحوي أول أبجدية في التاريخ هو وحده الاكتشاف الأقدم الذي عرفنا على تأثير حضاري سوري واسع النطاق على العالم ، بل إن هذا الموقع الأثري قدم لنا ألواحاً آخرى تحوي أول أغنية في العالم اذ ترجع الى عام ١٤٠٠ ق.م ، أي قبل ألف عام من أقدم قطعة موسيقية

(١) تاريخ هيرودوت ج ٥ ف ٥٨ .



اقدم قطعة موسيقية

عرفها الغرب . وهي قطعة أوريستيس المسرحية الموسيقية التي ألفها يوربيديس أعظم شعراء المأساة الاغريقية ، ولقد أبانت ألواح رأس الشمره الموسيقية أنهـا أساس علم الموسيقى الغربي الذي أقامـه فيثاغورس عام ٥٠٠ ق.م اذ أنها تقوم على السلم السباعي الدياتوني. ولقد أدى هذا الاكتشاف على حد قول الدكتورة كيلمر الى احداث تغيير أساسي في تحديد عمر وتاريخ الموسيقى الغربية .

وهذه القطعة الموسيقية تتضمن أغنية حب بين الآلهة . وقد جرى عزفها مؤخراً على قيثارة استصنعت خصيصاً ، وهي قيثارة مشابهة لتلك التي ترجع الى نفس العهد : كان قد اكتشفها عالم بريطاني في مدينة أور في العراق .

وقام العازف كروكر بعد تمرين استمر عشر سنوات بعزف القطعة الموسيقية في حفل كبير بجامعة بيركلي ، أثار اعجـاب الحاضرين ودهشتهم من أنهم يسمعون أصول موسيقاهم منذ أربعـة آلاف وخمسمائة عام .

اوربا اسم منحته اميرة شامية لقارة جديدة

ثمة قصة رائعة هي من عيون الأدب العالمي . هي قصـة الأميرة السورية أوربا وكيف سميت هذه القارة باسمها ، حكاها شاعر من الاسكندرية ، هو (موسيخوس) في القرن الثاني الميلادي ، ونسبها الى الاغريق[١]

---

(١) الاساطير السورية .

وتاريخ الاغريق أساطير ، والاسطورة كانت حكاية يمتزج فيها الخيال بالواقع ، ولم يكن التاريخ تاريخاً ما لم يكن شعراً ؛ وهكذا كانت البذه هو ميروس هي تاريخ الاغريق بكل خرافاته وخيالاته وأساطيره •

كان في بلاد كنعان (أي الاراضي الواطئة) من بلاد الشام ملك اسمه اجينور أو اشنار يحكم من بلاد كنعان منطقة اسمها فنيقا ، (والاسم من فينقوس ابن اجينور بدمشق ؛ أو لعله من الارجوان ، فينقر ادفوبي ، أو هو من شجر الأرز) •

وأجنور هـذا لم يكن ملكاً عادياً ، بل كان ابن اله • فأبوه بوزيدون اله البحر ويسميه الكنعانيون (يم) ، وأمه ليبيا التي أوجدت قارة افريقيا وأعطتها اسمها أولا •

أما أولاده فهي ابنته أوربا التي أعطت اسمها الى القارة الاوربية ، وقدموس الذي أعطى اسمه الى قادميا في بلاد اليونان •

ونسمع الشاعر يتحدث كيف أعطت الاميرة السورية هذه القارة اسمها ، وكيف انتقل هذا الاسم مجسداً بشخص هذه الفاتنة الساحرة أوربا بنت أجينور •

اوربا بنت اجينور

« الفصل ربيع والليـل يكسوه ضيـاء أقمـر
والارض خميلة خضراء والزهر وشاح أحمـر
وعبير أرض كنعـان يضمخ وجههـا الاسـر

الاميرة اوربا محمولة على الرب زفس بشكل ثور

هي (أوربا) وقد امتدت بجسمها اللدن على سرير
وكانت ساهدة لا يدركها النوم الأسير
هي أميرة أثيرة والدها أجينور الشهير
ملك فينيقيا الذي طوف في الآفاق البعيدة
طاف البحر الأبيض على سفن سعيدة
وكانت هي تحلم بالابحار على ناصية عربيدة
الى أرض لم يعرفها بعد الا كائن جسور
ولا رآها قبل فاتح ولا عبرها أجينور
وأقلقها حلمها لكنها تابعته بلهفة وغرور
فلعل الالهة وفوقها زفس الجبار العظيم
قد جاءها في حلمها بصدرة كائن دميم
وقال لها كوني قارة عظمى ياابنة أجينور العظيم.
وفاقت فاتنة العالم من حلمها مع الفجر
ولشد ما تتحقق للفاتنات أحلامهن مع الفجر
ومشت تختال بين وصيفاتها وكانت فيهن كالبدر
ومشين بأثواب شفافة كالغمام يحجب النور الباهر
وبدأن يملئن السلال من أكمام الزهر الناضر
وكانت أوربا الأميرة تمنح الزهر أريجه العاطر
في الأعالي كان زفس مستلقياً يرقب الارض ومن فيها
ويبحث عن الجمال في بساتين الارض وبواديها
فرأى الفتنة ماثلة وغشت عينه بسمة من فيها
والنهب قلب زفس بسهم كيوبيد فترنح ثم استقام

وساعدت ايروس وافرديت وزينا له المرام
ولم يثنه دهاء هيرا زوجه . والاله ان رام أمراً رام
وتقمص زفس شكل ثور كستنائي اللون يزين قرنه معدن كريم
ويدا وديعاً أليفاً جذب الصبايا الى عطره البارد كالنسيم
وغنى لاوربا نشيد الحب بخوار عذب ولحن رخيم
وانحنى أمامها فاعتلت ظهره العريض فهب طائراً كالريح العليل
يمخر عباب البحر مزهواً بحمله ، منتصرا بفارسه الجميل
وخرجت دلافين البحر تحية له وعوناً ، تصدح بالأبواق والطبول
ومشى على البحر بوسيدون ، جدها رعاية للعاشقين
وارتبكت أوربا وخافت من صورة الدلافين
وأمسكت بقرن زفس فأحست بدفء الحب يربط الخافقين
ونادت بأعلى صوتها ، أنا أوربا ، لا ترمني أيها الثور الحبيب
فقال من تحتها وأنا زفس العظيم أحببتك والحب يفعل العجيب
وكريت كانت غافية ، لم تكن قد رأت بعد عرساً مهيب
ونفخ بالصور ان قامت مدينة ونهضت قارة من العدم
ونفخ بالصور ان أوربا زوج الالهة قد جاءت من عالم القدم
لتكشف عن قارة لم يكن لها اسم ولم يُعرف لها رسم عند الأمم .

* * *

وهكذا قدمت الشام منذ فجر التاريخ الى القارة التي لم تكن معروفة بعد ، اسمها . ولعل هذه الاسطورة تخفي في طياتها مغزى أعمق يتجلى في عملية اكتشاف هذه القارة من تلك الاميرة الفاتنة التي انتقلت على صهوة الالهه من بلادها الى عالم لم يكن معروفاً ،

فاكتشفنه وأعطته اسمها وأنجبت من زفس أولاداً ، لعل كل واحد منهم أنشأ مدينة ودولة فيما بعد •

ولقد حمل الاغريق هذه العقيدة دائماً ، من أن موطن اسم أوربا هو الشام • وعندما جاؤوا مع الاسكندر المقدوني الى سورية في القرن الثالث ق•م ، أنشأوا فيها أولا مدينة أطلقوا عليها اسم (مدينة أوربا) (دورا أوروبوس) وهي صالحية الفرات المعروفة في محافظة دير الزور •

اللون الارجواني

ولقد كان اكتشاف اللون الأحمر في سواحل الشام وانتشاره في بلاد الاغريق والرومان ، سبباً لاطلاق اسم بلاد الارجوان على هذه المنطقة • وتقول الاسطورة اليونانية ان ابتكار لون الارجوان يعود الى حورية تدعى تيروس كان قد وقع بحبها هرقل الجبار • وذات يوم كانت تتجول على شواطىء سورية ، فاذا بها ترى لوناً أحمر ارجوانياً على فم كلبها ، الذي تناول الارجوان من صدفة ما • فأعجبها اللون وطلبت من هرقل أن يحضر لها ثوباً بلون الارجوان • والا فانها ستصده عن حبها • فقام هرقل باحضار اللون الارجواني من الاصداف والنباتات وصبغ به ثوباً وقدمه لها ، كان ذلك بداية ظهور وانتشار هذا اللون في العالم •

الاسرة السورية التي حكمت روما

لقد لعبت سورية دوراً كبيراً في العهد الروماني الامبراطوري •

فلقد انتقل كثير من السوريين الى روما يحملون معهم ثقافتهم وفكرهم وفنهم . واعتمد عليهم الرومان في كثير من شؤون الثقافة ؛ حتى قال الشاعر الهجاء الروماني جوفينال ، منذ عام ١٤٠ م ، منتقداً هــذا التأثير العارم : « ان نهر العاصي أصبح يصب في نهر التيبر منذ زمن بعيد ، حاملاً معه لغة سورية وتقاليدها وثقافتها » .

Jam pridem syrus in Tibrim defluxit Orentes et linguam et mores .

وتأكد هذا التأثير عندما استلمت آسرة سورية زمام الحكم في روما . وهي عائلة سيفيروس التي حكمت الامبراطورية من عام ٢١١ ـ ٢٣٥ . ثم أعقبها فيليب العربي امبراطور روما الذي ولد ونشأ في شهبا جنوبي سورية .

وتتألف عائلة سيفيروس من سبتموس الليبي من لبدة . وكان يتكلم الفنيقية وتزوج من جوليا دومنا الحمصية التي تتكلم الآرامية شقيقة الفنيقية . وكانت جوليا ابنة باسيان الحمصي الكاهن الأعظم في معبد إله الجبل (ايلا غبال) في حمص ، وكانت ابنته جوليا على جانب عظيم من الذكاء والجمال والثقافة ، وتزوجت من سبتموس عام ١٧٥ م وكان من كبار الموظفين . ثم أصبح امبراطوراً على روما عام ٢١١ م ، فبنى قصراً على هضبة البالاتين . وكانت زوجته قد فرضت سلطانها إذ رافقت زوجها في انتصاراته وفي حكمه ، فمنحتها روما لقب « أم الوطن » ولقب « أم مجلس الشيوخ » ولقب « أم الجيوش » . وفتحت أبواب قصرهــا الى السوريين الذين وفدوا اليهــا كعلماء ومفكرين ورجال دين[1] .

ولقد استعانت جوليا دومنا بعدد منهم من أمثال قريبها الفقيـه

(١) انظر كتاب L'Histoire Auguste



– جوليا دومنه من حمص امبراطورة روما

بابينيان ، ثم أولبيان وديوجين كاتب التراجم وديو كاشيوس المؤرخ وفيلو سترات السفسطائي •

كما اعتمدت على شقيقتها جوليا ميزا التي جاءت معها من حمص مع ابنتيها الشابتين الجميلتين •

وقد ولدت جوليا دومنا ولدين : الاول باسيان وأصبح امبراطوراً لروما تحت اسم مارك أوريل أو كارا كالا • والثاني جيتا الذي قتله أخوه بعد موت أبيه ليرث مكانه في الحكم •

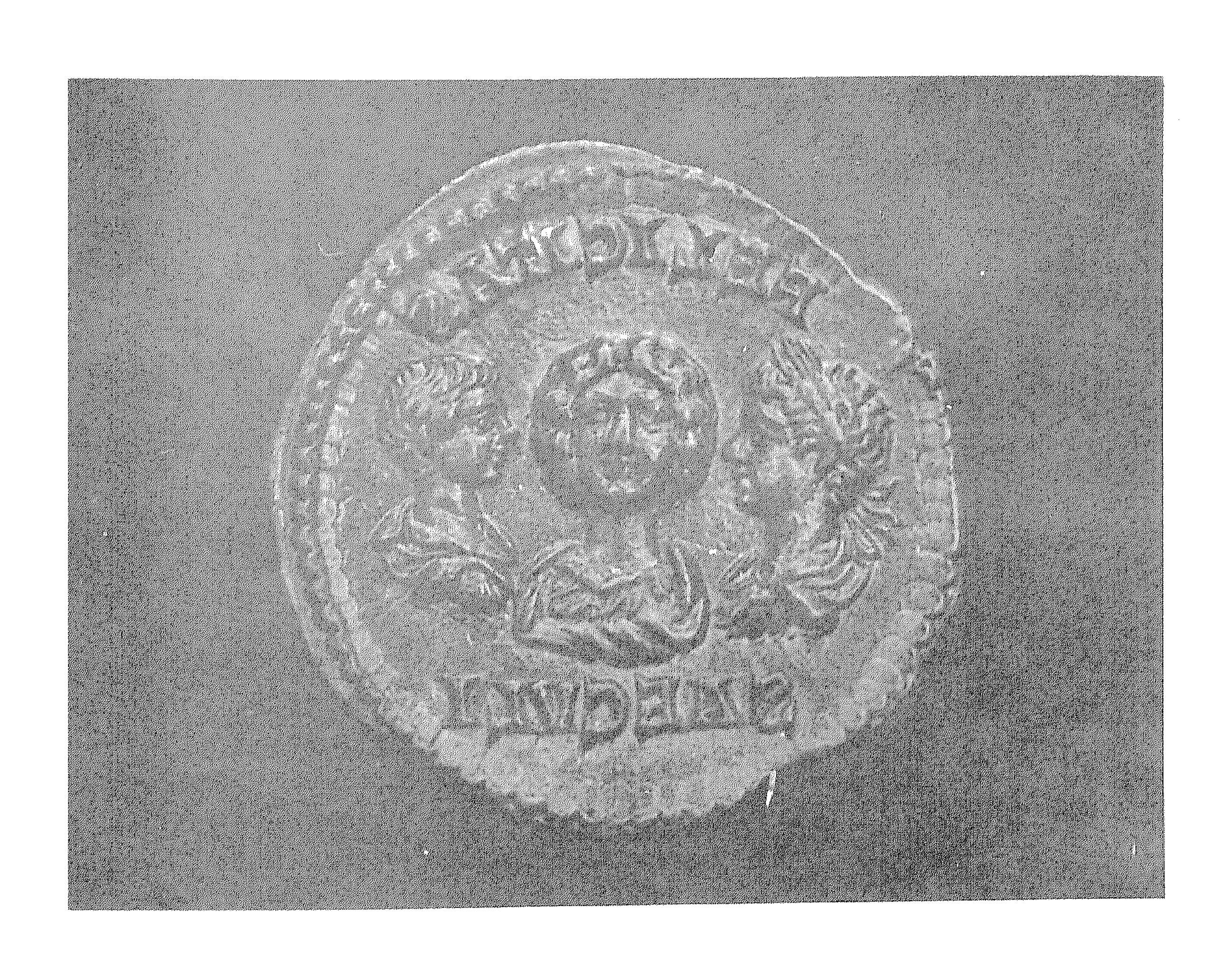
وعندما قتل ابنها كارا كالا غدراً ، حزنت عليه وامتنعت عن الطعام حتى ماتت ودفن رمادها في مدفن (اوغست) في روما باحتفال مهيب •

وجوليا ميزا كانت أكثر تأثيراً في السياسة والعقيدة ، وتحويل المجتمع الروماني نحو الحياة الشرقية ونشر العادات والتقاليد السورية•

وهي أرملة أحد السوريين ولها منه ابنتان جميلتان هما جوليا سوميا التي تزوجت ابن خالتها كارا كالا ، وجوليا ماميا التي تزوجت ابن كارا كالا الامبراطور ايلا غبال •

لقد حملت روما ذكرى الامبراطور كارا كالا بالحمامات الكبيرة التي ما زالت آثارها قائمة حتى الآن ، وهي تستد على مساحة قدرها أحد عشر هكتاراً ، وكانت تتسع لألف وستمائة زائراً تمارس فيها جميع أنواع الرياضة وتضم مكتبة ضخمة فكانت مركزاً ثقافياً رياضياً وليس مجرد حمام للاستحمام •

وقد كانت الحمامات مزينة بالفسيفساء ومكسوة بالرخام المرمر والتماثيل الرائعة تحيطها الحدائق والمنتزهات والمرافق الأخرى •



جوليا دومنه بين ولديها باسيان وكاراكالا

ويعتبر كاراكالا من أبرز الاباطرة الرومـــان الذين تركوا آثاراً اجتماعية هامة ، اذ أصدر مرسوم كاراكالا الشهير الذي جعل بموجبه جميع سكان روما سواسية يخضعون لقانون واحد ضمن حـــدود الحرية والحقوق الاساسية التي منحت لهم • وكان كاراكالا يضرب المثل بتواضعه وحسن معاملته للشعب والجنود ، فيعيش معهم ويأكل من أكلهم ويستمع الى طلباتهم ويحل مشاكلهم • ولقد قتل في حران شمالي سورية وهو في ريعان عمره وفي قمة مجده[1] •

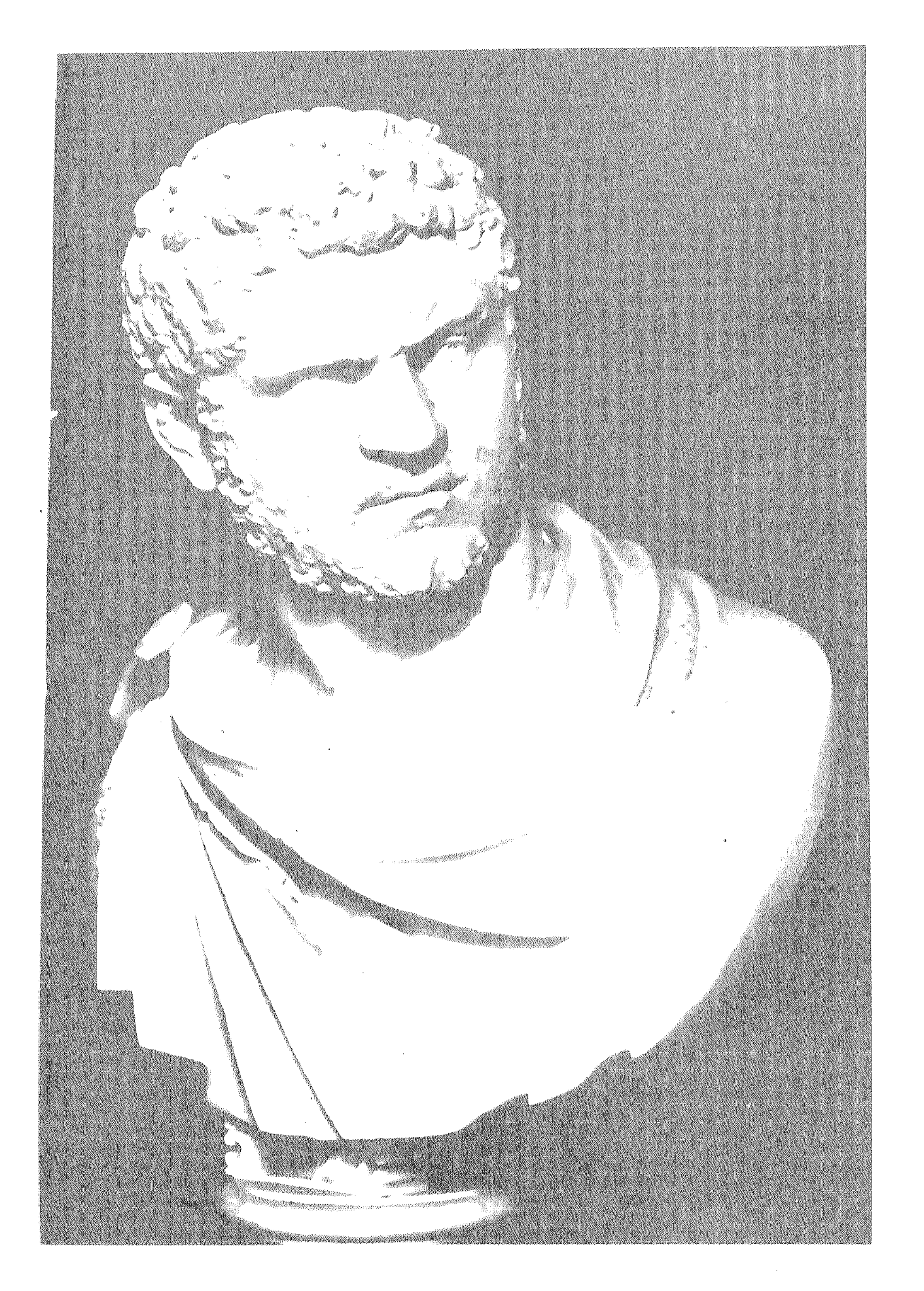
ولقد حمل كاراكالا هذا الاسم لأنه كان يرتدي الكاراكال ، وهو رداء سوري يشبه العباءة •

بعد موت كاراكالا قتلاً وموت أمه جوليا دومنا حزناً عليـــه ، حصلت في روما اضطرابات تزعزع النفوذ السوري على أثرها • الا أن الفرقة الغالية الثالثة المؤلفـــة من الجنود السوريين المرابطة قرب مصياف ، وبتأثير جوليا ميزا ، أعلنت افتينوس امبراطوراً على رومـــا تحت اسم ايلاغبال وهو ابن جوليا سوميا وكاراكالا ، وكانت جدته جوليا ميزا قد استردت مكانتها وقيادتها للأمور ودعمت الامبراطور الصغير (١٤ عاماً) وابنتها بحاشية سورية جديدة •

كان افتينوس قد ورث لقب الكاهن الاعظم في معبد حمص ، وكان الحجر الاسود الهرمي الذي يرمز الى الاله ايلاغبال الشكل المقدس في العبادة السورية ، فنقل الحجر الاسود الى روما ، وأنشأ له معبداً خاصاً وميزه على سائر الاشكال المقدسة وبنى قربه مذبحاً • وكان الامبراطور نفسه يمارس الطقوس والشعائر في المعبـــد على الطريقة السورية ، ويتبعه في ذلك جميع رجال الدولة •

---

(1) **J. Babelon : Les Princesses Syriennes payot . paris 1950**



الامبراطور كاراكالا

ثم أنشأ معبداً آخر في ضواحي روما . وجعل الحجر الاسود ينتقل بين المعبدين على عربة محلاة بالذهب والاحجار الكريمة وباحتفال رسمي •

ولقد أثار هذا التحول العقائدي المتعصبين من القادة الرومان ، فتآمروا على الامبراطور فقتلوه وأمه جوليا سوميا وكثيراً من رجال الحاشية السورية ، وألقو بجثثهم في نهر التيبر (٢٢٩ م) • وهدموا المعبدين وأعادوا الحجر الاسود الى سورية •

لم يكن ايلاغبال قد سمع الى نصائح جدته جوليا ميزا الحكيمة القديرة ، وكانت تنتظر لحفيدها هذه النهاية المحزنة ، وتسعى الى استبداله بحفيدها الآخر الكسيانوس ابن ماميا ابنتها الثانية ، الذي أصبح امبراطوراً بعد مقتل ايلاغبال ، واعتلى العرش تحت اسم اسكندر سيفير[1] •

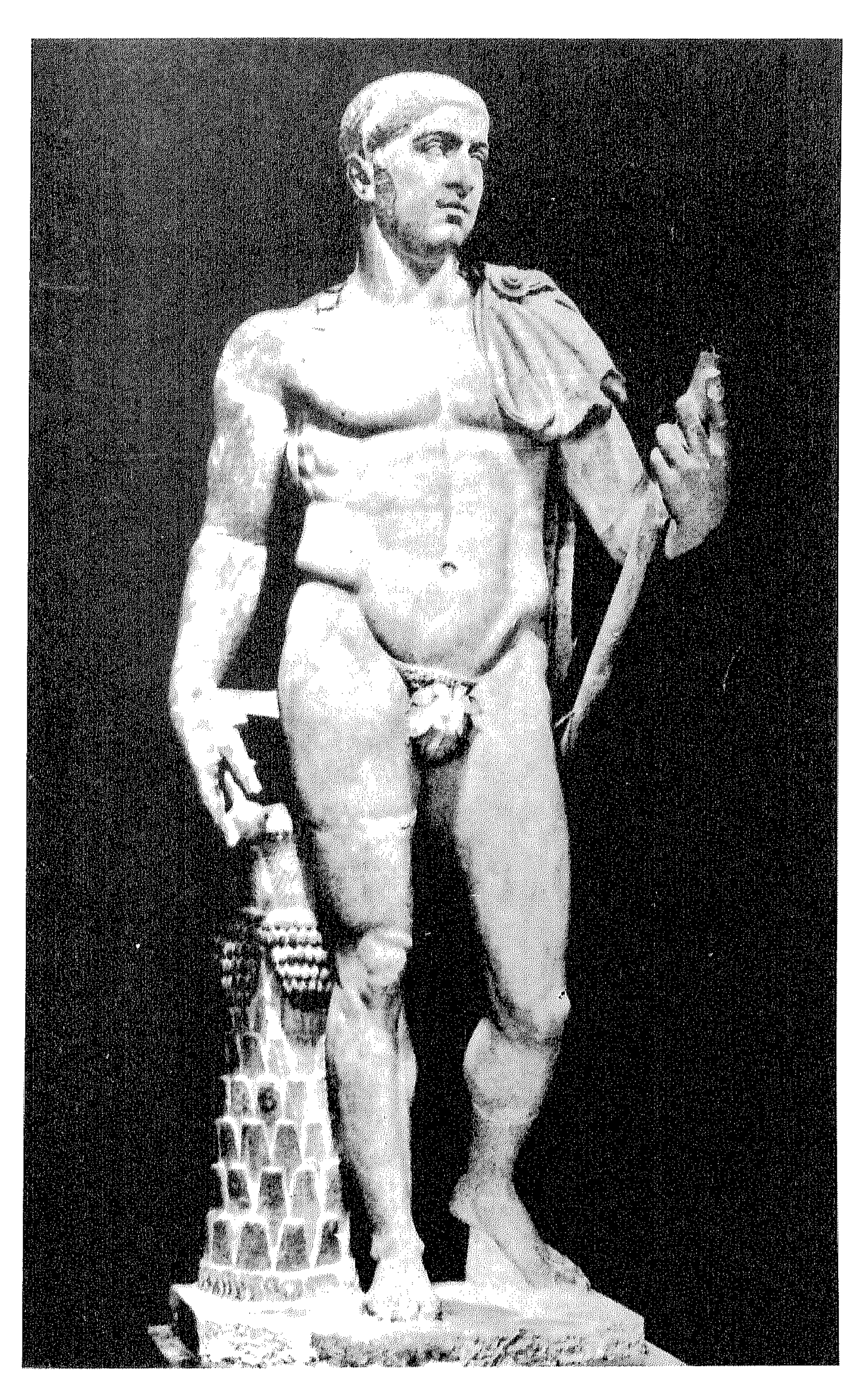
لقد استمر اسكندر سيفير على علاقته بسورية كسلفه ايلاغبال ، وكلاهما كان يشغل منصب الكاهن الاعظم في حمص ، واستمر ذلك حتى أثناء اعتلائهما العرش •

وكان اسكندر قد اهتم بالناحية الديمقراطية وجعل الأمر شورى معتمداً على مجلس المستشارين •

ولعل اعتماده على القانون والعدل وتركيزه على الامور الديمقراطية لم يكن يرضي بعض الفئات التي كانت تعيش على المنح والميزات ، فقتلوه في خيمته عام ٢٣٥ م هو وأمه ماميا وكان حكمه قد امتد ثلاثة عشر عاماً •

---

(1) الرجع الاصلي Herodian . V. Ch. 5



الامبراطور الكسندر سيفير

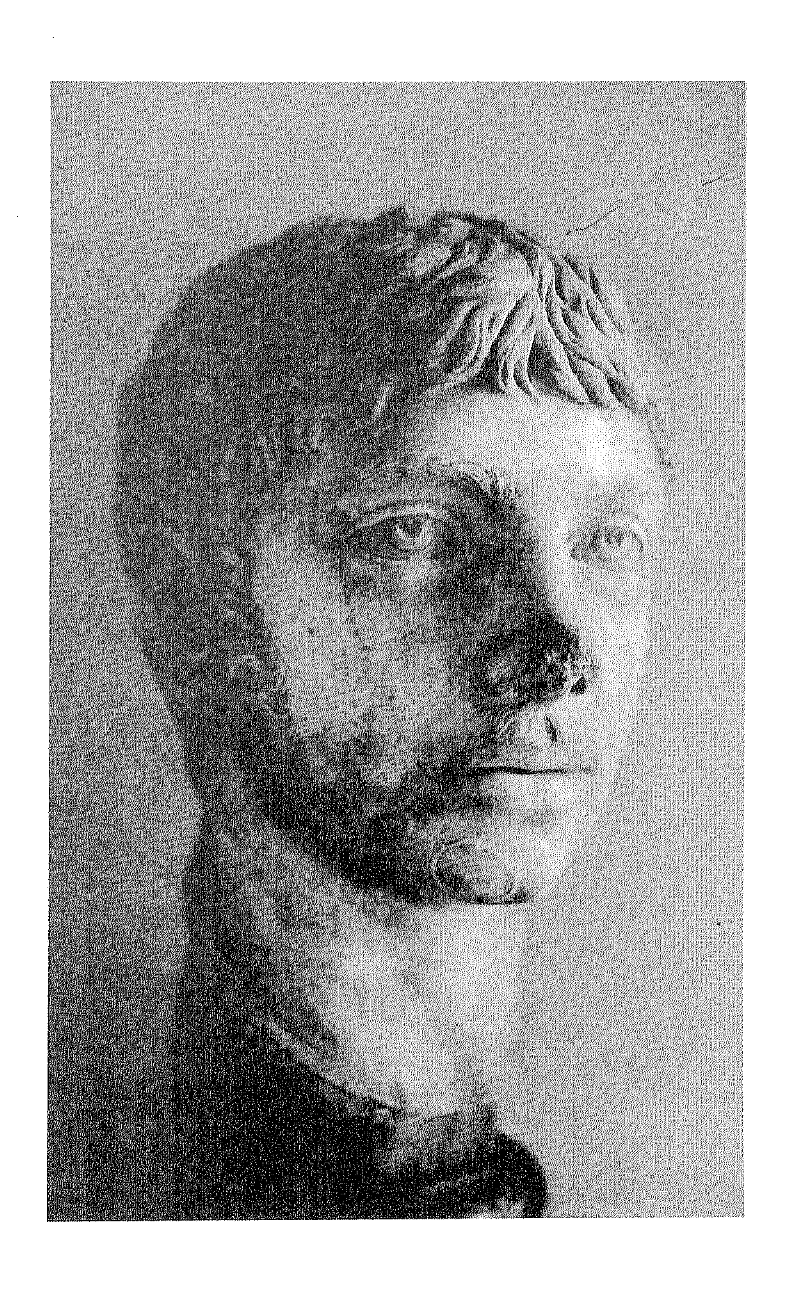
فيليب العربي من شهبا ، امبراطور روما

فيليب العربي هو الشخصية السورية الاكثر اهمية ، والتي وصلت عن جدارة الى قمة الحكم في امبراطورية روما الواسعة الارجاء .

يتصدر منصة عمدة روما اليوم . في مجلس المدينة ضمن بناء الكابيتول ، تمثال ضخم للأمبراطور فيليب العربي . وهو رمز لتلاقي الشرق بالغرب ورمز لبداية ظهور المسيحية كما قال لي عمدة المدينة .

ويعود الفضل الى هذا الامبراطور السوري في اخراج روما من محنتها التي كانت عليها بعد أن قضي على الاسرة السورية باغتيال اسكندر سيفير ووالدته من قبل المتمردين عام ٢٣٥ م . وفي عام ٢٤٤ م اختير فيليب ليكون امبراطوراً تدعمه الفرقة الغالية السورية ، وكان قد عرف بمقدرته القيادية وذكائه وأدبه . وكان آنئذ رئيساً لحامية عسكرية في مدينة زيتا التي تقع قريباً من صالحية الفرات . وكان فيليب قد ولد في شهبا وأطلق عليه اسم ماركوس يوليوس فيليبوس ، وكان أبوه شيخاً من شيوخ حوران . وعندما استلم الحكم اهتم بموطنه فجعل بصرى متروبولاً ، وأنشأ في شهبا كثيراً من المباني الجديدة : المسرح والأقنية والفيليبوم والحمامات والشوارع الرئيسية مما نراه واضحاً حتى يومنا هذا ، وحملت شهبا عبر التاريخ اسم فيليبو بوليس .

ويعود الفضل الى فيليب العربي في تحرير المسيحيين واعادة ممتلكاتهم .

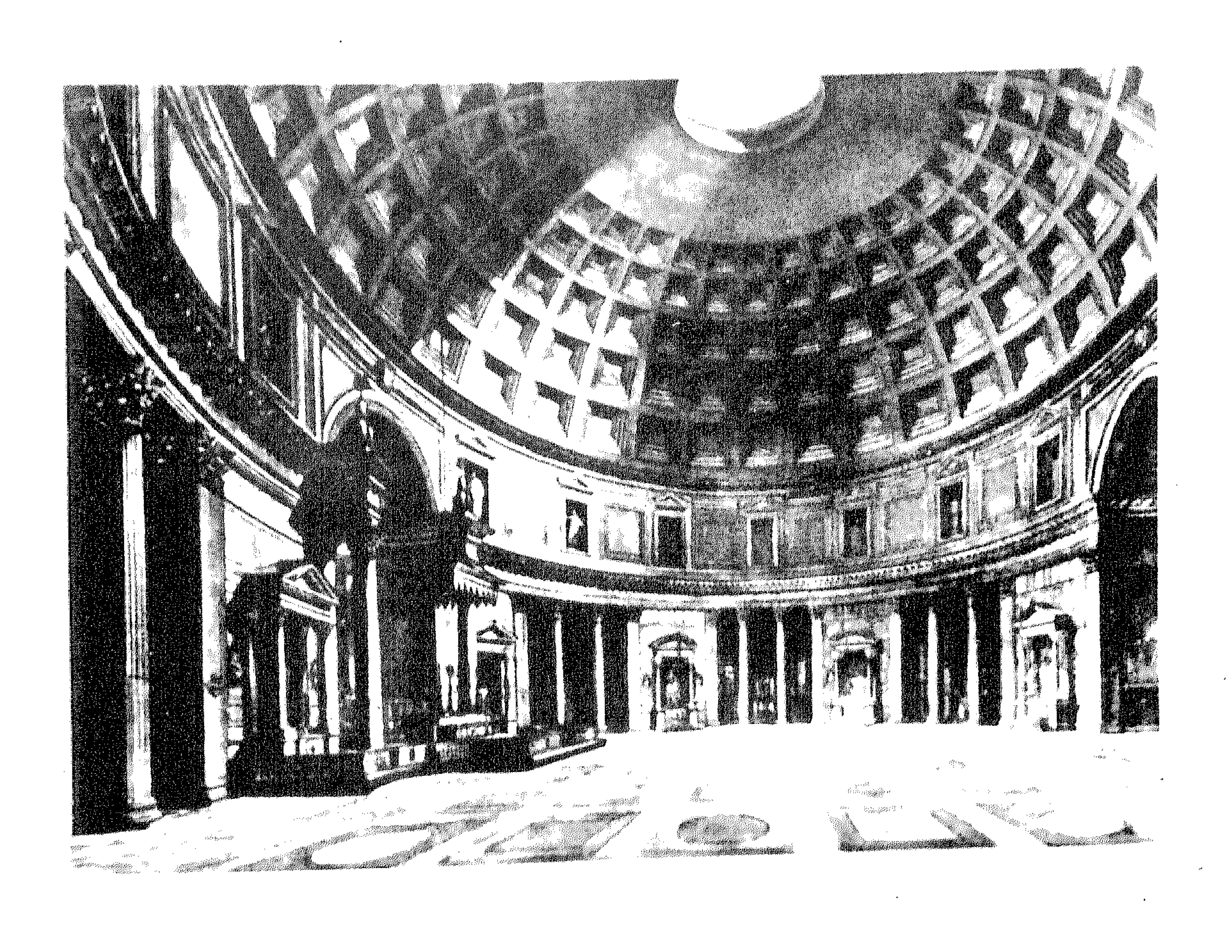


الامبراطور ايلاغبال (اله الجبل)

وقد وطد الحكم في روما فعقـد صلحاً مع سابور الاول ملك الفرس وحارب البرابرة في الدانوب وانتصر عليهم • ثم عاد الى روما لكي يشيد قصراً ضخماً على هضبة كيليوس • واستعان بالسوريين أقربائه في الحكم ، فجعـل أخاه قائداً على جيوش الشرق ، وزوج شقيقته قائداً على أوربا الشرقية ، وكرم والده وقدسه وجعله إله وأقام له معبداً خاصاً أنشأه في شهبا •

المعمار الدمشقي ابو للودور

عدد من المعماريين السوريين اشتركوا في بناء الأوابد الضخمة في الامبراطورية الرومانية ، ذلك ان المعمار السوري كان قد أنجز ببراعة خارقة أوابد ضاهت بروعتها أوابد روما ، ونحن ما زلنا نرى آثار دمشق وأفاميا وتدمر وبصرى وشهبا وآثار بعلبك وجرش وكلها من بناء المعمار الشامي وقد وصلت الى أعلى مراتب الكمال والروعـة المعمارية • ولقد ورث المعمار السوري عن أجداده تقليد انشاء الأقواس والقباب مما لم يضارعه في ذلك معمار آخر ، وأخذت العمارة الرومانية فيما أخذت من تقاليد العمارة السورية . بناء القوس والقبة ، حتى أن قبة الباتنيون وهي أشهر قبة في العالم كان قد بناها المعمار السوري أبو للودور الدمشقي Apollodor de Damas • فنحن نعرف أن هذا الصرح الضخم كان قد انشىء عام ٢٧ في عهد أوغست من قبل المعمار فاليريوس ثم أعيد بناؤه بعد أن تهدم ، في عهد الامبراطور أدريان عام ١٣٨ م وقد صمم قبته ونفذها أبو للودور الدمشقي الذي اشتهر في ذلك الوقت كأبرع معمار • وترتفع القبة عن الارض ٤٣٫٥٠



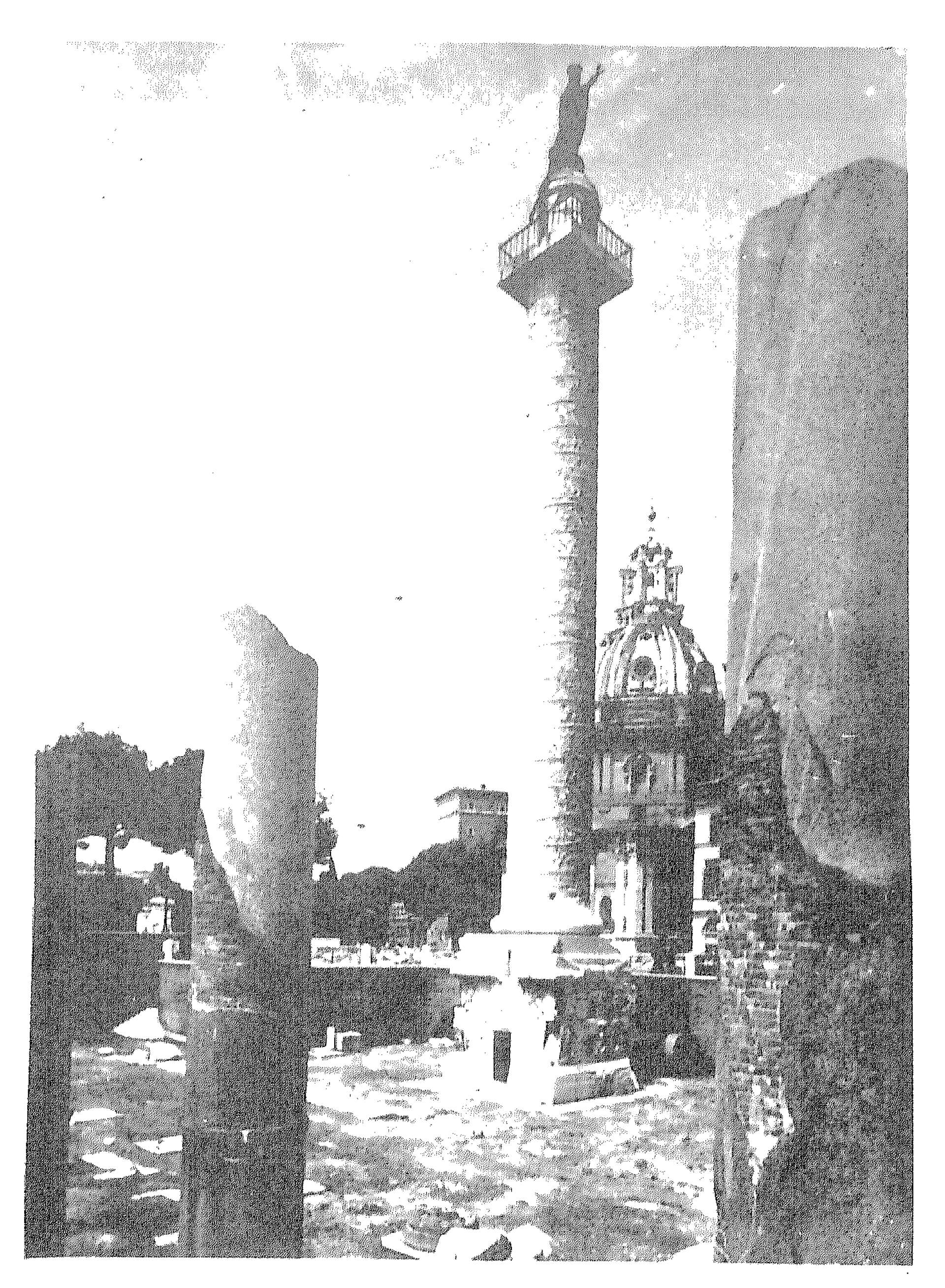
قبة البانتيون في روما للمعمار ابو للدور الدمشقي

متراً ، ويبلغ قطرها نفس ارتفاعها وليس لهذه القبة رقبة أو نوافذ ، بل فتحة عليا قطرها ٩ أمتار • وهي اليـوم مدفن للعظماء فيها قبر رافائللو المصور الشهير ، وماكيافيلي الفيلسوف •

ان أبو للودور الدمشقي الذي ولد على ما يبدو في دمشق عام ٨٠ للميلاد ، وقد اختص بالعمارة الضخمة صارت له شهرة واسعة مما دعى الامبراطور تراجان الى استدعائه الى روما لبناء فورم روما الذي ما زالت آثاره واضحة حتى اليوم في عاصمة ايطاليا روما •

وقد تم انجاز هذا الفورم عام ١١٤ م وهو ساحة تحيطها بوائك مخصصة لرجال الحكم والاقتصاد يتبادلون فيها أفكارهم وبضائعهم ويحلون مشاكلهم ، وعادة ينشأ في مركز المدينة (المتروبول) مثل هذه الساحة (الفورم) التي أخذت عن الاغريق وتسمى (اغورا) •

ولقد أنشأ أبو للودور أيضاً منشأة أخرى ، وهي قصر للعدل ومكتبتين وبازليك اولبيا وعموداً تذكارياً ضخماً هو عمود تراجان والذي ما زال قائماً حتى يومنا هـذا في مدينة روما • وهو عمود كالمئذنة الاسطوانية ارتفاعه ٤٣ متراً وهو مؤلف من ثمانية عشر جزء وداخله سلم لولبي ، ويغطى العمود بنقوش بارزة تمثل ما يقرب من ألفي شخص عدا الآليات ومعدات الحرب . وتمثل مشاهد الجند هذه ، حرب تراجان المنتصرة في بلاد داشيا ، وفي قاعدة العمود مكان أودع فيه رماد جثة الامبراطور ، وقد وضعت في وعاء من الذهب • لقـد أدهش فن أبو للودور الاباطرة الرومان وبخاصة تراجـان ، وكان صديقاً لأبو للودور فاحتل هذا المعمار السوري في عهده مرتبة عليا



عمود تراجان للمعمار ابو للدور الدمشقي

من التقدير ، وبعد وفاة تراجان عام (١٣٥) اعتلى العرش ادريان الذي ابتدأ متمسكاً برعايته لأبو للودور ، فكلفه ببناء قبة البانتيون • ثم أقام كمهندس للجسور أضخم جسر أنشىء في تاريخ روما وهو جسر دبروجا على نهر الدانوب ، فكان معجزة هندسية رائعة ، ثم كلفه ببناء معبد كبير • ومات أبو للودور قبل انجازه ، وكان موته غامضاً ، أثر اختلافه مع الامبراطور • لقد كان أبو للودور قمة من قمم فن العمارة عبر التاريخ ، ويحق لنا أن نزهو بعبقرية هـذا الفنان المعمار الذي أصبح قدوة فيما بعد ، أخـذ عنه ميكل انجلو في بناء قصر فارنيزه في فلورنسة ، وأخذ عنه المعمار الفرنسي في انشاء عمود فاندوم في باريس أيام نابليون •

اصل الايتروسك

ان انتقال الايتروسك من السواحل السورية وكيليكيا الى شمالي ايطاليا منذ القرن الثامن قبل الميلاد ، أصبح أمراً مؤكداً ، وان هؤلاء الذين أسسوا حضارة ايطاليا القديمة ، كانوا قد أثروا في بناء الحضارة الرومانية أيضاً ، وما زالت ايطاليا تعتبر منطقة لومبارديا هي مهـد الحضارة الاولى التي جاءتهم من سورية •

الفن الروماني

كذلك فان الفن الرومي المسيحي الذي استقر في منطقة تقع بين فرنسا واسبانيا وايطاليا وانتشر فيها حاملاً معالم خاصة ، هو فن سوري الأصل يؤكد ويعترف به المؤرخون • ولقد كان هذا الفن مقدمة لظهور الفن الغوطي •

الشام والدين المسيحي

لقد كان لسورية دور كبير في احتضان المسيحية وفي نشرها في أوربا ، ونحن نذكر القديس حنانيا الدمشقي ودوره في انقاذ بولس الرسول . وحنانيا هو من الحواريين ، وهو أحد أوائل تلاميذ السيد المسيح الاثنين والسبعين والذين ذكرهم القديس لوقا ، وقد قام حنانيا بمسح عيني شاؤول الطرسوسي ، وبانقاذ بولس الرسول من محاولة القضاء عليه من اليهود لأنه كان ينشر المسيحية ، فاختبأ في أحد البيوت الدمشقيه ولعله بيت حنانيا نفسه . ثم تسلل من خلال سرداب الى باب كيسان ، وهناك ساعده المخلصون له بالهرب من نافذة الباب ، اذ وضع في سل وأنزل من أعلى السور ، وقد حول المنزل المتاخم للباب الى كنيسة سميت باسم القديس بولس .

والقديس بولس هو الذي نقل الى روما الديانة المسيحية فيما بعد ، وهو الذي كتب الانجيل ولأول مرة باللاتينية ، وعن طريقه انتشرت المسيحية في جميع أنحاء أوربا .

ولقد أصدر نيرون امبراطور روما الطاغي قانوناً لقمع الحركة المسيحية ، وتنفيذاً لهذا القانون قتل بولس بالسيف عام ٦٧ م كما قتل القديس بطرس صلباً .

وكانت انطاكية أول مركز للمسيحية ، وكان بولس وغيره ينطلقون منهـا في أعمالهم التبشيريـة ، وكان من ألمـع كهنتهـا يوحنا فـم الذهب . ولا بد من القول أن صورة السيد المسيح التي انتشرت في العالم انما وضعت في انطاكية لأول مرة . وأطلق عليها اسم المسيح

السوري ، وكانت صورة المسيح سابقاً مسنوحاة من صورة أبولون •

وفي بداية العهد الأموي ، كان قد تقلد الامبراطورية البيزنطية ليون الثالث وهو سوري وكان يطلق عليه اسم الامبراطور العربي لنشأته ولارتباطه بالعقيدة التوحيدية • ولقد عرف في التاريخ بدوره في محاربة عبادة الأيقونات التي كانت سارية في الامبراطورية البيزنطية بدعم رجال الدين •

وقد حارب ليون الصور والتماثيل والأقمشة المصورة والميداليات وتعاون مع الجنود ضد عشرات ألوف الكهنة وعلى رأسهم البابا ، وكان ليون الثالث قد ولد في مرعش ويعمل جندياً بسيطاً في سورية ، ثم أصبح مولى للخليفة الأموي وهو يجيد العربية واليونانية ، ودافع مع ذلك عن القسطنطينية عندما حاصرها مسلمة بن عبد الملك عام ٧١٥ ، ومع أنه حماها من الاحتلال فقد بنى فيها مسجداً وفرض على الروم بناء بيت للأسرى العرب بجوار القصر الملكي ، وأقام الروم لقائد مسلمة ، عبد الله البطل تمثالاً في احدى كنائسهم •

وكان يزيد بن معاوية قد آمر بازالة الصور الدينية في الكنائس معتبراً ذلك من الوثنية ، وتأثر بذلك ليون الثالث فقام بحملته الجريئة للقضاء على الصور • ومنع عبادتها بما يسمى بالايكونوكلازم •

امتداد التراث الشامي الى الاندلس

كان لتوسع العرب المسلمين ووصولهم الى شبه جزيرة ايبيريه مدخل أوربا الجنوبي ، أكبر الأثر في انتشار الحضارة الشامية

الاسلامية الناشئة ، ليس فقط في شمالي افريقية بل وفي بلاد الأندلس التي احتلها طارق بن زياد عام (٧١١ م) بأمر من موسى بن نصير عامل بني أمية على افريقية ، ثم حضر في العام التالي موسى نفسه على رأس عشرة آلاف رجل من أهل الشام[1] . وكان ذلك في عهد الوليد بن عبد الملك الذي استقبل موسى في دمشق عام (٧١٥ م) يصحبه أمراء القوط بملابسهم الرسمية مع مئات من أبناء الأسر الملكية وألوف من الأرقاء الأوربيين .

تم استقبال هذا الموكب في احتفال مهيب في بهو الجامع الأموي ، وكان هذا الاحتفال (أعلى قمة من قمم الفخار في تاريخ الفتوح الاسلامية)[2] زينت تاريخ دمشق التي كانت عاصمة امبراطورية مترامية الأطراف ، وفي قلبها قصر الأمويين المنيف الذي بناه معاوية ، تحف به الحدائق ويطل على سهل خصيب ، ولقد سمي بالخضراء ، وكان يقع الى جانب موقع الجامع الأموي الذي جعله الوليد آية في الفن . ولقد تربع الخلفاء على عروش لم تكن مألوفة في عهد البداوة والخلفاء الراشدين ، فكان جلال مظهرهم وروعة بلاطهم جديراً باستقبال ملوك الفرنجة الذين جاؤوا الى الشام ، يجرون الخيبة وذل الانكسار ، ليقفوا أمام خليفة هو أوسع الملوك والأباطرة سلطاناً في زمانه ، ويرى حتي أن الخليفة كان سليمان بن عبد الملك[2] .

ولقد تأكد وجود الشاميين في بلاد الأندلس عندما سير الخليفة هشام عام (٧٤١ م) جيشاً آخر من أهل الشام مؤلفاً من سبعة وعشرين

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٥٣ ، وهناك مصادر تجعل العدد ثمانية عشر الفا .

(٢) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ج ٣ ص ٥٩٢ .

ألفاً . استقر أكثره في شمالي افريقيا ، ومضى ثلث هذا العدد بقيادة بلج بن بشر الى الأندلس ، وحلّوا جميعاً فيها وخاصة في قرطبة العاصمة ، وتفرق بعد ذلك أكثر أهل الشام في باقي المدن الأندلسية ، فنزلت جماعة حمص اشبيلية . وفرقة فلسطين في شذونة والجزيرة الخضراء . أما فرقة دمشق فاستقرت في مقاطعة البيرة ، وبقيت فرقة قنسرين في مقاطعة جيان[1] .

ولقد استمرت قرطبة عاصمة زاهرة للأمويين ، الذين استمروا فيها على الرغم من استيلاء العباسيين على الحكم ونقلهم العاصمة الى بغداد ، الا أن عبد الرحمن الداخل وقد هرب من دمشق استطاع عام (٧٥٦ م) أن يستولي على قرطبة وأن يناهض المنصور في بغداد ، ويصبح كفؤاً لشارلمان . وقد جمّل عبد الرحمن مدن مملكته ، فابتنى حول العاصمة سوراً ، وشيد (مدينة الرصافة) بظاهر قرطبة على غرار قصر الحير الذي بناه جده هشام بن عبد الملك في الشام ، ولقد جر الماء الى هذه المنية (الحديقة) ، واستحضر لها بعض الأغراس كالدراق والرمان ، وغرس فيها نخلة جاء بها من دمشق ، فلما رآها فريدة أنشد يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بنيّ وعن أهلي

(1) ابن عذارى ج ٢ ص ٣٢ .

وفي عام (٧٨٥ م) أنشأ عبد الرحمن جامعه الكبير في قرطبة .

وفي عهد الأمويين[1] ظهرت صناعات جديدة في الأندلس ، كصناعة الحرير التي انتقلت من الصين عن طريق أهل الشام . وكانت طليطلة قد اشتهرت بصناعة السيوف لوجود الصناع الشاميين فيها . أما فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن بالذهب والفضة وتزويقها بالصور على شكل الزهر ، وهو فن جيء به من دمشق ، فقد زها في بضعة مراكز اسبانية وأوربية وترك أثراً في اللغة تدل عليه ألفاظ :
Damascinage وتعني التكيف الدمشقي و Damassé وتعني القماش المشجر المدمشق .

ولقد كان تأثير المشرق في تفوق الأندلس سبباً في دعم شخصية الفن الاسلامي الذي سبق أن ولد في الديار الشامية ، ولكنه ترعرع ونما وتطور في المغرب والأندلس ، وكان له تأثير واضح في طراز العمارة المسيحية والفنون الملحقة بها والتي عمت المنشآت المسيحية في أوربا . ولقد عبّر م. غ مورينو[2] عن مدى هذا التأثير في اسبانيا بقوله : « لقد أفتنّ الأندلسيون بكل ما هو شرقي ، فانتشر بينهم الترف العقلي وتطلعوا الى المعرفة ، وتعلقوا بالثقافة العربية لسموها على الثقافة اللاتينية التي كانت حينئذ جامدة على وتيرة واحدة » .

الشام مهد الكتابة العربية

ولئن كانت ولادة الفن الاسلامي قد تمت في الشام ، فان الكتابة

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ، ج ٢ ص ٦٢٨ .
(٢) الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٨ .

اللاتيني	الإغريقي	القرن ٧ ق.م	الأبجدية جبيل	الكوفي	الثلث
A	A	[illegible]	K	ا	ا
B	B		9	ب	ب
G	Γ	[illegible]	[illegible]	ج	ج
D	Δ	Δ	[illegible]	د	د
		∃	∃	ه	ه
V	[illegible]	Y	Y	و	و
Z	Z	I		ز	ز
H	H	[illegible]	[illegible]	ح	ح
	Θ	⊕	⊕	ط	ط
E	E	[illegible]	Z	ي	ي
K	K	K	Ψ	ك	ك
L	Λ	[illegible]	[illegible]	ل	ل
M	M	[illegible]	[illegible]	م	م
N	N	[illegible]	[illegible]	ن	ن
S			ǂ	س	س
O	O	O	O	ع	ع
F	Φ	[illegible]	[illegible]	ف	ف
				ص	ص
		Φ		ق	ق
R	P	9	9	ر	ر
S	Σ	[illegible]	W	ش	ش
T	T	T	+	ت	ت

قائمة الأبجديات 3

العربية والخط العربي وهما عماد الفن والثقافة قد نشآ أيضاً في بلاد الشام منذ قبل الاسلام . ثم كان لتبلور شخصية الفن الاسلامي أثره في تطور تنميق الخط العربي الذي دخل دائماً في نطاق الفن الابداعي عند المسلمين .

فلقد اتفق أكثر العلماء على أن الخط العربي نشأ في بلاد الشام ، وأنه استمد أصوله من الكتابة الآرامية التي أثرت بصورة واضحة في الكتابة النبطية أولاً . فلقد استعمل الأنباط في البتراء وفي بصرى وتدمر الكتابة الآرامية وطوروها قليلاً ، بل أن لغة الأنباط كانت خليطاً بين العربية والآرامية . ومن أقدم النقوش النبطية نقش مرانا ملك الأنباط . ولكن نقش أم الجمال الذي عثر عليه في جنوبي حوران هو أقدم نقش يحمل كتابة قريبة من الخط المسمى بالكوفي ويرجع الى عام ٢٧١ م . وحروف هذا النقش بعضها مرتبط ببعضه والبعض غير مرتبط ، كما يلاحظ فيه أن حرفي الجيم والحاء يشبهان صيغتهما في الخط الكوفي ، أما نقش النمارة الذي عثر عليه في قصر النمارة في حوران (الحارة الشرقية من جبل العرب) في مدفن امرىء القيس بن عمرو ملك العرب في سنة (٣٢٨) بعد الميلاد ، فقد دوّن بالخط النبطي المتأخر الذي يشبه الخط الكوفي . وهذا النقش يقدم لنا الدليل القوي على منشأ الكتابة العربية من جهة ، وعلى أن ما يسمى بالخط الكوفي لا ينتسب في الواقع الى الكوفة التي أنشئت فيما بعد ، بل إنما هو ينتسب الى تقاليد الخط في بلاد الشام التي تطورت عن الخط المزوي (ذي الزوايا) ، ثم ظهرت في الحيرة والرها ونصيبين[1] .

وفي خربة تقع جنوب شرقي حلب اسمها (زبد) اكتشف العالم

---

(١) للتوسع انظر كتابنا ، الخط العربي . طبع دمشق ١٩٨٥ .

الأثري ساخاو عام ١٨٧٩ نقشاً مؤرخاً في عام (٥١٢ م) ، وهو أقدم وثيقة تحمل خطاً عربياً شبيهاً بالخط الكوفي • كذلك عثر في حران اللجا شمالي جبل العرب على اول نص عربي جاهلي يرجع الى عام ٥٦٨ م . ويحدد ملامح الكتابة العربية التي استقرت بعد الاسلام وتطورت في طريق واضح لا تغيير فيه •

وهكذا نلاحظ أن الشواهد التي تدلنا على نشأة الكتابة العربية عثر عليها في ديار الشام ، وأن هذه الشواهد كافية في الواقع لتحديد مبدأ تطور الخط العربي عن النبطي المتأخر وهو الجسر الذي نقل الكتابة من الآرامية الى العربية . مما يؤكد اعتقاد المستشرق هومل[1] من أن الخط العربي الذي كتب القرآن به ، مأخوذ عن الخط النبطي المتأخر والمأخوذ بدوره عن القلم الآرامي المتفرع عن الفينيقية •

والواقع أن آبجدية رأس شمرة وهي أول آبجديه في التاريخ ، اذ كتبت بالخط المسماري فهي أبجدية سامية وحروفها ليست مستعارة من الحروف السومرية الأكادية السابقة ، بل لقد حولت الأبجدية السينائية التي عثر عليها في سرابيط الخادم الى غرار الرموز المسمارية التي ظهرت في رأس شمرة (في اللاذقية) •

نشوء النقد الاسلامي في بلاد الشام

يدخل تطور المسكوكات الاسلامية ضمن نطاق نشوء وتطور الفن التشكيلي لما احتوته من نقوش فنية وكتابات ، وابتدأت الكتابة

(١) د. الطاهر احمد مكي = الخط العربي ـ اللسان العربي العدد ٦ ص ٤٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العربية بدون اعجام أو حركات ، وكان الحجاج من الذين عنوا بأمر علامات الاعجام وضبطها للتمييز بين الحروف المتشابهة كالباء والتاء والثاء ، كما ساعدت على ايجاد صور الحركات من ضم وفتح وكسر نقلاً عن السريانية .

كان العرب في الجزيرة قد تداولوا منذ قبل الاسلام النقود الكسروية أي الساسانية التي استمر المسلمون في بلاد الشام بتداولها ، وهي دنانير ذهبية ودراهم فضية وفلوس نحاسية ، ولقد نقشت هذه النقود بالفهلوية . وبعد عام (٣١ هـ) ابتدأت الكتابات العربية تظهر على هذه النقود وظلت صورة الملك الساساني موجودة الى جانب اسم الخليفة الذي كتب بالفهلوية ، ومع ذلك فلقد كانت هذه النقود تضرب في البلاد الساسانية ، وأول نقد ظهر عليه اسم دمشق وبالعربية كمكان للضرب ، كان عام (٧٣ هـ) . وفي عام (٧٥ هـ) ظهر أول نقد عربي ، جميع الكتابات فيه عربية ، وعليه صورة عبد الملك بن مروان ولكن صورة الملك الساساني بقيت منقوشة على الوجه الثاني. وعند هذا النقد تتوحد النقود الاسلامية مع النقود المتطورة عن النقود البيزنطية التي كانت متداولة في بلاد الشام قبل الاسلام وهي السوليدوس الذهبي ، والدرهم الفضي والفلس النحاس .

وكانت تبدو على أكثر النقود البيزنطية صورة الامبراطور وحده أو مع أسرته أحياناً في وجه ، ومكان وتأريخ الضرب في وجه آخر مع صورة الصليب مرفوع على أربع درجات[1] . ثم تطور شكل النقد

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢٠ .



نقد عبد الملك ٨٤ هـ

البيزنطي المستعمل من قبل المسلمين ، اذ ظهرت أسماء مدن وكلمات عربية . ثم ظهر شخص الخليفة العربي مكان شخص الامبراطور وزال شكل الصليب لتحل محله دائرة ، ثم ظهرت صورة عبد الملك بن مروان مع اسمه الصريح منذ عام (٧٤ هـ) . وقد بدت صورة عبد الملك في النقود الاسلامية المتطورة عن البيزنطية مشابهة لصورته في النقود المتطورة عن الساسانية ، والتي ترجع الى العام الذي يليه (٧٥ هـ) . وفي متحف بغداد درهم يرجع الى عام (٧٥ هـ) عليه صورة الخليفة عبد الملك بن مروان وخلفه صورة جانبية لخسرو الثاني وهو أول نقد عربي صرف[1] . كما يوجد في موسكو (المتحف التاريخي) درهم يرجع الى نفس العام (٧٥ هـ) وعليه صورة مماثلة للخليفة نفسه ؛ ولكن وجهه الثاني يتضمن أربعة درجات منتهية بدائرة كانت قد حلت محل الصليب في النقد البيزنطي وفي متحف كراتشي دينار ذهبي وحيد يعود الى عام (٧٤ هـ) . ويذكر الطبري أن الخليفة عبد الملك ضرب في دمشق عام ٧٦ هـ ــ ٦٩٢ م أول دنانير ذهبية ودراهم فضية من النوع العربي الصرف[2] .

وخلال الحكم الأموي كانت النقــود التي تضرب في دمشق أو تضرب في واسط هي السائدة ، بل إن النقود المتداولة في شمالي افريقية أو في الأندلس حتى عهد عبد الرحمن الداخل ، كانت تضرب في واسط على ما يبدو ، فلقد لوحظ أن الدراهم الأموية المسكوكة التي تحمل اسم (افريقية) و (الأندلس) والتي عثر عليها دومورغان في كنز كبير

(١) د. عيسى سلمان : درهم عبد المللك بن مروان ــ سومر ٢٦/١٩٧٠ ص ١٦٤ .

(٢) الطبري : ج ٢ ص ٩٣٩ .

في مدينة واسط كانت بحالة جيدة وجديدة . ويعتقد أن واسط كانت
تقوم بسك النقود لحساب افريقية والأندلس . ولقد كانت الدراهم
الأندلسية الأموية مشابهة للدراهم الأموية الشرقية وانما تتميز بعلامات
بسيطة مثل الهلال[1] .

---

(1) ويعتقد وولكر ، ان اقدم الدراهم العربية الخالصة تحمل التاريخ ٧٩ هـ دون ان تحمل مكان الضرب ، وهو يرى أيضا ان هذا الدرهم قد ضرب تجربة ، ثم نفذ المشروع في السنة نفسها وفي المدن الرئيسية واولها دمشق . ولكن المتحف العراقي اقتنى عام ١٩٧١ درهما يرجع الى عـام ٧٨ هـ وهو درهم عربي خالص مما يؤكد قول الطبري السابق الذكر .

انظر مقال د. عيسى سلمان ، نفس المرجع ص ١٦٦ .

وانظر كتاب كنزام حجرة الفضي للاستاذ ابي الفرج العش ص ٥٠ .



الفصل الرابع

الآثار الشاميّة

الشام
مهد الحضارات

بيت آدم في الشام

آثار بحيرة الأسد

ايبلا
أعظم كشف آثاري في العالم

دراسة شاملة لآثار الشام

الشام العربيّة
قبل الاسلام

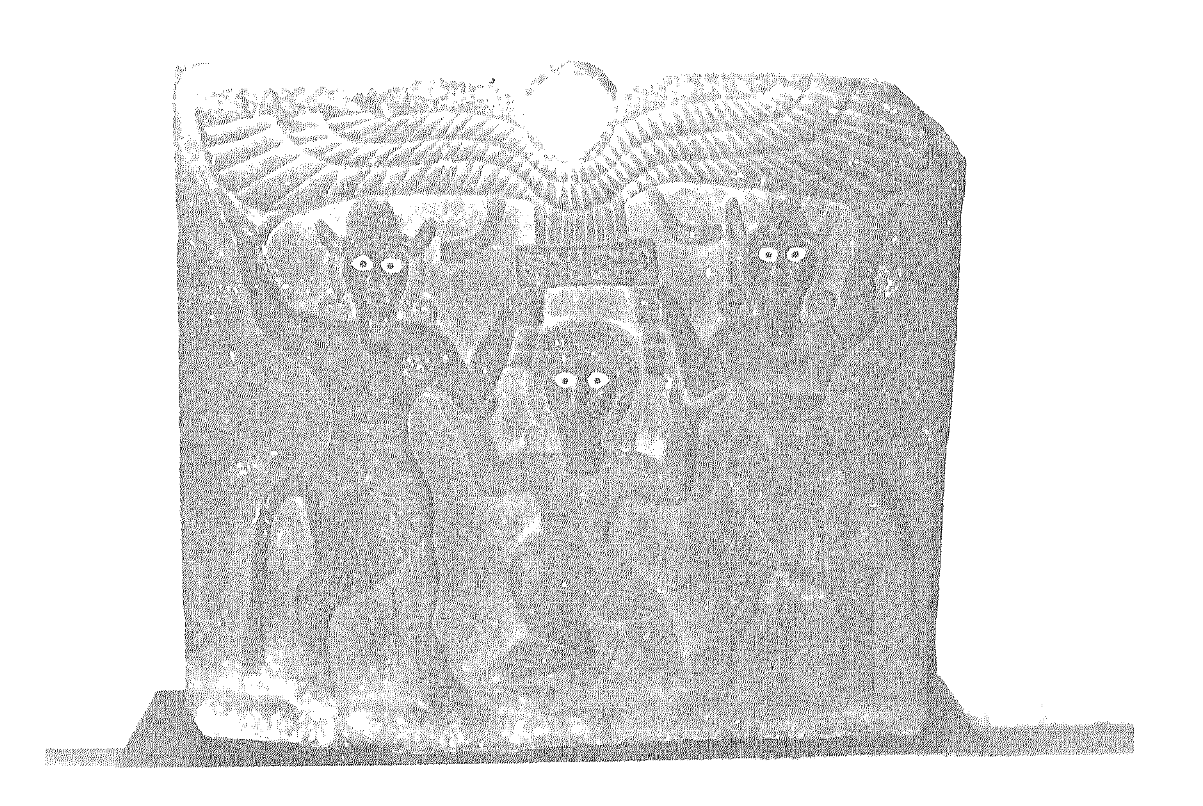


الآثار الشاميّة

الشام مهد الحضارات

تعتبر بلاد الشام مهد الحضارات القديمة التي قدمت روائع الشواهد الفنية الماثلة حتى يومنا هذا • والفن في الشام قديم قدم الحضارة فيها ، ولقد تطور مع تطور الظروف السياسية وتقلب الحياة الاجتماعية خلال تاريخ الشام الطويل ، كما أثر وتأثر بغيره من الفنون تبعاً لحركات التوسع أو التقلص التي كانت تتم مع الأمم الكبيرة المجاورة • ويرجع ظهور النشاط الفني في الشام الى ما قبل التاريخ ، حيث عثر على أصول سكنية ولقى ترجع الى العصر الحجري الحديث (النيوليتي) توضح مقدرة الانسان القديم على الابداع والابتكار • على أن الحضارات التي سادت منذ فجر التاريخ كالحضارة الرافدية والعسورية والكنعانية تركت لنا أروع الآثار ، وبين جدران متاحفنا شواهد وآثار عن الفن الرافدي عثر عليها في تل حلف ، ومن الفن العموري عثر عليهـا في ماري وتل مرديخ ، كما عثر على آثار حثية آرامية رائعة في عين دارا ، ومثلها في الفن الكنعاني عثر عليها في رأس الشمرة ، وما زالت التنقيبات جارية للبحث عن معالم الفن الآرامي •

وفي تدمر العربية آثار حضارة رائعة تضاهي ما بلغه الرومـان



لوح حثي ارامي من عين دارا

معاصرو الزباء ، وفيها نرى الشخصية الشامية متميزة في الطرز الكلاسية ذاتها . كما نرى ذلك واضحاً جداً في أفاميا وبصرى وشهبا وغيرها .

ومنذ بداية العصر الاسلامي توالت الشواهد الرائعة ، وكانت القصور الأموية والجامع الأموي ومدن الرقة والرصافة والآثار المنقولة التي تحفل بها المتاحف السورية ، شاهداً على ظهور فن جديد هو امتداد للفنون القديمة التي ظهرت في بلاد الرافدين وسورية .

وتؤكد الشواهد في قصر الحير الغربي المنقول الى متحف دمشق ، على أن الاسلام في صدره لم يحرم الفن التشبيهي ، وانما هي العقلية المتعصبة التي حرمت التشبيه في التصوير تبعاً لحديث نبوي فسر تفسيراً معيناً .

وتتعاقب مدارس الفن الاسلامي في عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين ، تاركة شواهدها في الآثار والأوابد المنتشرة في دمشق وحلب والمدن الكبرى .

وبشكل مواز لاستمرار الفن الاسلامي كان الفن الايقوني المسيحي يستعيد أبعاده الأصلية على يد المصورين الشاميين في حلب وحمص ودمشق .

وبعد تحرر البلاد من ربقة التبعية العثمانية قام الانتداب الفرنسي بدوره الاستعماري الجديد ، ولكنه فتح الأبواب على الثقافة الفرنسية والفنون الغربية .

على أن الحركة العربية التي تجلت في الثورات المتعاقبة ضد

الاحتلال الفرنسي ، بدت أيضاً في محاولة البحث عن التراث والعناية به وتطويره • وتجلى ذلك في محاولات الكشف عن الآثار وجمعها في متاحف ، كما تجلى في تشجيع الصناعات اليدوية •

وقد بوشر بالتنقيب منذ عام ١٩٠٦ في تل حلف ثم في تدمر ، وفي عام ١٩٢٦ باشر شيفر حفرياته في رأس الشمرة وكان لاكتشافاته أثر كبير في فهم حقائق التاريخ القديم في الشام والدول المجاورة • وفي عام ١٩٣٤ اكتشف بارو مدينة ماري التي أمدتنا بمعلومات هامة جداً عن الفنون الرافدية والفن العموري • وتعاقبت البعثات الأوربية والأمريكية مع البعثات الوطنية للكشف عن الآثار في المناطق الأثرية مثل تدمر وبصرى وعمريت وشهبا وأفاميا ، وفي التلال الأثرية مثل تل الكزل وتل أم حوران وتل العبد وتل دينيت ، وفي مواقع ما قبل التاريخ مثل اللطامنة وتل الرماد والمريبط •

ولقد حفلت مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية بنتائج هذه المكتشفات التي توسع أصحابها في نشر أخبارها ضمن كتب مستقلة • كما امتلأت مستودعات المتاحف السورية وأروقتها بروائع الآثار ، عدا ما تسرب منهـا الى خارج القطر مما نراه معروضاً في المتاحف العالمية • كما أن عدداً من الهـواة السوريين أو الأجانب المقيمين في سورية قد جمّعوا أعداداً هامة من هذه الآثار نذكر من هذه المجموعات مجموعة هنري فرعون في بيروت ، ومجموعة الدكتور يوسف عرقتنجي في دمشق ، ومجموعة مركوبولي في حلب •

بيت آدم في الشام

لم يدر بخلد علماء الآثار أن يضعوا ضمن خططهم البحث عن بيت آدم الدي طرد من الجنة ونزل الى الأرض ، على الرغم من أن الروايات المتواردة منذ زمن بعيد تقول أن آدم أقام في ضواحي دمشق في قرية بيت أبيات ، وأن حرمه الناشزة تعيش في قرية أخرى تسمى بيت الآلهة أو بيت لهيا وهي قرية ما زالت قائمة حتى الآن .

ولقد تأكدت هـذه الروايات بما رواه الرحالون الكبـار مثل اليعقوبي والبلاذري وابن جبير ، من أنهم شاهدوا بأم أعينهم ضريح قابيل في طرف من جبال دمشق وأنهم رأوا الحجر الملطخ بالدم الذي كان أداة جريمة هابيل الأولى .

أترى ألم يصدق الأثريون هذه الأقوال المسندة ، وفي طول البلاد وعرضها أماكن وأشياء مقدسة ما زالت قائمة يؤمن بها الناس ويتجهون اليها بقلوبهم وعقولهم أيضاً .

ويبدو أن هؤلاء الأثريين علمانيون متطرفون ، فمع أن التوراة روت كثيرا من أحداث العهد القديم فانهم لايأخذون ما ورد فيها على محمل اليقين ، شأنهم في ذلـك شأن مؤرخي اليونان الذين لا يأخذون مـن الالياذة الا ما أكدته الاثار الملموسة أو الكتابات .

لقد كان علـى الاثري أن يبحث عـن الحقيقة مـن خلال الأدلة الملموسة ، فلا يلتفت الى الأساطير والروايات والكتب المقدسة المحرفه الا بما يسعفة لاستقراء هذه الحقيقة ، فهو يؤمن بما يحتويه لوح صغير

من الطين عليه كتابة مخربشة أكثر من ايمانه بكل ما توارد على لسان المتحدثين . واذا غاص في أعماق الأرض منقباً فانه يتحسس موقع قدمه من التاريخ القديم ليس على أساس ما يكتشفه من مظاهر قد تكون تتفق مع القصص التاريخية الموهومة أو مع الاسطورة ، بل على أساس ما تقدمه له مخابر التحليل التي تحدد له الزمن بخطأ قد لا يتجاوز السنوات العشرة فقط . النقوش والكتابات القديمة والوسائل العلمية لتحديد الزمن هي التي يعتمدها الأثري في تقديم المادة الأساسية للمؤرخ .

ومن دواعي الفخر والاعتزاز ، أن تكون بلادنا من الفرات الى النيل اعرق منطقة في العالم تحفل شواهد الماضي البعيد ، حتى أن هؤلاء الأثريين الالمانيين جداً وجدوا أنه لا مناص من اعتبار هذه المنطقة هي مهد الحضارة ومهد التاريخ وأنها مؤلفة من طبقات متوضعة من آثار الانسان . كل طبقة تشكل فصلا كاملا من فصول الحياة الانسانية وحضاراتها ، وأن هذه الفصول الأولى كانت فريدة في نوعها ، فلم يكتشف في جزء من أنحاء الأرض نظيراً لها في زمانها ، فكانت بذلك البداية الحضارية والوجودية للعالم أجمع وللانسانية جمعاء .

فاذا قيل أن أبا البشر آدم وجد على هذه الأرض فان ما يكشف من آثار بالغة في القدم على هذه الأرض ، يدفع الى الاعتقاد أن آدم القديم جداً ، سواء أكان أبا البشر أو كان نبياً فلقد وجد حتماً في مكان ما من هذه المنطقة القديمة .

وينهالت الأثريون على هذه المنطقة فيكتشفون آثار سومرية في

جنوب العراق ترجع الى الألف الرابعة • وهي آثار تدل على بداية حضارة عريقة • كما تفاجيء الآثار الضخمة في منطقة الاهرامات جميع العلماء الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر ، ويحل راولنسون كتابات بهايفستون ويكشف الكتابات المسمارية التي عرفتنا على تاريخ الرافدين والشام • كما يفك شامبليون رموز حجر رشيد ويكشف سر الهيروغليفية ويصبح تاريخ مصر مقروءاً جداً ، وهكذا نعرف تفاصيل الماضي المجيد الذي ابتدأ مزدهراً قبل عشرين قرناً على الأقل من ظهور أية حضارة عريقة في أية بقعه في العالم •

لقد تهافتت بعثات التلفزيون وكبريات المجلات العالمية والصحف الى المريبط خلال عام ١٩٧٣ ، لكي تصور آثار أقدم مستوطن مبني معروف في العالم ، ولقد أورد بعض الصحفيين عبارة بيت آدم •

انه بيت آدم على الرغم من أن بني البشر موجودون قبله بآلاف القرون : ولكن هذا البيت الذي يرجع الى أحد عشر ألف عام من يومنا هذا ، كان قد شهد رقياً معمارياً تجلى في اقامة بيت من الطين المدعم بأعمدة الحور والنخيل المشذب بواسطة قدوم من الصوان ، والمؤلف من غرف واسعة دائرية الشكل مغطاة بزخرفة هندسية ملونة بالأحمر والأسود • كما شهد هذا البيت رقياً اجتماعياً وثقافياً ، فلقد عثر على تماثيل صغيرة من الحجر والطين لامرأة عارية تمثل ربة الخصب ، مما يقدم لنا معلومات عن البيئة العقائدية والفكرية لشعب آمن بأهمية خصب الأرض ودور الطبيعة ، وان كان يجهل حتى ذلك الوقت الزراعة وتربية المواشي • وكانت المرأة منذ ذلك الوقت تبحث عن زينتها : لم يكن في ذلك الوقت ثمة محلات لتزيين الشعر وبيع



اقدم تمثال ربة الخصب عثر عليه في المريبط (بحيرة الاسد) يعود
الى الالف الثامن ق.م.

الطرائف ، ولكن المرأة كانت تبتكر لنفسها حليها من حجارة الصوان والقواقع وعظام السمك والحيوانات والأحجار الصغيرة المثقوبة[1].

أما الرجال فكان لهم الرماح من الصوان يصطادون بها ويزودون عن حماهم . والشيء الأكثر أهمية في هـذا الموقع ، هو اكتشاف الفخار ، لقد عثر في هذا الموقع على أوابد من الطين المشوي ، ونحن نعلم أن ذلك لم يحدث الا بعد الألف الرابع ، ولكننا هنا نجد أنفسنا في الألف التاسع أمام حياة بيئية متطورة جداً ، سبقت أقدم ما عثر عليه من مواقع ، وهو موقع شتال هويوك في تركيا بألف عام .

ويبدو أن هذا الموقع التاريخي القديم لم يكن وحيدا في الشام ، ففي أبي هريرة أجريت حفريات أبانت أن هذا التل كان قد استوطن منذ الألف التاسع ق.م وحتى عام ٥٥٠٠ ق.م .

ان هـذه المكتشفات الخارقة والتي غيرت كثيراً من المفاهيم التاريخية بل غيرت أيضاً التصنيفات التي كانت سائدة ، توضح أهمية الشام كمنطقة أولى لنشأة التحضر الانساني في العالم .

لقد كان على السلطة الاثرية أن تسعى جاهدة لانقاذ آثار هذه المنطقـة الهامـة التي كانت الأسبار والحفريات السابقة قـد أكدت أهميتها ، وكان بناء سد الفرات في منتصف الفرات الأعلى قد وضع الأثريين أمام مسؤولياتهم في حشد كل طاقتهم للتعجيل في الكشف عن كنوز هذه الأرض وفي انقاذ الأوابد الماثلة على سطح الأرض .

---

(1) M. C. Cauvin : Du natoufien sur l'Euphrate . P 11 Actes du colloque de strasbourg 1977 .

إيبلا أعظم كشف آثاري في العالم

لا بد أن نذكر كلمة عن آخر المكتشفات التي جذبت اهتمام العالم وهي اكتشافات ايبلا ٠

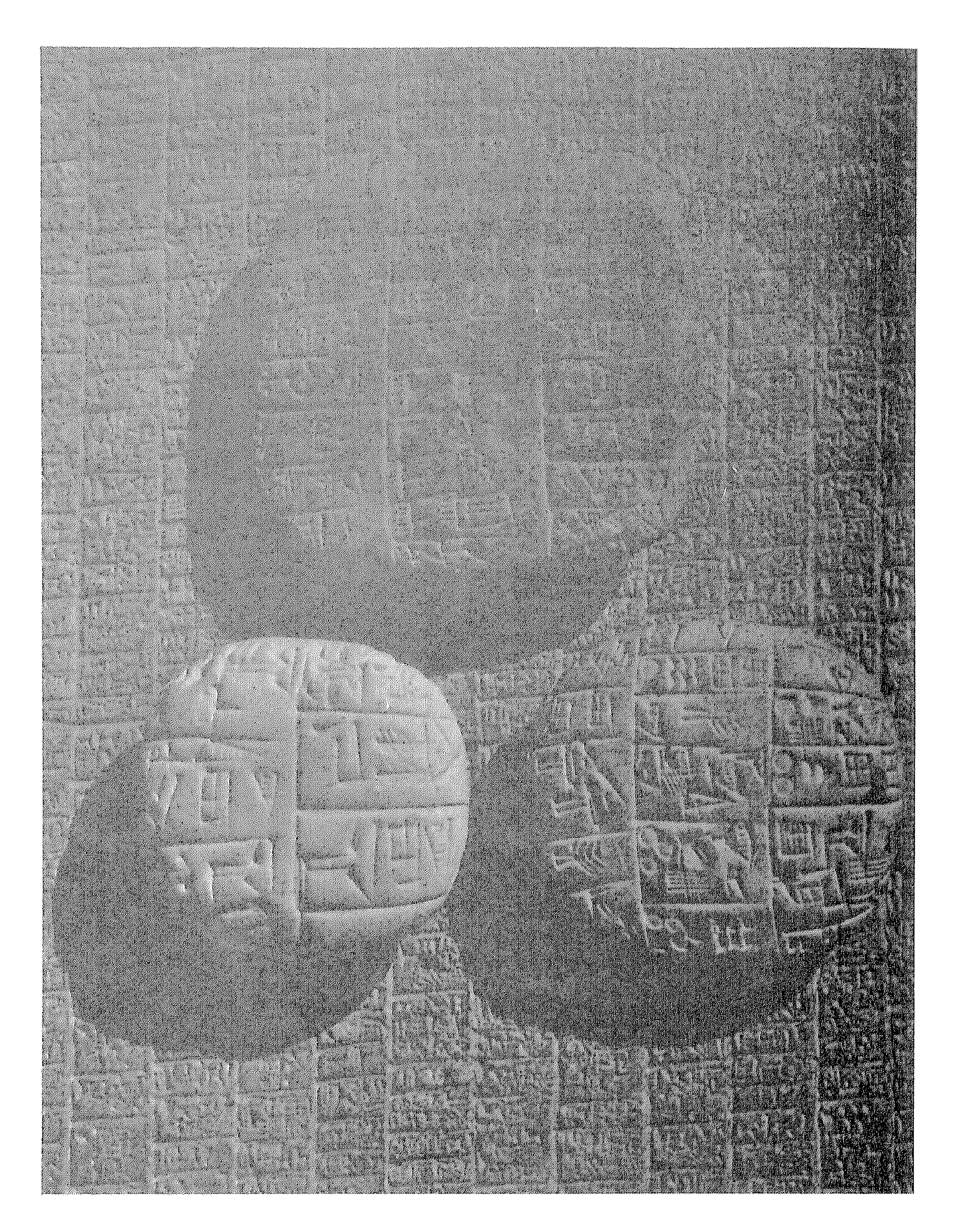
في عام ١٩٦٨ تم العثور على تمثال رجل من البازلت بين أنقاض المدينة المرتفعة (الأكروبول) وعلى كتف هذا التمثال سطور منقوشة بالكتابة المسمارية وباللغة الأكادية تذكر اسم إيبلا[1] ٠

اذن هذه هي مدينة ايبلا ، المدينة الصعبة المراس الشديدة البأس الواسعة السلطان التي غابت عن الوجود ، شأن أكاد ذاتها الخصم العنيد لايبلا ، كلاهما كان مفقوداً ٠ ولكن ايبلا تكتشف اليوم بينما أكاد ما زالت مجهولة الموقع والأثر ٠

منذ عام ١٩٧٣ أخذت معاول التنقيب تكشف في تل مرديخ (ايبلا القديمة) عن معالم القصر الملكي الذي تهدم حوالي عام ٢٢٥٠ ق٠م ٠ وهذا القصر مؤلف من باحة سماوية محاطة بأروقة ولعلها قاعة الاستقبال الملكية ، ويحيط بالقصر جدار بارتفاع خمسة عشر متراً له ثلاثة مداخل ، أحدها ما زال يحتفظ بمصطبة الشرف يجلس فيها الملك خلال مراسم الاستقبال ، ومدخل آخر على شكل بوابة ضخمة ذات درج ينتهي الى غرف القصر في الطابق العلوي ٠

وفي أنقاض هذا القصر الذي تهدم كليا في أقسامه الأمامية ، وفي إحدى غرف القصر الواقعة عند الرواق الشمالي ، تم العثور على آلاف

(1) P. Matthiae : Ebla An Empire Rediscovered london 1979



احدى رقم ايبلا ٢٣٠٠ ق٠م٠

الرقم الطينية . وهـذه الرقم هي ألواح طينية منقوش عليها كتابـة مسمارية(١) .

ان اللغة التي كتبت بها هذه الألواح هي أقدم لغة عربية معروفة ، وهي مع ذلك لهجة من لهجات ثلاثة كانت معاصرة ولاحقة ، هي اللهجة الاكادية في الرافدين واللهجة الايبلائية في داخل سورية ثم اللهجـة الكنعانية في الساحـل السوري والتي تتضمن أيضاً لهجات فرعيـة كاللهجة الاوغاريتية واللهجة الفينيقية . واضافة الى هـذه اللغة كـان ثمة مصطلحات سومرية ، فاللغة السومرية كانت هي اللغة الثقافيـة والدبلوماسية في المنطقة كلها ، وكانت ألفاظها منتشرة نظراً لأنها لغة الكتابة المسمارية .

ان هذه الألواح المكتشفة والتي لم تتم بعد ترجمة جميع كتابتها تمتاز بالأمور التالية :

١ ــ تتضمن أقدم معجم لفظي بين لغتين ، وأقـدم عرض لفظي للمفردات الواردة في المعجم ويرجع الى ٢٣٠٠ ق.م على الأقل ، ولقد كانت أكثر ألفاظ اللغة السومرية مجهولة ولكن عن طريق هذه الرقم كشفت المزيد من معاني الألفاظ السومرية ، وخاصة بعـد أن عرفنا معناها من خلال المعجم المكتشف .

٢ ــ ايبلا هي أول من طوّر نظام الكتابة المسمارية ، وعنها أخذت أكاد وغيرها .

٣ ــ أقدم تحالف سياسي تم في التاريخ كان بين ايبلا وآشور .

(١) انظر كتابنا ــ وثائق ايبلا ، دمشق ١٩٨٤ .

٤ ــ أقدم لهجة عربيـــة سورية وجدت حتى الآن وهي لهجـــة العموريين أي لهجة سكان الغرب نسبة الى الرافدين •

٥ ــ أقدم تعديل وتطوير في الكتابة المسمارية •

٦ ــ أول كشف تاريخي لفترة كانت مجهولة المعالم والآثار •

٧ ــ أقدم كنز أثري تاريخي عثر عليه في مكتبة واحدة حتى الآن•

وهكذا فان هذا الكشف يعتبر واحداً من أهم الكشوف في العالم ولسوف يصبح موقع ايبلا كعبة الأثريين الى زمن بعيد ، كما ذكرت الصحف العالمية •

لقد أوضحت الحفريات المستمرة التي قامت بها بعثة ايطالية برئاسة البروفسور ماتييه المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة ايبلا ، وآخر ما اكتشف من مراحل كان عام ١٩٧٥ حيث تبين أن هذه المدينة كانت تعيش منذ عام ٢٤٠٠ ق•م واستمرت على الرغم من الأحداث القاسية التي مرت بها حتى عام ٢٢٥٠ •

٢٤٠٠ ــ ٢٢٥٠ كانت ايبلا مركزاً لدولة عظيمة تحتل المركز الثالث بعد مصر والرافدين • ولقد قدمت لنا آلاف الرقم المكتشفة معلومات واسعة عن تاريخ وحضارة ايبلا في ذلك الوقت •

٢٠٠٠ ــ ١٨٠٠ كانت مركزاً حضارياً هاماً في شمالي سورية وبلغت قوتها السياسية أوجها ولقد سيطرت على المنطقة وكانت أكثر نفوذاً من مملكة حلب خلال حكم الملك شمسي حدد الأول ، ومن مملكة بابل أيام حمورابي •

ولقد عثر على شواهد من حضارة هذه المرحلة تتمثل بثلاثة معابد وقصر ملكي وبوابة ضخمة تقوم جنوبي المدينة • ويعتبر طراز هذه العمارة أساساً للعمارة السورية فيما بعد • كما عثر على قطع ثمينة هامة منها أحواض حجرية •

دراسة شاملة لآثار ما قبل التاريخ

لقد قدمت لنا التنقيبات الجديدة في بلاد الشام الدليل على وجود الانسان فيها منذ العصر الحجري القديم • وأقدم هيكل عظمي عثر عليه في فلسطين (مغارة الطابون) وهو يعود الى العصر الموستيري ، كما عثر في العراق على هيكلين انسانيين في (مغارة شانيدرو) ، وعثر في سورية (منطقة اللطامنة) على آثار الانسان منذ العصر الحجري القديم ، ولقد تبين أن الانسان في بلاد الشام كان ينتمي الى فئة واحدة تابعة للبحر المتوسط • وكانت آثار الانسان راقيـــة بمستوى رقي الآثار التي عثر عليها في أوربا ، فقد عثر في سواحل سورية (نهر الكبير الشمالي) على فؤوس من الحجر تتشابه وتلك التي وجدت في سان اشول ، ولكن ليس هناك من يقول أن الفن تطور في تلك البلاد تطوره في عصر الباليوليتيك • ولم يعثر في هـــذه المناطق على رسوم تشابه رسوم الوعول التي سبق الحديث عنها ، ولكن رسوم التاسيلي في جنوبي ليبيا والجزائر ، تحدد مستوى عالياً لفن ما قبل التاريخ ، ولكن في مرحلة العصر الحجري الحديث ، (الألف السابعة ق•م) •

وفي العبيدية عند التقاء وادي العمود بنهر الاردن ، عثر عام ١٩٦٠ على عظام حيوانات منقرضة مع قطع حجرية هي حصى مشقوف وهي تعود الى نصف مليون عام • وتعلم الانسان اشعال النار فكان وسيلة معاشية ودفاعية وقد عثر غربي البحر الميت على موقد يعود الى ربع مليون عام • واكتشفت هياكل عظمية لانسان نياندرتال مما يعود الى (٥٠) ألف عام في مغاور الجليل والكرك ، كذلك عثر في العراق في موقع شانيدرو ــ اربيل على جمجمة مماثلة •

ولقد اكتشف في بيروت صناعة شفرات حجرية تعود الى ما قبل العصر الاورنياسي أو العصر الحجري القديم الأعلى •

وبين عام ٤٠ ألف الى ١٠ آلاف قبل الميلاد يسود الانسان الحديث العاقل في الشرق الأوسط وتتميز صناعة شامية لا مثيل لها في أوربا وهي ذات خصائص فريدة تتمثل بصناعة الشفرات •

وقد ميزت دوروتي جارور ست مراحل في تطور صناعة العصر الحجري القديم الأعلى ، آخرهـا المرحلة السادسة الكبارية نسبة الى كبارا في الكرمل ، وهي تعود الى الألف العاشر ق•م •

كما أعلنت دورتي جارور عام ١٩٣٢ عن صناعة صوانية تعود الى الألف ٩ ق•م أطلق عليها اسم (النطوفية) نسبة الى وادي النطوف ، وتمتاز هذه الصناعة بالدقة ، ومن أبرزها أدوات هلالية وهي عبارة عن شظايا دقيقة ذات طرف حاد على شكل هلال • وفي العراق ، موقع كريم

شاهر ــ كركوك ومواقع أخرى ، عثر فيها على بقايا حجرية من ذلك العصر .

وتبقى أريحا أهم مواقع العصر الحجري الحديث في العالم ، فلقد اكتشفت كاثلين كنيون بين ١٩٥٢ ــ ١٩٥٨ استمرار العصر النطوفي متمثلاً بأدوات هلالية ، وكانت البيوت فيها مستديرة أو منحنية ولها أبواب ذات درج منحــدر نحو الداخــل وغطاء محدب من عشب الأغصان[١] .

ولم تلبث أريحا خلال هذه الفترة أن أحيطت بسور يتألف من حجارة ضخمة غير مسندة . وقد تهدم هذا السور في معظم أجزائه بحيث لم يبق واقفاً منه إلا مداميكه السفلى ، فيما عدا الجزء الغربي حيث بقي منتصباً الى علو خمسة أمتار وثلاثة أرباع المتر . وفي هذا الجزء من التل بني محاذياً للسور من الداخل برج ضخم محيطه ثمانية أمتار ونصف المتر ، وبقي لنا من ارتفاعه سبعة أمتار وثلاثة أرباع المتر . ويصل قاعدة البرج بقمته عدد من الدرجات بقي منها اثنتان وعشرون درجة مبنية في واجهته الشرقية . وقد ميزت كنيون أربع مراحل من عمر هذا السور كان البرج معاصراً لها جميعاً . وقد أحاط هذا السور مساحة بلغت أربعين دونماً تدل ما حوته من بيوت على أنه كان يسكنها ما يزيد على ألفي نسمة . وقد أعطى الفحم ١٤ للبقايا العضوية من هذه الفترة التواريخ التاليــة : ٨٣٤٠ ــ ٢٠٠ ، ٦٨٥٠ ــ ١٢٠ ، ٦٩٣٥ ــ ١٥٥ . ولا يعرف ما اذا كانت هذه الفترة قد انتهت بتدمير

---

(١) K. M. Kenyon : Degging up Jeriche - london 1957

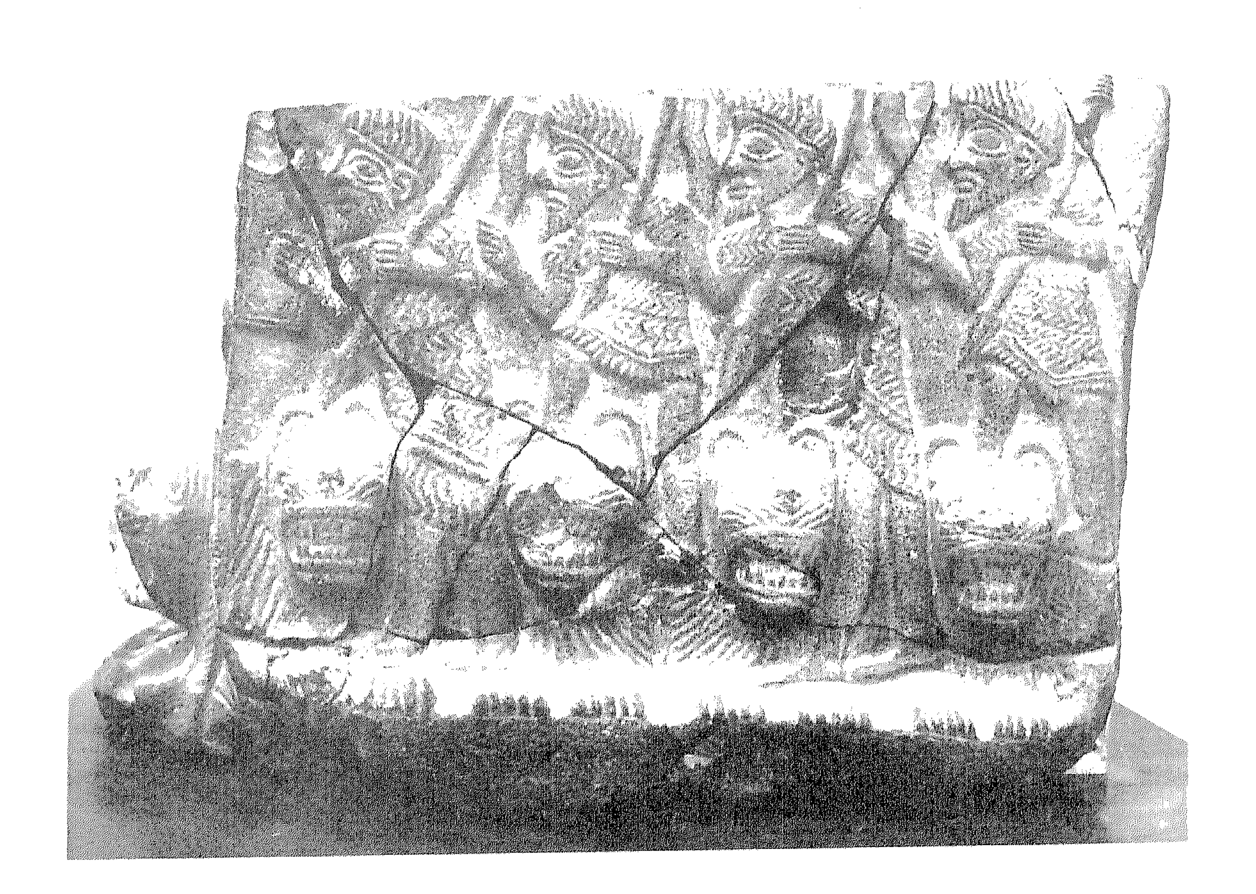
أريحا على يد قادمين جدد أم عن طريق عوامل طبيعية كالزلازل • كما أنها لم توضح ما اذا كان هناك فجوة تفصل بين الفترة (أ) والفترة (ب) من العصر الحجري الحديث قبل الفخاري •

واكتشفت في موقع جرمو في العراق فؤوس حجرية منحوتة تربط بمقبض خشبي ومعاز للحراسة ومجارش لطحن الحبوب وسكاكين من الزجاج البركاني (ابسيدي) وأدوات عظمية ، مناقب وملاعق وحلي ودلايات من الرخام ، ودمى من الطين تمثل حيوانات أو الآلهة الأم أو آلهة الخصب وتعود الى عام ٦٧٥٠ ق•م •

وابتدأت صناعة الفخار منذ ذلك الوقت ولكن بأسلوب ساذج مبسط

ولعل من أغرب ما اكتشف في تل الصوان ١٩٦٢ مستوطن يعود الى الألف السادس اكتشفت فيه أوان من الرخام الأبيض بأشكال عديدة جداً ، ودمى من الرخام بأعداد كبيرة أيضاً تمثل الآلهة الأم — آلهة الخصب والتكاثر ، كما عثر على كميات من الفخار الملون ، وقد عثر في سامراء على ما يماثل ذلك •

وفي شمالي سورية عثر عام ١٩١٣ في تل حلف على فخار رقيق مصبوغ بعدة ألوان بزخارف هندسية رائعة تعود الى ٤٩٠٠ — ٤٣٠٠ ق•م وتبين أن اسم هذا الموقع القديم هو (غوزانا) • وقد أصبح هذا النوع من الفخار مقياس لعصر وفن محددين ، وعثر في العراق على آثار ترجع الى عصر حلف في نينوى وتعتبر تل حلف بداية الصناعة



حوض حجري بازلتي من ايبلا

الناضجة التي انتقلت فيما بعـد الى الجنوب حيث ظهرت الحضارة السومرية •

آثار الحضارة القديمة في شمالي بلاد الشام

الآثار التي عثر عليها في سورية هي كنوز حقيقية تساعد على معرفة أصول التراث الانساني ، هذا التراث الذي يعود في سورية الى عشرة آلاف عام من تاريخنا • وهو أقدم تاريخ معروف ابتدأ الانسان في

ان التصنيف المدرسي لعصور ما قبل التأريخ كثير الوضوح في سورية ، ولكن اكتشاف المريبط (على الفرات) أحدث بعض التعديل في هذا التصنيف ، ذلك أن العصر الحجري الحديث الذي يبتدىء في الألف الثامن ق•م قد رافقته في سورية صناعة الفخار والتماثيل الطينية وتأليف بعض الحيوان والانتقال أحياناً الى الزراعة •

والآثار المكتشفة في بلاد الشام على نوعين : آثار ثابتة وهي المدن والمباني ، وآثار منقولة وهي القطع الفنية والكتابات • ومواقع الآثار الثابتة كثيرة في سورية قد يزيد عددها عن ثلاثة آلاف موقع لم تجر عمليات التنقيب الأثري الا فيما يقرب من مئه موقع فيها • واذا ابتدأنا بالمواقع التي سبقت التأريخ فاننا نرى أن الأحجار الصوانية (الظران) التي اكتشفت في حوض نهر الكبـير الشمالي ، تؤكد أن وجـود التجمعات البشرية قديم في سورية يعود الى مليون عام على الأقل ، ونرى نظير هذه المواقع في حوض الفرات ، حيث تعود الآثار الى ٧٥٠

ألف عام . كما أن موقع اللطامنة (على العاصي) يعود الى نصف مليون عـــام •

وعدا هـــذه المواقع التي تعــود الى العصر الحجــري القديم (الباليوايتيك) ، فان مواقع أخرى تعود الى العصر الحجري الوسيط (الميزوليتيك) الذي بدأ من الألف الحادي عشر ق•م الى الألف الثامن ق•م تم العثور عليها في موقع الكوم (بين تدمر والفرات) •

وتبدو آثار العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) أكثر وضوحاً في مواقع المريبط والشيخ حسن (على الفرات) والتي تعود الى الألف الثامن ق• م ــ الألف السابع ق•م ، فلقد عثر على مساكن دائريـــة ذات جدران من ألواح الطين المدعمة بالأعمدة الخشبية والمزينة من الداخل بزخارف هندسية ملونة ، وهذه المنازل هي نموذج للقرى أو المستوطنات التي انتشرت على ضفاف الأنهار • وفي المريبط عثر على أقدم إناء من الطين المشوي مما لم يعرفه التاريخ الا بعد أربعة آلاف عام • كما عثر على تماثيل صغيرة من الطين المشوي أو من الحجر ، وبعضها يمثل الآلهة الأم ، امرأة عارية تحمي صدرها ، وهو أقـــدم تمثال لربة الخصب عرف حتى الآن ، كما وهو أقدم دليل على ظهور الآلهة في العالم •

وفي موقع الرماد (دمشق) وموقع بقرص (على الفرات) عثر على أوان من الحجر الرخامي وتماثيل وجوه وحيوانات ومساند للجماجم التي كانت تمثل الآباء والأجداد الراحلين ، كما عثر على حبوب متفحمة تبين أقدم ظهور للزراعة في الألف السابع ق•م •

وفي الألف الرابع ق٠م تظهر في تل حلف (أقصى الشمال) بداية الحضارة الشامية القديمة التي تمثلت بانتشار صناعة الفخار الملون والمزين ، ولقد عثر على العديد من الكسر التي ساعدت على تحديد مرحلة فاصلة من التأريخ أطلق عليها اسم « عصر تل حلف » ٠

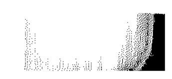
وفي نهاية الألف الرابع ق٠م ظهرت في سورية المدن أو الحواضر الأولى ، وهي عبارة عن تجمع مدني يسوده نظام اداري وعقائدي واقتصادي خاص ٠ وقد ظهرت الكتابة الأولى في ذلك الوقت حوالي عام ٣٢٠٠ ق٠م ، الفترة التي يطلق عليها اسم (عصر أوروك)٠ومن أبرز هذه الحواضر المكتشفة في سورية ، موقع حبوبة كبيرة وجبل عروده وتقع على الضفة الشرقية للفرات ، وكانت أشبه بالثغور السومرية ، وفيها تم العثور على أختام اسطوانية وأختام كروية أو بيضوية عليها نقوش أو علامات حسابية رمزية ٠ كما عثر على أوان ذات أشكال مبتكره ٠

وفي تل براك الذي يعود الى نفس التاريخ كما في حبوبة كبيرة عثر على آثار عمارة متقدمة ، ونستطيع أن نتصور بدقة شكل حاضرة حبوبة كبيرة ، كما نستطيع تصور شكل معبد تل براك الذي عثر فيه على بعض الأنصاب ذات العيون الكبيرة ، ولقد أطلق على المعبد اسم (معبد العيون الكبيرة) ، وفيه عثر على شريط مزخرف من الذهب والفضة والأحجار النادرة[١] ٠

---

(١) كتاب الآثار السورية طبع فيينا ١٩٨٥ ص ٢٤ – ٢٥ ٠

اورنينا ــ مغنية المعبد ــ ماري الالف الثالث ق.م



بعد هذه المرحلة من الحضارة المبكرة ، تظهر المدن الكبيرة مثل ماري وايبلا خلال الألف الثالث ق٠م ، وفيها سيطرت سلالات ملكية أصبحت معروفة من خلال الأرشيف الملكي الذي عثر عليه في كلا المدينتين الكبيرتين والمؤلف من رقم طينية مكتوبة بالخط المسماري ٠

ان ماري والتي تسمى اليوم تل الحريري ، تقع على الفرات في أقصى الحدود الشرقية ، ولقد ابتدىء باكتشافها عام ١٩٣٣ من قبل بارو Parrot ٠ ومن خلال الألواح الطينية التي بلغ عددها خمسة وعشرين ألف رقيم ، ومن خلال التماثيل والأختام استطعنا أن نعرف تاريخ هذه المدينة[1] ٠

ان الفترة قبل الصارغونية من ٢٦٠٠ ــ ٢٣٤٠ ق٠م هي فترة عامة ارتبطت بالتأثيرات السومرية لماري ، أما الفترة التالية فهي فترة عمورية (سورية قديمة) ٠

والنتاج الفنية التي تعود الى المرحلة الأولى تؤكد التأثير السومري، فلقد عثر على تماثيل كبيرة وصغيرة في المعابد تمثل متعبدين كتب على أكتافهم العارية اسمهم مع بعض الشروح كتبت بالمسمارية ، وقد ارتدى هؤلاء المتعبدين جلد الخروف الطويل من الصوف والمسمى (كوناكس) ٠

ومن أبرز التماثيل التي تعود الى هذه الفترة هو تمثال شيبوم المقدم للملك إيكو ــ شاماغان الذي عثر عليه في معبد نيني زازا وارتفاعه ١٤ر١ م ، مع تمثال أورنينا مغنية المعبد الشهيرة ،

---

(1) A. Parrot : L'aventure de l'archéologie Paris - 1979



تمثال شيبوم المقدم الـى الملـك ايكوشا ساغـان ـ ماري الالف الثالث ق.م.

رائعـــة المتحف الوطني بدمشق ، وتمثال الربة عشتار أو امرأة تلبس على رأسها البولو • كما عثر على ألواح من الفسيفساء الصدفي في معبـــد شماش ، وهي تمثل التضحيـــة وتقديم القربان ، كما عثر على قطع ثمينة من اللازورد ولعلها من أور ، ومن الآثار الرائعـــة التي عثر عليها أيضاً « مسمار التأسيس » الذي يعود الى معبد عشتار في ماري ، ونموذج البيت المستدير •

وفي العصر العموري أنشئت في ماري مدينة جديدة على أنقاض المدينة التي هدمت ، ولقد تعرفنا على معالم هذه المرحلة من خلال الألواح الطينية التي يزيد عددها عن خمسة وعشرين ألف رقيم ، منها رسالة ودية موجهة من ملك حلب (حمورابي) الى ملك ماري (زيمبري ليم) ، ومنها معلومات عن حملة يحدون ليم ملك ماري عام ١٨٢٠ — ١٨٠٠ ق•م باتجاه البحر المتوسط ، ومن أعماله شق الأقنية للري وبناء معبد شماش •

وفي قصر ماري العموري الذي ينسب لزيمبري ليم عثر على آثار ألواح جدارية تمثل محاربين بخطوط وألوان معبرة ، يرتدون ملابس مزينة وقبعات ذات شريطين • ومن أهم القطع النحتية التي تعود الى نهاية هذه الفترة (القرن الثامن عشر ق•م) تمثال ربة الينبوع ؛ امرأة آلهة تحمل إناء تنفر منه المياه وترتدي ثوباً طويلاً عليه خطوط تمثل أمواج نهر الفرات تتخللها أسماك واضحة ، وترتدي هذه المرأة فوق شعرها المنسق بدقة وإبداع قبعة آلهية ذات قرنين معقوفين •

وتعود الى هذه الفترة أوان من السنتايتيت ذات نقوش تعبيرية تمثل كائنات حيه وأسطورية ونباتات وحيات •



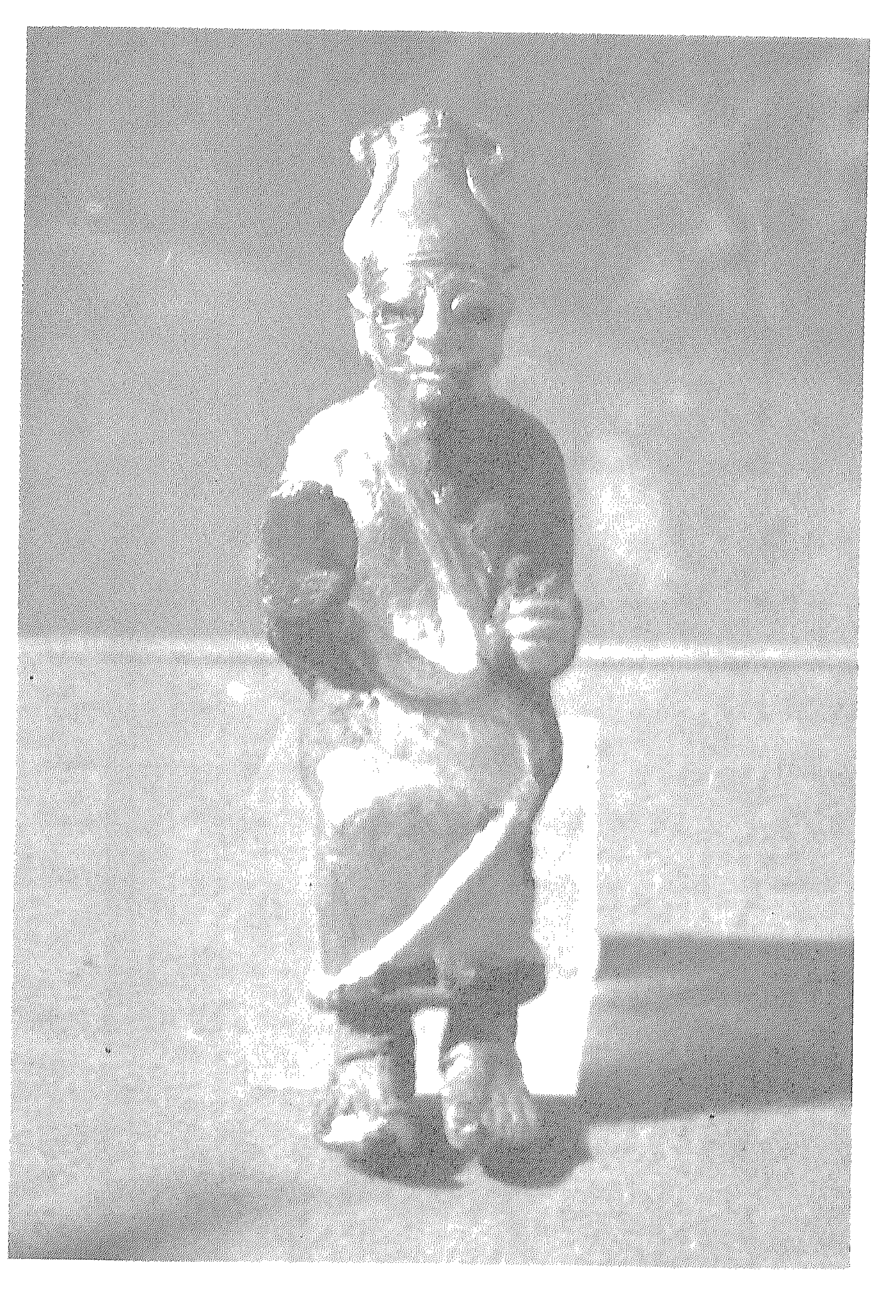
الهه الخصب ــ او ربه الينبوع ــ ماري

وخلال القرن الخامس عشر ق٠م ظهر النفـوذ الميتاني ممتداً من الأناضول الى سورية والبحر المتوسط ، وفي عام ١٣٦٠ ق٠م انتشر في شمالي سورية النفوذ الحثي ٠ ثم ظهرت مدن كنعانيـة في الساحل السوري مثل أوغاريت التي تسمى اليوم رأس الشمرة (قرب اللاذقية) التي ازدهرت بين القرن الرابع العشر والحادي عشر ق٠م ، وكانت لها علاقات مع البحر الايجي وقبرص ومصر تمثلت ببعض التحف الفنية التي عبرت عن شخصية متميزة لفن أوغاريت ٠

ومن أهم هذه القطع تماثيل للاله بعل مغطى بالذهب ، ونصب للاله ايل ، ولوح عاجي عليه نقوش نافرة للآلهة عشتارات ، ورأس عاجي جميل ٠ ومن أبرز ما اكتشف في أوغاريت رقيم لأول أبجدية استخدمت في العالم مؤلفة من ثلاثين حرفاً مسمارياً ، وهذه الأبجدية هي أساس الأبجدية العربية والاغريقية واللاتينية ٠ وقبل الأبجدية كانت الكتابة مقطعية ، ولقد عثر على آلاف الألواح المكتوبة بالأبجدية والمقطعية لنصوص تاريخية ودينية هامة أبانت مدى تأثيرها على القصص والأفكار التوراتية ، وهي مكتوبة بلغة كنعانية وأكادية ، وهي لغات عربية قديمة ٠

ولا بد أن نذكر هنا موقع إيمار واسمه الحالي « مسكنة » الذي تم التنقيب عنه بمناسبة انقاذ آثار منطقة سد الفرات ، وفيـه عثر على آثار هامـة ٠

ان مرحلة هامة من التاريخ والفن ظهرت في الحواضر الآرامية التي ازدهرت في المواقع العالية من نهر الفرات وشملت كل سورية ، وكان بعضها قد تفاعـل مع الحضارة الحثية الأخـيرة مثل موقع تل حلف



تمثال الاله بعل من الذهب القرن ١٤ ــ ١٣ ق٠م٠

(غوزانا) وموقع عين دارا (غربي حلب) ، ويبدو هذا التفاعل متمثلاً بأسلوب معماري ينسب الى بيت حيلاني ، ومن أبرز نماذجه مدخل القصر والتماثيل الضخمة .

وانتشر الآراميون في أنحاء سورية وشكلوا عدداً من الممالك مثل مملكة دمشق ومملكة حماة ومملكة حران ومعكا وفدان آرام وآرام النهرين وبرسيب ، واختلطت هذه الحضارة بالحضارة الساحلية الفينيقية ، وقد كانت اللغة واحدة تقريباً ولكن الكتابة الآرامية أصبحت مستقلة وهي أصل واضح ومباشر للكتابة العربية التي تكونت منذ القرن الثاني للميلاد . وانتشرت اللغة والكتابة الآرامية في جميع المناطق في بلاد الشام والعراق وحتى سيناء . ومن أهم الآثار الآرامية الصرفة هي المكتشفات العاجية التي عثر عليها في ارسلان طاش (حداتو) التي تعود الى سرير الملك حزائيل .

ثم ظهر الآشوريون من جديد لكي يسنولوا على الممالك الآرامية منذ عام ٨٥٦ ق.م ، وقد اكتشف في برسيب (تل أحمر) آثار قصر وصور جدارية ملونة تبين تأثير الفن الآشوري ، كما اكتشفت في منطقة رأس العين وأرسلان طاش (قرب تل حلف) بعض التماثيل الهامة .

ثم بدأت فترة فارسية منذ عام ٦١٢ ق.م وآثار فنها واضحة في عمريت (طرطوس) وجزيرة أرواد، وهو فن آرامي متأثر بالفن المصري أو مستقل تماماً عن أي تأثير . وخلال هذه الفترة أطلق دارا ملك الفرس على هذه المنطقة ولأول مرة اسم سورية العربية .

بعد موقعة إيسوس عــام ٣٣٣ ق٠م التي انتصر فيهــا اسكندر المكدوني على دارا ملك الفرس ، توسع النفوذ الهلنستي على يد قواده السلوقيين فامتد من الهند حتى بحر إيجه خلال ثلاثة قرون زاهرة تشهد عليها المدن التي أسست في سورية مثل اللاذقية (لاوديسة) وانطاكية وسلوقية وأفاميا ودورا أوروبوس ٠

ولقد غطى النفوذ الروماني بعد عام ٦٤ ق٠م على الآثار الهلنستية ، وما زالت آثار الفترة الرومانية التي استمرت حتى ظهور البيزنطيين قائمة حتى يومنا هذا في تدمر وبصرى وشهبا وفي أفاميا وفي دمشق أيضــ ٠

وتمتلىء المتاحف السورية بروائع النحت البازلتي الذي اكتشف في حوران (السويداء ــ شهبا ــ بصرى) ومن أهمها ما يمثل (أتينا ــ اللاة) أو ربة النصر وحسناء بانياس ، وتماثيل تاناغرا التي عثر عليها في أماكن مختلفة ٠

ومن أروع ما اكتشف في هذه المنطقة هي ألواح الفسيفساء التي تمثل الأساطير الرومانية القديمة بأسلوب دقيق وبأحجار زجاجية ملونة ٠

وأما تدمر فهي حاضرة عربية قديمة عرفت باسم تدمر وازدهرت لموقعها الجغرافي الجيد الذي ساعدها أن تكون أهم محطة تجارية بين بلاد الفرس والرومان ٠ ولقد بدأ الازدهار في أعمار تدمر وزخرفتها بالمنحوتات الرائعة التي تملأ اليوم تدمر ومتحفها الكبير ، ومن أهم



تمثال الاسد ـ تدمر ـ القرن ١ ق.م.

المباني التي ما زالت قائمة في تدمر معبد بل ومعبد بعلشمين والشارع الطويل وقوس النصر والمسرح والأغورا والمقابر •

لقد استطاعت زنوبيا الملكة العربية أن تحرر تدمر من تأثير الرومان وأن توسع نفوذها حتى وصل الى الاسكندرية ، مما دفع الامبراطور الروماني أورليان لمحاربتها والقضاء على تدمر عام ٢٧٣ م • وأبرز الآثار النحتية التدمرية اكتشفت في مقابر تدمر وهي مشاهد جنائزية تمثل المتوفى وعائلته وتغطي القبور الجدارية • ولقد عثر مؤخراً في تدمر على تمثال ضخم للآلهة اللاة ـ منيرفا كما عثر على تمثال بارتفاع أربعة أمتار يمثل أسداً يحتضن غزالاً يعود الى العهد التدمري قبل الروماني •

ومن التماثيل البارزة المشهورة ما يمثل آلهة تدمر بل وبعلشمين وعقليبول ويرحبول وعلى رأسهم الآلهات العربية المعروفة اللاة ومناة والعزى •

أما بصرى فهي حاضرة هامة كانت ذات أهمية في عهد الأنباط والغساسنة العرب وفيها آثار نبطية واضحة • ولكن الآثار التي تمت في العصر الروماني منذ بداية الميلاد وبخاصة في عهد الأسرة السورية الرومانية (أسرة سيفيروس) دفعت بصرى الى الازدهار ، وما زال مسرح بصرى الذي يتسع الى أكثر من عشرة آلاف متفرج قائماً حتى اليوم وفيه يقدم مهرجان فني عالمي سنوي •

ان بصرى مدينة متكاملة على الطراز الروماني فيها القصر والحمام والطريق المستقيم والأغورا ، وكذلك شهبا مدينة فيليب العربي امبراطور روما •



الاسد المجنح من النحت الارامي



بوابة تدمر



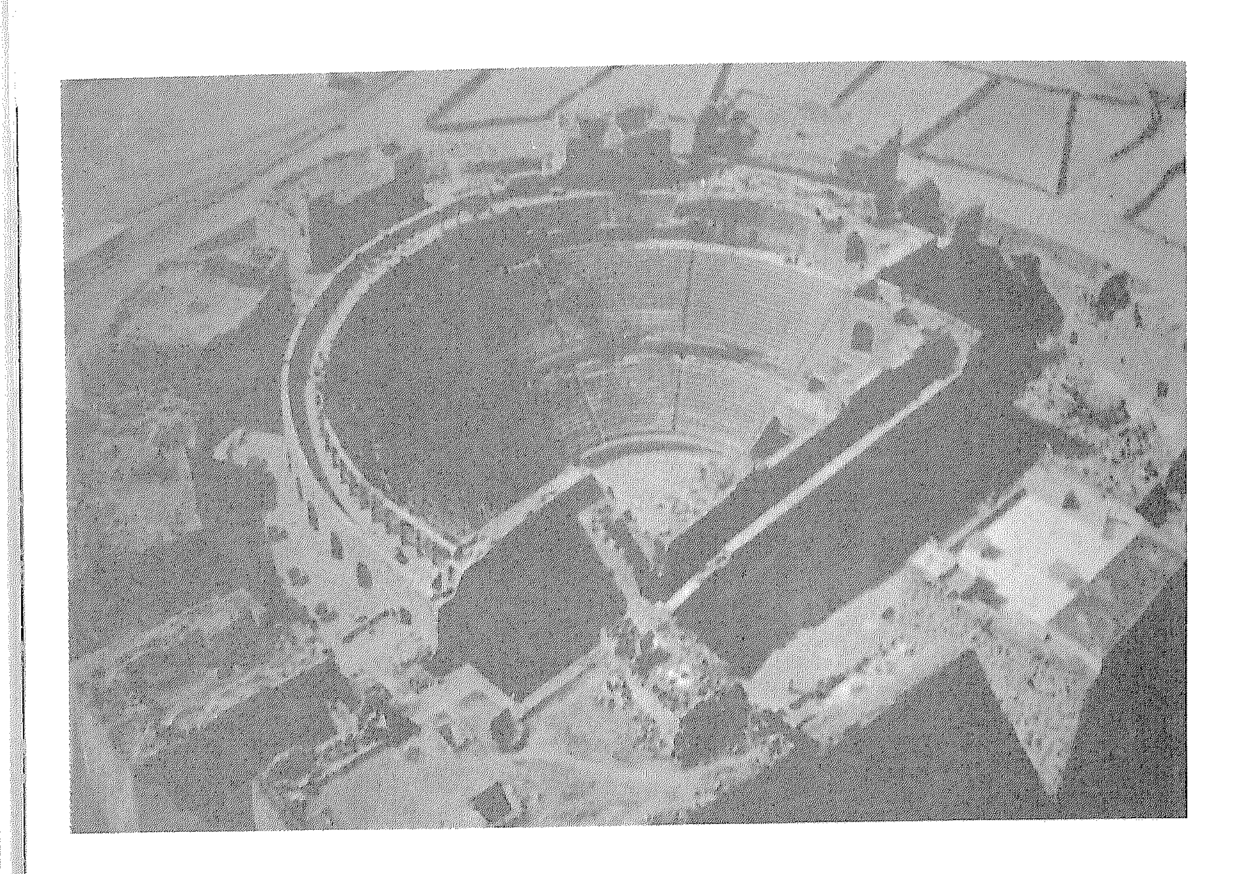
نحت بارز من تدمر ـ مدفن

أما أفاميا التي تقع في وسط سورية • الى الغرب والتي تصل بأهميتها الى مستوى تدمر فان عمليات ترميم واسعة وأعمال تنقيب مستمرة تجري فيها اليوم ، وقد أحدث فيها متحف خاص يمتاز بألواح الفسيفساء التي جمعت من المنطقة والتي تعود الى عصور رومانية وبيزنطية •

لقد أنشأ الامبراطورية البيزنطية قسطنطين الأول الذي انفصل عن روما منذ عام ٣٣٠ وتبنى المسيحية وجعلها دين الدولة ، وتوسع نفوذ بيزنطة أو القسطنطينية حتى شمل الشام ، وكانت اللغة الاغريقية واللاتينية تزاحم اللغة الأصلية الآرامية • ولعبت الشام دوراً هاما فبرز عدد من القديسين السوريين مثل القديس سمعان (٣٨٦ — ٤٥٩) الناسك الذي عاش عمره على عمود ، ولقد كان له أتباع حجوا اليه وقلدوه من أنحاء العالم وأطلق عليهم اسم العموديين • وفي منطقة تقع غربي حلب أنشيء حول عمود القديس سمعان كنيسة ومعمودية ما زالت معالمها واضحة بعد ترميمها •

ان كثيراً من الآثار الموجودة في المدن الميتة وفي الرصافة وفي الأديرة والكنائس تقدم آثاراً واضحة عن الفنون المسيحية من رسوم جدارية (فريسك) ومن فسيفساء وأدوات كنائسية وعناصر معمارية •

بعد ظهور الاسلام وانتشاره في بلاد الشام أصبحت دمشق منذ عام ٦٦١ م وحتى ٧٥٠ م عاصمة الدولة الأموية التي توسعت حتى وصلت الى الهند شرقاً والى اسبانيا غرباً • وازدهرت بلاد الشام فأنشئت فيها القصور الأموية والجامع الأموي الكبير ومقر الحكم القريب منه •



مسرح بصرى

ان الجامع الأموي الذي أنشأه الوليد بن عبد الملك عام ٧١٥ م هو أقدم وأروع آبدة اسلامية وأصبح مقياساً لبناء المساجـد في العالم الاسلامي وبخاصة في المغـرب واسبانيا • وقد امتاز هـذا الجامع بالزخارف الفسيفسائية التي ما زال بعضها شاهداً عليها ، كما ويمتاز بالمآذن المربعة التي كانت أيضاً النموذج الأول للمآذن الاسلامية التي نرى نموذجها الزاهر في أشبيلية ومراكش والرباط •

أما القصور الأموية وأهمها قصر الحير الشرقي والعربي التي أنشأها الخليفة هشام بن عبد الملك ، فانها آية في الفن المعماري الذي حفل بروائع الزخرفة المجردة والتشبيهية ، ولقد نقلت واجهة قصر الحير الغربي الى المتحف الوطني بدمشق كما نقلت بعض العناصر الزخرفيـة الى متحف تدمر •

ولقد مرت الشام بعصور اسلامية متتابعة مثل العصر السلجوقي والفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني • ومن أبرز المدن التي أنشئت في العصر العباسي الرافقة (الرقة) • أما القلاع الضخمة فقد أنشئت أثناء الصراع مع الصليبيين ومن أشهر هذه القلاع قلعة الحصن وقلعـة المرقب وقلعة المضيق وقلعة صلاح الدين • أماقلعة دمشق فلقد أنشأها الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي ، كما أكمل قلعة حلب الملك الظاهر غازي بن الملك العادل •

وفي المتحف الوطني بدمشق جناح كبير للآثار الاسلامية يحوي

روائع الفن الاسلامي من الخشب ومن الخزف العادي والملون ذي البريق المعدني التي تعود الى العهد الأيوبي والمملوكي والعثماني ومن التحف المعدنية والزجاجية التي اشتهرت بها دمشق .

آثار حضارة جنوبي الشام

الحفريات التي قامت بها السيدة كينيون في القدس عام ١٩٥٢ ـ كان لها أهميتها البالغة في نقل جميع الآراء الخاطئة التي كان قد ذهب اليها منقبون توراتيون سابقون . وكانت أعمال كينيون في أريحا بين ١٩٥٢ ـ ١٩٥٦ بعيدة عن الخلفية التوارتية معتمدة على دراسة الفخار والطبقات الأثرية ، على الرغم أن « جمعيه صندوق استكشاف فلسطين » تسعى الى دراسة الأرض المقدسة أثرياً ... من أجل ايضاح التوراة[١] .

ولقد تمكن العلماء من مسح مناطق كبيرة في الضفة الشرقية ، وأكدوا وجود ما يزيد عن خمسمائة موقع أثري ، أجريت التنقيبات في بعضها ، مثل البيضاء وقليلات الغسول وباب الذراع وجبل القلعة في عمان ، ودير عامر وذيبان والبصيرة[٢] .

وفي الطبقة الغربية ما يقرب من ثلاثة آلاف موقع أجري التنقيب في عشرات منها ، من أهمها حفريات كينيون في أريحا والقدس وحفريات دوفو في الفارعة وحفريات رايت في تل بلاطة . ولقد نشرت كينيون

---

(١) K. M. Kenyon : Degging up Jericho - London 1957

(٢) د. محمود ابو طالب آثار الاردن وفلسطين (١٩٥٣ ـ ١٩٧٧) عمان ١٩٧٨ .



نهر الاردن المقدس

كتاباً مرجعاً عن آثار فلسطين ١٩٦٠ ترجم الى العربية في مصر عام ١٩٧١ . وفيه نقد علمي واسع لكتاب أولبريت الذي اعتمد فيه على التوراة .

ومن أقدم الآثار المكتشفة في جنوبي الشام (الاردن) آثار الشونة ، وآثار الغسول التي أبانت عن مستوطن زراعي فيه بيوت متلاصقة بنيت من اللبن فوق أساس حجري ، وقد طليت الجدران برسوم طيور وحيوانات باللون الاحمر والاسود والابيض ، ويعود هذا المستوطن الى العهد النحاسي السابق للبرونزي .

ثم ظهر « عصر بدايات التمدين » كما تقول كينيون الذي توضح من خلال الفخار المكتشف في أريحا وعرقوب وباب الذراع ومرج ابن عامر والقارعة .

أما مكتشفات العصر البرونزي الوسيط (٢٢٠٠ — ١٥٠٠)ق.م فانها تتمثل باللقى التي عثر عليها في أريحا ، وهي فخاريات صنعت على الدولاب وأدوات برونزية وأسلحة .

على أن اكتشاف عدد من التماثيل قرب قلعة عمان ، أوضح بعض معالم التاريخ والفن العموني (القرن ٩ — ٧ ق.م) وهي تمثل ملوكاً وملكات وشخصيات وحيوانات .

وفي العهد الهلنستي كان السلوقيون ثم البطالمة قد تركوا أثراً اغريقياً في طراز بناء المدن وكان أسم عمان فيلادلفيا واسم جرش انطاكية وفي ذلك الوقت كانت البتراء تزداد عزة وازدهاراً .

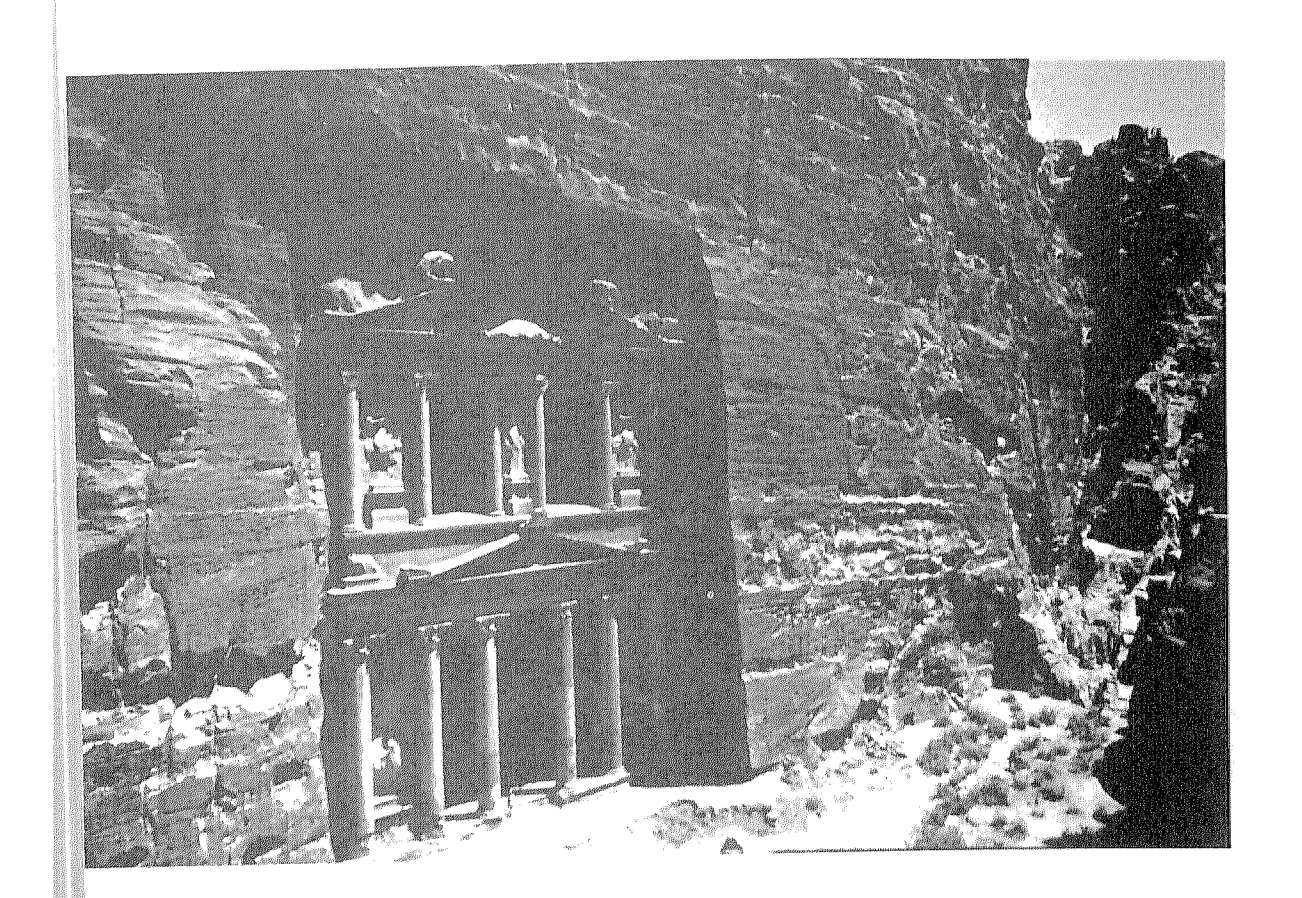
وكما هو الأمر في سائر بلاد الشام، فان الحضارة الكلاسيكية استمرت ألف عام ولقد أنشئت المدن العشرة ديكابوليس ضمن حلف تجاري وبقي الأنباط مستقلين ، بل انهم قهروا هيرودوس الروماني بقيادة الحارث • ثم فقد الأنباط استقلالهم عام ١٠٦ م في عهد تراجان ولكن عاصمتهم أصبحت بصرى •

لقد تم اكتشاف البتراء ١٨١٢ واستطاعت كركبرايد تحديد مراحل تاريخ البتراء منذ العصور الحجرية[1] • ولقد أبانت اللقى الفخارية الممتازة والكتابات النبطية وهي أصل العربية ، (ولغتهم آرامية وعربية، وآلهتهم دو الشرى واللات) عن شخصية عربية للبتراء وسكانها الأنباط ، ولعل البتراء قد وجدت منذ القرن الرابع قبل الميلاد ، ومن أشهر ملوكها الحارث وعبادة الأول (٩٠ ق•م) والحارث الرابع (٩ ق•م ــ ٤٠ م) • وآثار البتراء كلها محفورة في صخور الهضاب وأكثرها مدافن ومن أعظمها (الخزنة) التي تشع بلون صخرها الأحمر ، وهي معبد أو ضريح • و (الهيكل) الذي ينسب خطأ الى فرعون ، وضريح الجرة ، والضريح الكورنثي ، وضريح القصر ثم (الدير) •

ان هذه المباني الفريدة من نوعها مع مباني مدائن صالح في الحجاز تبقى علامة مميزة للأنباط في طريقة عمارتهم ، فلعل من عقائدهم عدم البناء بالحجارة ، وانما بتحويل سفوح الجبال الى عمارة قدت من الصخور •

---

(١) لانكستر هاردينغ ـ آثار الاردن ـ تعريب سليمان موسى عمان ١٩٧١ •



البتراء

ان من أبرز المعالم والمدن التي ما زالت باقية من العهد الروماني ، جرش التي اكتشفت عام ١٩٦٠ وتعود الى العهد البطلمي وأعيد بناؤها في القرن الاول والثاني ، وتتألف من شارع رئيسي وشارعين معترضين، وفي عهد أدريان أقيمت أهم المنشآت التي ما زالت قائمة والتي تشكل نموذجاً كاملاً لمدينة رومانية .

وفي عمان آثار رومانية واضحة منها أساسات المسرح والمنصة والمدرج وهيكل هرقل والنمفة ، وفي أم قيس مسرحان رومانيان .

ومن أشهر الآثار البيزنطية خارطة مأدبا الفسيفسائية (القرن السادس) وهي صورة رائعة للقدس . وغيرها من الفسيفساء ، وفي عهد جوستنيان ٥٢٧ ـ ٥٦٥ أنشئت في جرش سبع كنائس .

وفي العهد الاسلامي الذي ابتدأ عام ٦٣٦ م ما زالت (البوادي) وهي القصور الأموية قائمة في بادية الاردن ، مثل قصر المشتى وقصير عمرة وقصر الطوبة وحمام الصرح والحرانة والازرق والموقر . اضافة لقصر هشام في المفجر (فلسطين) .

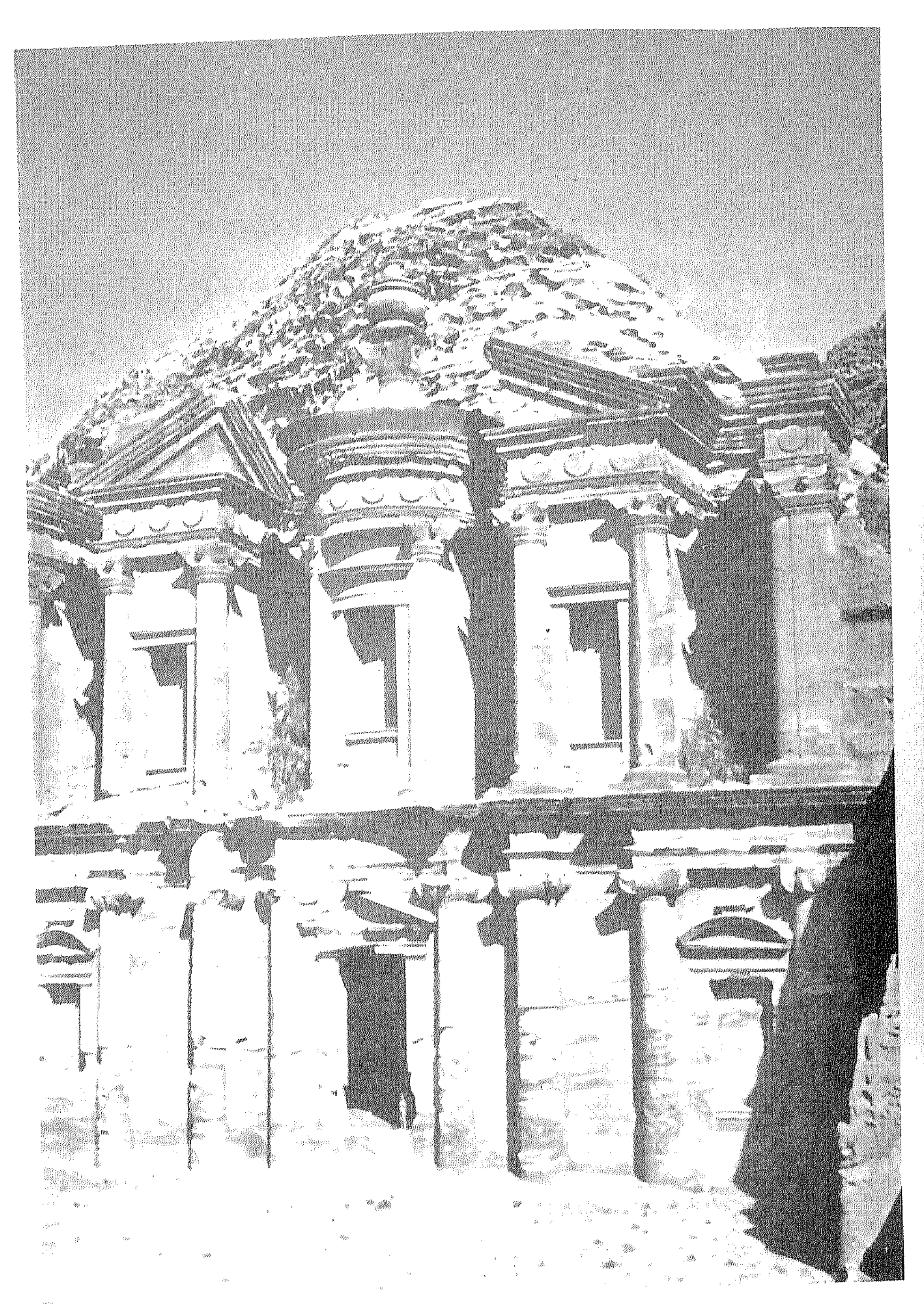
ومن آثار الحملة الصليبية قلاع منيعة مثل قلعة الشوبك وقلعة الربض (عجلون) وقلعة الكرك ، ما زالت قائمة في جنوبي الشام تكمل القلاع الموجودة في الشمال (سورية) ، مثل قلعة الحصن وقلعة المضيق وقلعة المرقب وقلعة صلاح الدين وغيرها .



جرش ـ الفوروم



ـ جرش ـ المسرح والفوروم



البتراء ــ الدير

الشام العربية قبيل الاسلام

عندما دخلت جيوش المسلمين بلاد الشام ، وكان ذلك سنة (٦٣٦ م) بعد معركة اليرموك ، لم يكن يطلق اسم سورية الا على القسم الغربي الأوسط من خارطة ديار الشام كما نعرفها ، ويدخل في ذلك قسم من العراق • ولم يستعمل العرب اسم سورية بل أطلقوا اسم الشام على هذه البلاد التي أقام فيها العرب النازحون من الجنوب حضاراتهم المتعاقبة ، الأكادية والعمورية والآرامية والكنعانية • أما الفرس والرومان أنفسهم فقد كانوا يطلقون عليها اسم اسوريا عربايا • وفي عهد الاغريق والرومان تم استعمال لفظ سورية على جميع البلاد الممتدة من الرها وأنطاكية شمالاً الى الاردن وسيناء جنوباً بما في ذلك الساحل الكنعاني •

وكان سكان الشام من العرب الذين كانوا قد نزحوا من شبه الجزيرة العربية بسبب القحط وصعوبة العيش • ومنذ عام (٣٣٣ ق•م) تعاقب على حكم المنطقة ، السلوقيون والرومان والبيزنطيون • وعند الفتح الاسلامي كان الروم (البيزنطيون) غرباء في الشام ، يحتلون فقط المناصب المدنية أو العسكرية ، ولم يكن هؤلاء بقادرين على فرض لغتهم وعاداتهم على الشاميين العرب • ومع أن الروم قد عقدوا أحلافاً مستمرة مع الغساسنة في جنوب الشام ، ومع التغلبيين في أرض الجزيرة العليا ، الا أن هؤلاء العرب استمروا على التمسك بتقاليدهم وحضارتهم •

أما سكان الشام المنبثين في القرى والجبال ، فكانوا من الآراميين ،

وكانوا مع العرب المسيحيين من سكان المدن ، من أشد أنصار الفتح الاسلامي رغبة بالتخلص من سيطرة البيزنطيين القاسية[1] .

وكانت اللغة السائدة بين جميع سكان بلاد الشام هي اللغة العربية واللغة الآرامية على اختلاف لهجاتهما ، ولقد استمرت هذه اللغة سائدة دون أن تتأثر باللغتين الاغريقية واللاتينية .

ولسوف نرى أن اللغة الآرامية ، شقيقة العربية ، قد تجلت بكتابة وحروف لم تلبث أن أصبحت بعد تطوير طفيف ، هي الكتابة العربية التي نستعملها حتى يومنا هذا ، دون تأثير يذكر من الكتابتين الثمودية والصفوية الجنوبيتين .

ولكن حتى عام (٦٣٦ م) وهو تاريخ فتح بلاد الشام ، كان قد مضى على وجود السلوقيين ومن بعدهم الرومان والبيزنطيون ما يقرب من ألف عام ، تركوا على هذه الأرض خلالها كثيراً من التراث الذي نرى آثاره ماثلة حتى يومنا هذا .

ولكن هـذا التراث الذي تبناه الأنبـاط في البتراء وبصرى ، والتدمريون في تدمر وغيرهم من العرب أهل الشام في شهبا ، بلد فيليب العربي الذي أصبح امبراطور روما كلها ، وفي أفاميا عاصمة السلوقيين، ودمشق التي كانت مملكة الآراميين ، نقول أن هذا التراث الضخم لم يكن الا (تشكلاً كاذباً) كما يقول اشبنغلر لشخصية حضارية عربية ، تجلت بوضوح في فني النحت والرسم بل كان لها مع ذلك في

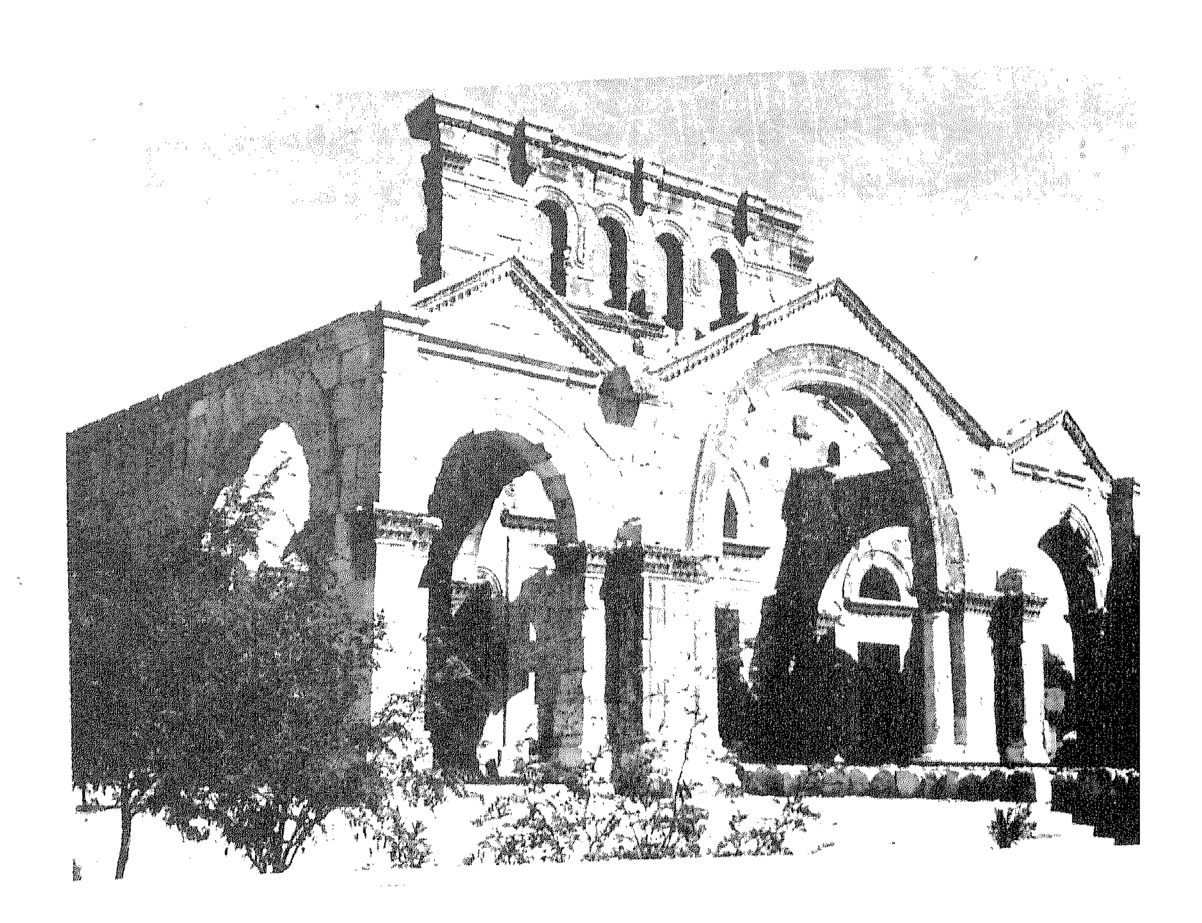
(١) انظر فيليب حتي . آثار سورية ولبنان وفلسطين .

مجال العمارة شرف ادخال القبة والقوس ، كما كان لها في العمران (تنظيم المدن) مجال تعديلات كثيرة •

ولقد كان التراث السائد عند فتح الشام ، هو تراث الروم البيزنطيين الذي تزخر سورية بشواهده في حوران وفي غوطة دمشق حيث كان يوجد خمسة عشر ديراً ، وما زالت أطلال قصر ابن وردان والكنيسة الواقعين الى الشمال الشرقي من حماة ، وأطلال منطقة الاندرين والكراتين الى الشرق من معرة النعمان ماثلة • وفي الرصافة المركز المسيحي ، ما تزال آثار كنيسة القديس سيرجيوس التي ترجع الى نهاية القرن الخامس قائمة • ومن المجموعات المعمارية المسيحية مجموعة قلعة سمعان حيث كنيسة القديس سمعان (٤٩٠ م) ذات الشكل المصلب ، وهي من أهم الكنائس المسيحية في العالم • ولم يكن هذا التراث غريباً عن الروح العربية ، بل يمكننا اعتباره (المخلّص) من التأثيرات الكلاسية •

وامتد الاسلام بعد عام (٦٣٧) الى العراق الذي كان تحت سيطرة الفرس •

ولقد كانت الثقافة الايرانية الساسانية ، قد تمكنت في العراق وامتدت آثارها الى شرقي الشام • وهكذا فان الشام عند نشأة الاسلام كانت تقع تحت تأثير حضارتين واضحتين ، هما الحضارة الساسانية في العراق والتي امتد تأثيرها الى الشام لوحدة القطرين في ظل الاسلام ، والحضارة الكلاسية ــ البيزنطية التي كانت قد توطنت في الشام من شماليها الى أقصى الجنوب • على أن الحضارة الرافدية



كنيسة القديس سمعان العمودي

وهي الحضارة العربية الاولى التي تبناها الاجداد في العراق والشام ، استمرت في جميع العصور شاهداً على شخصية حضارية هي من أقدم وأرسخ لحضارات في التاريخ .

على أن الشيء الذي تفرد به الانسان في الشام ، أنه لم يفقد شخصيته أمام الشعوب التي أخضعها ، بل احتضن بادىء الأمر حضارتها وما لبث الا قليلاً حتى صار كل شيء عربياً شامياً ، وحتى أصبحنا لا نستطيع أن نميز بين ما يعزى الى الفرس أو الى البيزنطيين.

وهكذا انفتحت صفحة تاريخية جديدة على أرض الشام بعد الفتح الاسلامي ، فلقد عاد العرب لحكم أنفسهم بعد انقطاع طويل ، بل لقد أصبحت الشام ودمشق خاصة ، عاصمة أول دولة نظامية عربية بعد الاسلام ، فلقد جعلها معاوية ، وكان قبلاً والياً على الشام بعد أخيه يزيد ، عاصمة امبراطورية كبيرة امتد سلطانها من شواطىء المحيط الاطلسي وجبال البيرنه غرباً ، الى نهر الهندوس وتخوم الصين شرقاً . ولقد كان على هذه السلطة الناشئة التي انتقلت من ظروف البادية ، أن تتكون كدولة متحضرة فتؤسس الدواوين العربية وتضرب النقود وتنشيء البريد وتشيد المباني ، عدا عن توطيد الحكم والدفاع عن الثغور ومتابعة التوسع وترسيخ الاسلام كعقيدة وشريعة وجهاد .

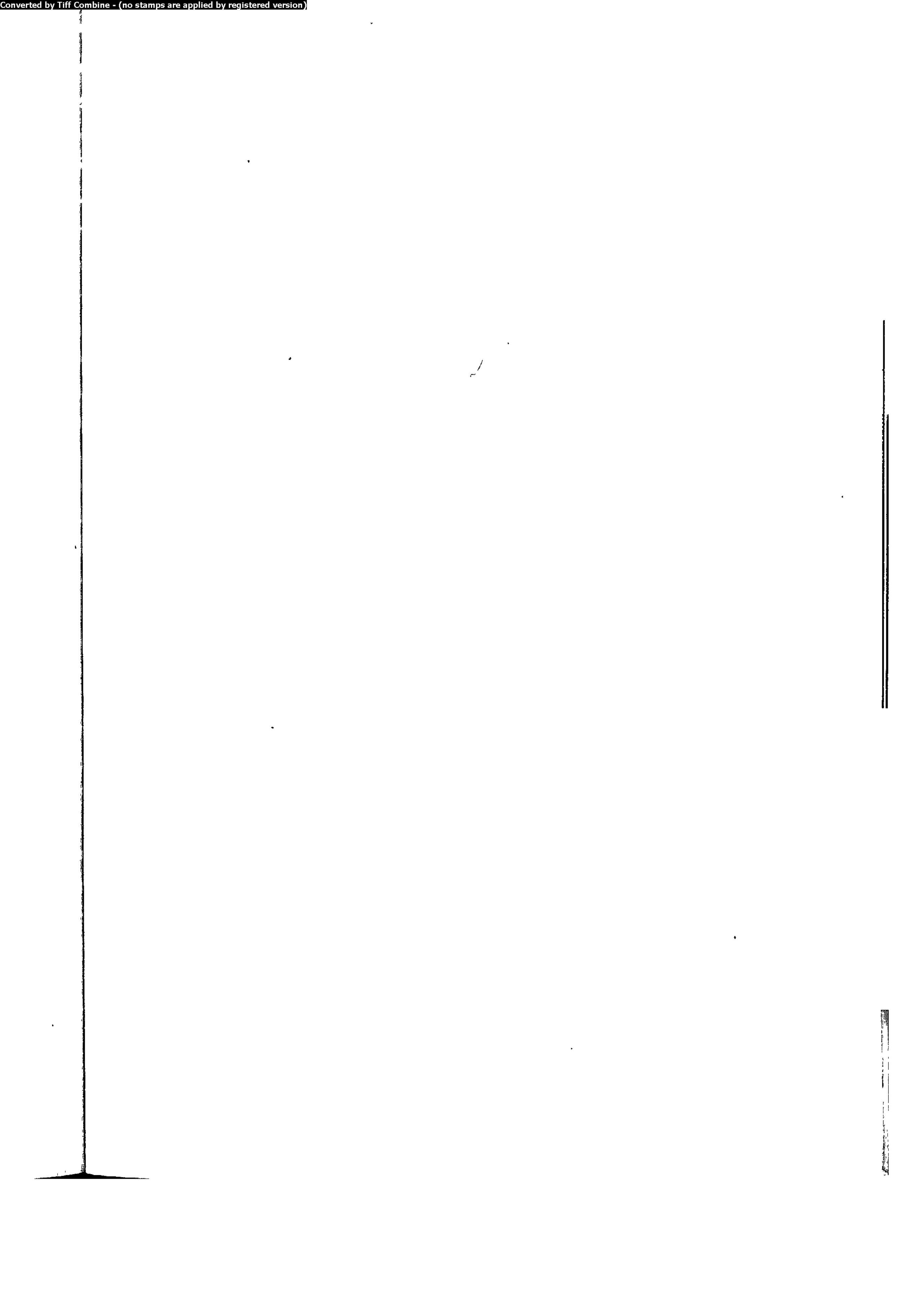
الفصل الخامس

المدينة الشامية

دمشق الشام

حلب الشهباء

القدس والحرم الشريف



دمشق الشام

عندما يذكر اسم دمشق فان هذا الاسم يقترن بالماضي الغابر ؛ ليس مع أحداثه الكبيرة وحسب ، بل مع قدم الزمن والتاريخ ، فلقد عرفت هذه المدينة على أنها أقدم مدينة في التاريخ • ولقد اعتاد العرب في كتبهم ورواياتهم كالبلاذري واليعقوبي والمقدسي وابن جبير أن يقرنوا هذه المدينة ببداية الخليقة ؛ فهم يرجعونها الى عهد آدم الذي كان يقيم في ضاحية من ضواحيها تسمى (بيت أبيات) وأن حواء قد أقامت في قرية أخرى ما زالت قائمة هي (بيت لهيا) أو بيت الآلهة ؛ وأن هابيل أقام في (مقرى) وأن قابيل في (قينيّة) ، وما زال قبر هابيل حتى اليوم رآه الرحالون العرب ورأوا آثار دماء هابيل أول قتيل في الوجود على حجر ملقى الى جانب الضريح !!••

على أن أكثر المتحدثين عن دمشق يجمع أنها كانت موطن ابراهيم الخليل ، بل كانت مولده ، وكان آزر أبوه ينحت فيها الأصنام •

ويقول ابن الكلبي أنها ترجع الى دماشق من أحفاد نوح ، وقيل أن من بناها هو جيرون من أحفاد نوح • وقيل أيضاً أن هودا نزل فيها وأسس حائط معبدها وهو أول حائط مبني في التاريخ •



مدينة دمشق ـ مشهد عام

واذا كان في هذه الأقوال كثير من الخيال ، فلأن منشأ هذه المدينة أقدم من أن يعرف ، فلقد أقام فيها ابراهيم الخليل ولا شك اذ أنها كانت موجودة منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، فلقد قرىء اسمها دامسكي على جدران الكرنك ثم في كتابات شلمنصر ، ثم في وثائق إيبلا .

ولعل سكانها الاصليين هم العموريون ، ولكن المصريين أقاموا فيها فترة ثم أصبحت عاصمة مملكة آرامية اسمها مأخوذ عن اللغة الآرامية (دارميسق) ، وهي ارم التي ذكرت في القرآن . « ارم ذات العماد والتي لم يخلق مثلها في البلاد » ولقد عثر في مكان الجامع الأموي مؤخراً على آثار آرامية هي لوح يمثل أسداً مجنحاً[1] .

وسوف تكشف التنقيبات في تل السماكة بدمشق عن حقيقة الوجود الارامي الذي استمر حتى الاسلام ؛ وكان أكثر الآراميين قد اعتنقوا المسيحية ومنهم من يعيش بيننا حتى اليوم ، ويتكلم اللغة الآرامية القديمة ويكتبها وتطبع فيها الكتب تحت اسم السريانية ، والآراميون عرب ولغتهم عربية والكتابة العربية الحديثة أي كتابة القرآن مشتقة من كتاباتهم ، وليس من الصعب علينا اليوم قراءة كتابتهم التي يبدو الشبه قوياً بينها وبين الكتابة العربية ، كما أن كثيراً من الألفاظ مشتركة أو متقاربة بين اللغتين .

وفي عام ٣٣٣ ق.م يحتل دمشق الاسكندر المكدوني الذي اجتاح الشرق ، وأسس أتباعه السلوقيون في سورية والعراق وجزء من ايران

---

(١) اللوح موجود في المتحف الوطني بدمشق . والاسد المجنح ابتكار عموري قديم نقله الهكسوس الى مصر ١٧ ق.م .

مدناً لهم . ثم يأتي الرومان عـام ٦٤ ق.م فيحتلون سورية وتصبح ثغورهم تدمر والحيرة والبتراء وبصرى وهي مواقع وممالك عربيـة متحالفة مع الرومان .

وتزدهر دمشق عندما يعتلي عرش رومـا عائلة شامية كعائلة سيفيروس الليبية التي اقترنت دائماً من اسرات سورية ، ثم عندما يصبح فيليب العربي من حوران امبراطوراً ، وما زالت آثار المنشآت الرومانية قائمة في دمشق في معبد جوبيتر الكبير وفي الشارع المستقيم وقوس النصر والباب الشرقي ، وفي آثار كثيرة لا يمكن الكشف عنها دون التضحية بمعالم دمشق القديمة . ويقول استرابون عن دمشق الزاهرة في ذلك العهد : « لا تزال دمشق حتى اليوم على جانب عظيم من الأهمية ، وفي زمن الحكم الفارسي كان يمكن اعتبارها أشهر مدينة في هذا القسم من آسيا » .

وعندما أصبحت دمشق تحت حكم البيزنطيين ، أصبح سكانها الآراميون مسيحيون ولعبوا دوراً ايجابياً في الفتح الاسلامي لمدينة دمشق واجلاء الروم البيزنطيين .

وفي عهد الأمويين أصبحت دمشق عاصمة أكبر دولة في التاريخ القديم وصلت الى الغانج شـرقاً والأطلسي غرباً ، وكانت الأندلس عربية وكادت فرنسا أن تصبح عربية قبل معركة بواتيه بلاط الشهداء .

وفي دمشق أنشيء الجامع الأموي[1] أول عمارة عربيـة كاملة أنشأها الوليد بن عبد الملك عام ٧١٥ م ، واستفاد المعماريون من أحجار

---

(١) انظر كتابنا عن الجامع الاموي ـ دار طلاس دمشق ١٩٨٦ .

المعبد الوثني ـ معبد جوبيتر ومن أسوار هذا المعبد المتهدم ، وكانت ثمة كنيسة قد استقرت في حرم المعبد القديم « فاوس » هدمت باتفاق بين الخليفة ورجال الدين المسيحي .

وتبلغ مساحة الجامع ١٥٧ م × ٩٧ م بعد أن أضيف اليها من الشرق والغرب ملحقين بعرض ٩٫٤٥ م لبناء المآذن الأبراج والمشاهد والقاعات .

ويتألف الجامع من صحن عرضاني وحرم عرضاني متجه نحو القبلة تعلوه قبة النسر .

وللجامع مئذنتان من جهة الجنوب ومئذنة في منتصف الجهة الشمالية ولعلها بديلة لمئذنتين جانبيتين لم يكتمل بناؤهما .

ويحيط بالصحن من جهاته الثلاثة أروقة محمولة على عضادات مربعة . أما واجهة الحرم فكانت مؤلفة من فتحات كبيرة تم اغلاقها بأبواب خشبية .

وفي الصحن قبة الخزنة وقبة الساعات والقبة الغربية .

أما الحرم فهو مؤلف من ثلاث أجنحة عرضانية ، وجناح متوسط معترض يصل بين المحراب والصحن وينفتح على الصحن بواجهة ضخمة مسنمة مغطاة بالفسيفساء والرخام .

ويحمل سقف الحرم الجملوني أعمدة على مستويين مع عضادات. وفي الحرم أربعة محاريب ومنبر وسدة وقبر يقال أنه ليوحنا المعمدان.

وللجامع خمسة أبواب تنفتح على الصحن وباب وحيد ينفتح على الحرم .

لقد كانت حيطان الجامع الأموي وما زالت مغطاة بالرخام المجذع على ارتفاع قامتين ، ثم هي مغطاة بالفسيفساء الملونة والمذهبة حتى السقف ، وتمثل هذه الفسيفساء صور أشجار وكتابات على غاية الحسن والرقة ولطافة الصنعة ، كما يقول المقدسي ، وكل شيء أو بلد الا وقد مثل على تلك الحيطان ، وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفسيفساء ولعل المشاهد المتمثلة في هذه الألواح الرائعة كانت تمثل بعض المنشآت القائمة في دمشق ، ولكن التأثيرات الكلاسية في تصوير النباتات تبقى واضحة ، على أن الفنانين السوريين هم الذين نفذوا هذه الرسوم البديعة بدلالة وجود كثير من أفران صنع أحجار الفسيفساء الملونة في بلاد الشام . وكانت العمارة في العهد الأموي درجت على تبليط الأرض بالفسيفساء عدا عن الزخرفات الجدارية .

ومن الواضح أن من بين الرسوم لا يوجد أي وجه آدمي أو حيواني احتراماً لقداسة المسجد الذي يقتضي أن لا يضم فيه صورة قد يصبح لها قدسية تقترب من الوثنية . ولقد تعرضت ألواح الفسيفساء الى الخراب بتأثير الزلازل المتلاحقة والحرائق ، وأعيد انشاؤها مرات حتى غطيت بالكلس آخر مرة ، فكشف عنها وما زالت تستكمل .

وعلق في المسجد قناديل بلورية مرتبطة بسلاسل مذهبة وجعل فيها المسك ، وكان فيها ثريا ثمينة نادرة تسمى (القليلة) . وفرشت أرض الحرم فيما بعد وما زالت بأروع السجاد . كما حفلت بالمخطوطات الثمينة ، المرقشة والمذهبة .

وكان للجامع باب قديم يؤدي الى قصر منيف أقامه معاوية في الجنوب يطلق عليه اسم القصر الأخضر ، ما زالت التنقيبات جارية للتعرف على آثاره •

وفي العهد العباسي تظهر معالم المدينة التي نعرفها اليوم ، والمؤلفة من أحياء مغلقة يتضمن كل حيّ مسجداً وحماماً وأسواقاً ، ولكل حي شيخ وحارس وباب مغلق •

وتخلفت المدينة في عهد العباسيين ، حتى أن هارون الرشيد أرسل الى عامله الحسين بن عمار يعاتبه على تدهور أحوال دمشق فيقول له : « ولّيتك دمشق ، وهي جنة تحيط بها غدر تتكفأ أمواجها على رياض كالدراري ، فما برح بك التعدي لارفاقهم أن جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر » •

ولكن غوطة دمشق ووضع المدينة على سفوح قاسيون تغذيها الأنهار السبعة ، استمرت جميلة جذابة حتى أن البحتري قال يصفها :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفّى مطريها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد
مستحسن وزمان يشبه البلدا

تمسي السحاب على أجبالها فرقا
ويصبح النور في صحرائها بددا

ويقول اليعقوبي[1] ـ توفي عام ٩٠٥ ـ : « ومدينة دمشق مدينة جليلة قديمة وهي مدينة الشام في الجاهلية والاسلام ، وليس لها نظير في جميع أجناد الشام في كثرة أنهارها وعماراتها » .

وفي رسالة أوردها ابن عساكر[2] عن أبي الليث ، يصف دمشق ، يقول : « ثم أمرنا بالانتقال الى البلد ، فانتقلت منه الى بلد تمت محاسنه (يقصد دمشق) ورافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة ، وشوارعه فرحة ، فحيث ما مشيت شممت طيباً ، وأين رأيت ، رأيت منظراً عجباً » .

ويقول ابن جبير عن دمشق (١٢٠٠ م) : « وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً ، ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفناديق ، مثقفة كلها بأبواب من حديد ، كأنها أبواب القصور ، وكل قيسارية منفردة بضبتها واغلاقها الجديدة ، ولها أيضاً سوق يعرف بالسوق الكبير (ما زال قائماً) يتصل من باب الجابية الى باب شرقي » .

ويصعد ابن جبير نفسه[3] أثناء زيارته الجامع الأموي ، الى أعلى قبة النسر ، حيث يطل على مشهد دمشق ، فيقول : « من أعظم ما شاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة الشأن وهياكلها الهائلة البنيان ، المعجزة الصنعة والاتقان » .

---

(١) كتاب البلدان ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .
(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٢ ق ١ ص ١٦ .
(٣) ابن جبير ـ الرحلة ص ٢٣٤ ـ ٢٧١ .

واستمرت دمشق على بهائها وحسن تنظيمها وروعة الطبيعة فيها حتى عهد المماليك ، فيقول العمري[1] عنها : « وهي مدينـة حسنة الترتيب ، جليلة الأبنية بالحجر والخشب ، والآجر مضبب بين مداميك البناء بالخشب الملبن » .

ودمشق القديمة ما زالت حافلة حتى يومنا هذا بروائع العمارة العربية ، ويبقى الجامع الأموي أعظم آبدة فيها ، أما الأتابكة فلقـد تركوا لنا البيمارستان النوري ومدرسة نور الدين الشهيد ، وترك لنا الأيوبيون قلعة دمشق العظيمة التي ما زالت تحتفظ بروعتها وجلالهـا تقع موازية لأكبر وأشهر سوق في المدينـة ، كما تركوا لنا المدرسة العادلية والمدرسة العزيزية (مدفن السلطان صلاح الدين الأيوبي) وجامع التوبة المظفري ومدفن السلطان حسن .

أما المماليك فلقد تركوا في دمشق كثيراً من المدارس والمساجد التي ما زالت قائمة ومنها جامع العجمي والقلعي وهشام وتنكز والمعلق . والمدرسة الرشيدية والصابونيـة والسيبائية والجقمقية (مقر متحف الخط العربي) والمرادية والجواهرية والخيضرية .

وعلى الرغم من جمود الحياة الثقافية والاجتماعية في العهد العثماني فان دمشق ما زالت تحتفظ ببعض الأوابد المعروفـة ؛ مثل التكيـة السليمانية التي صممها المعمار الشهير سنان ومجموعـة الدرويشية المؤلفة من جامع وتربة وسبيل ومدرسة ، ومن جامع السنانية الذي يزدهي بكسوته القيشانية الملونة . ومن الخانات (الفنادق) خان أسعد

(١) مسالك الابصار ج ١ ـ ص ١٨٧ ـ ٢٠٣ .

باشا وخان الحرير (درويش باشا) وخان الجمرك (سليمان باشا) وقصر العظم (مقر متحف التقاليد الشعبية) . وتشتهر دمشق بمدافن العظماء فيها ، مثل قبر معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وبلال الحبشي وسكينة وفاطمة بنت الحسين (وقبورهم في مقبرة الباب الصغير) وقبر أبو الدرداء والسيدة زينب بنت علي كرم الله وجهه ومقامها حسن التنظيم والزخرفة .

وفي دمشق أضرحة ظاهرة منها ضريح السلطان نور الدين زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي والملك الظاهر بيبرس والمؤرخ ابن عساكر وابن كثير والفارابي ومحي الدين العربي وابن تيمية وابن قتيبة.

هذه هي دمشق القديمة العريقة التي ما زالت تحتفظ بطابعها القديم ، تحيط بها مدينة جديدة عصرية ، تزاحمها الوجود والعظمة . ولكن مدينة دمشق القديمة ، بشوارعها الملتوية وأزقتها المحفوفة بالبروزات والأكشاك والكتبيات ، وبحماماتها وأسواقها الشهيرة وبيوتها الفسيحة المغلقة ، ما زالت تفوح بأريج الشرق المعطر يأتيها الناس من أنحاء الدنيا لكي يشهدوا فيها روعة الماضي وجمال الحياة العربية وألفتها ، وليخاطبوا سكان هذه المدينة ببشاشتهم وأزيائهم التقليدية وبعبارة تقليدية « أهلاً وسهلاً » بل « مية أهلين ومية سهلين »[1] .

حلب الشهباء

كثيرة هي المدن القديمة التي ابتدأت التاريخ مثل أور وتللو وماري ، ومثل منف أول حاضرة فرعونية ومثل سقارة ، ولكن هذه

(1) انظر كتابنا ـ دمشق الشام ـ مطبوعات دار الجنوب تونس ١٩٨١ .

المدن التي ازدهرت وأشعت الحضارة ، لم تعمر كثيراً كما أن العواصم الشهيرة اليوم يرجع ظهورها الى فترات قريبة ، ويكفي أن يكون عمر أكبر مدينة في العالم وهي نيويورك لا يتجاوز القرنين ، فثمة مدن قديمة وصلت الى قمة ازدهارها ثم تلاشت نهائياً وثمة مدن زاهرة اليوم ولكنها حديثة فتية .. أما حلب فإنها المدينة الفريدة من نوعها في العالم ، فهي قديمة جداً قدم التاريخ ، ثم هي حديثة تحمل كل سيماء العصر الحديث . ولقد كانت بين الماضي المغرق في قدمه وبين الحاضر المتطرف في معاصرته موجودة أيضاً ، ومزدهرة حية ، لعبت أدواراً هامة في تاريخ الشرق القديم وفي تاريخ العرب المسلمين .

وحلب أو حلبابا هي كلمة عمورية قديمة تعني النحاس . فلقد كانت حلب مركزاً للنحاس تتاجر به أو تنتجه . ولقد ورد اسمها منذ عهد سارغون الأكادي حيث استولى ابنة ريموش عليها عام ٢٥٠٠ ق.م كما تغلب عليها حفيده نارام سين وأسر ملكها ريد عدد ، كما تغلب على ايبلا (تل مرديخ) . ومن المؤكد أن حلب كانت موجودة قبل ذلك التاريخ بزمن طويل ، اذ أن وضعها الاجتماعي والسياسي والعسكري لم يكن ضعيفاً ، بدلالة أن حلب استعادت حريتها بقوة سلاحها في مرتين متتابعتين مقاومة جيشاً قوياً ومنظماً هو الجيش الأكادي . ثم أصبحت بعد ذلك احدى المدن العمورية الكبرى تضاهي بأهميتها ماري (تل حريري) وقطنة (المشرفة) وكركميش (جرابلس) وألالاخ (تل عطشانة) وهي مدن عمورية كبيرة .



مدينة حلب ـ مشهد عام

وأصبحت هذه المدينة عاصمة لمملكة يمحاض التي كانت تضم عشرين مملكة صغيرة ، منها ايمار (مسكنة) وكالسيس (قنسرين) • وكان ملك حلب يرتبط بعلاقات جيدة مع الملوك العموريين الآخرين ، وخاصة ملك بابل حمورابي وملك ماري زيمريليم ، بل كان له سلطان على هؤلاء الملوك ، يخلع منهم من شاء وينصب من شاء • ووصلت حلب في عهد العموريين ، وهم سكانها الأصليون ، الى قمة ازدهارها حتى استولى عليها الحثيون ، فاستمرت رازحة تحت عبء هذا الاحتلال حتى القرن ١٦ ق•م ، ثم أعقب ذلك احتلال ميتاني ، كان قد امتد نحو المدن العمورية الأخرى منذ القرن السابع عشر ، وكان سبباً في هجرة المواطنين باتجاه الساحل الكنعاني ، أو باتجاه مصر ، أطلق عليهم اسم الملوك الرعاة أو الهكسوس •

ثم تعرضت حلب لغزو فرعوني لم يلبث أن تلاشى بعد موقعة قادش (تل النبي مند) • وانتهى عهد الحثيين في حلب منذ عام ١٢٠٠ بتأثير شعوب البحر ، ثم توطن الآراميون العرب جميع المدن الكبرى ومنها حلب فأصبحت مدينة مقدسة تحوي معبد الاله حدد اله العاصفة والخصب عند الآراميين ، بل كان اله حلب منذ العموريين والحثيين • وبعد فترة من حكم البابليين ثم الفرس بقيادة قورش جاء الاسكندر المكدوني مجتاحاً الشرق عام ٣٣٢ ق•م والذي أعقبه السلوقيون ثم الرومان وعرفت حلب باسم بيروه على اسم المدينة المكدونية مسقط رأس فيليب المكدوني والد الاسكندر • وما زال حي الجلوم ذو الشوارع المتقاطعة عمودياً من آثار المدينة القديمة في

العهد الروماني • ولم يبق من عهود الحقب التاريخية المتعاقبة آثار تذكر ، ولكن التلال الأثرية كتل القلعة والعقبة وعين التل وتل النيرب تحبل بكثير من الشواهد التي لم يتح لنا التنقيب عنها بعد للكشف عن آثار العهد العموري والحثي • ولقد أكدت بعض المكتشفات العفوية أهمية هذه التلال ، فلقد عثر في القلعة على آثار معبد من العهد الحثي وعلى تمثال الاله دجن العموري • كما عثر في عين التل على أختام اسطوانية ودمى ترجع الى العهد العموري مع تمثال بازلتي يرجع الى القرن التاسع ق•م ، وعثر في قلعة حلب على كثير من الآثار الكلاسيكية كالنواويس والتيجان التي أعيد استعمالها في أبنية تاريخية •

وفي العهد المسيحي تصبح حلب أبرشية وأقيمت فيها الكنيسة الكاتدرائية التي ما زالت قائمة حتى الآن تحت اسم المدرسة الحلوية •

لم تكن حلب بلدة كبيرة في العصور الاسلامية الأولى ، بل كانت تابعة لقنسرين عاصمة الأقطار الحلبية كما يقول الغزي ، وكانت تضارع أنطاكية عظمة واتساعاً وفخامة بناء • وقنسرين اليوم خربة وتقع جنوبي حلب وهي تلال أثرية تحوي أطلال تلك المدينة العظيمة •

وعلى الرغم من تأثير الشعوبية في العصر العباسي فان حلب أصبحت عاصمة دولة عربية من بني تغلب هم الحمدانيون الذين وسعوا حدود امارة حلب • ولقد حارب سيف الدولة مدة حكمه في معارك ظافرة سجلها أبو الطيب المتنبي في قصائده الرائعة ، التي مدح فيها سيف الدولة فزاعت شهرته في جميع أنحاء العالم الاسلامي • ولقد وصف المتنبي قصر أبي فراس ، (الحلبة) الذي شيده ظاهر حلب ، ضمن

مجموعة من البيوت الفخمة والبساتين، ولقد أتى على هذا القصر نقفور.
وبعد أن كانت حلب ثغر الشمال لصد هجوم الروم فانها أصبحت أيضاً منطلق جنود العرب للقضاء على الصليبيين الذين احتلوا بعض أجزاء سورية ، وكان نور الدين زنكي البطل الذي قهر طموح هؤلاء المحتلين ، ولكن هذه الحروب ، ما كانت تمنع نور الدين من الاهتمام بالعمران الذي نرى آثاره حتى اليوم .

ويتابع الأيوبيون أعمالهم الانشائية في حلب وخاصة في القلعة ، ونذكر الملك الظاهر غازي الذي رمم القلعة وستر سفوحها بالبلاط الحجري وأنشأ (بيت الأعمدة) الذي احترق ثم أقام قصر (بيت النظر) .

ثم تتعرض حلب لنكبتين مغوليتين ، الأولى عام ١٢٦٠ بقيادة هولاكو والثانية في عام ١٤٠٠ بقيادة تيمورلنك . وقد تحملت حلب أقسى أنواع التخريب ومع ذلك فان هذه المدينة ما زالت تحتفظ بروائع فن العمارة الاسلامية ، مما يجعلها من أبرز المدن الاسلامية بعد القاهرة احتواء للآثار والأوابد المعمارية .

وما زالت الكنيسة القديمة (ق ١٥) و (المدرسة الحلوية) والكاتدرائية (المدرسة المقدمية) قائمة في المدينة مع بعض المنشآت في القلعة وترجع الى العهود البيزنطية .

أما الآثار الاسلامية فان أهم ما تبقى منها هو السور والأبواب ، باب النصر (ق ١٣) وباب انطاكية (ق ١٣) وباب قنسرين (ق ١٣)

وباب الفرج (ق ١٥) وباب المقام (ق ١٥) وباب الحديد (ق ١٥) وباب الجنان (ق ١٦) •

أما القلعة فهي رابية كانت آكروبول المدينة ، وفيها آثار مختلفة • وهي بشكلها الحالي ترجع الى عهد سلطان حلب الملك الظاهر غازي (١٠٢٩ م) ، ثم أضيف اليها بعض العناصر المخالفة ، أما الجامع الأموي الكبير فلقد جدد مرات عديدة وترجع منارته الى عام ١٠٩٠ م•

وفي حلب مكان مقدس قديم يرجع الى أيام ابراهيم الخليل يسمى (مقام الصالحين) وهو مجدد ، ومن المنشآت الاسلامية في عهد نور الدين البيمارستان النوري •

ومن أشهر الآثار الأيوبية المدرسة السطانية التي تضم تربة الملك الظاهر غازي (١٢٢٣ ق) والمدرسة الظاهرية (١٢١٧ م) ، والمدرسة الكاملية ومنارة جامع الدباغة ، ومدرسة الفردوس التي بنتها سلطانة حلب ضيفة خاتون زوج الملك الظاهر غازي ، وهي مؤلفة من جامع ومدرسة وتربة ورباط وهي أجمل مجموعة أثرية في حلب وخانقاه الفرافرة (١٢٣٧ م) •

ومن أبرز الآثار الباقية في حلب من العصر المملوكي جامع الطنبغا (١٣١٨ م) وبيمارستان أرغون (١٣٥٤ م) وهو من أفضل المشافي القديمة في سورية ومصر • وجامع الأطروش (١٤٠٣) وحمام الناصري (اللبابيدية) وهو أجمل وأشهر حمامات سورية •

ومن أشهر الخانات ، خان الصابون (بداية ق ١٦) • ومن العصر العثماني تحتفظ حلب بخان الوزير (ق ١٧) وخان الجمرك (ق ١٧)

وخان الفرايين وخان التوتون وبيت غزالة وبيت آجقباش (بداية ق ١٨) وبيت الدلال (ق ١٧) وحمام النحاسين وغيرها •

ومدينة حلب من المدن القليلة التي يتعانق فيها القديم والحديث مع كل استقلال وتميز ، ونحن نرى المدينة القديمة وقد انحصرت بين بقايا السور الكائنة بين باب الجنان وباب أنطاكية وباب قنسرين ، وعلى أطراف جادة الخندق مشكلة مربعاً يصل طول ضلعه الى ١٥٠٠ م ، ولكن هذه المدينة الصغيرة لم تلبث أن توسعت منذ عهد الملك الظاهر بيبرس ، باتجاه الشمال والغرب ، وكان يقطن منطقة داخل السور البرجوازيون (أهل جوّا) ، ويسكن الأحياء الخارجية سكان القرى والبادية (أهل برّا) •

ومن أبرز أحياء هذه المدينة التاريخية حي البياضة والفرافرة ووراء الجامع والسفّاحية •

أما الأسواق فانها تعتبر من أهم ميزات المدينة ، فهي ليست مجرد طرقات محفوفة بالمتاجر ، بل ممرات عريضة مغطاة بأقبية حجرية سميكة تحمي من حر الصيف وبرد الشتاء ، ويتسلل النور من فتحات هذه الأقبية ، وتمتد هذه الأسواق متداخلة متعارضة متصالبة على مسافة ١٥ كم في بقعة مجمعة تقع غربي حلب ويطلق عليها اسم المدينة ، ومن أشهر هذه الأسواق سوق الفرايين وسوق السراجين وسوق الزرب وسوق العطارين وسوق الخيش ، وأسواق المزاد والعبي والحبال والقوافين والصاغة ، ثم سوق السقطية الحافل بالمطاعم والحلويات •

يبوس ــ أور سالم ــ القدس ، هي التسميات العربية التي حملتها مدينة القدس عبر التاريخ ، ولقد عرفت هذه المدينة منذ أقدم العهود التاريخية ، وكان يقطنها قبائل من العرب الكنعانيين ، يطلق عليهم اسم اليبوسيين ، ومنهم اسم يبوس • ثم أطلق « سالم » أحد ملوكهم اسمه على المدينة فأصبحت « أور سالم » أي مدينة سالم ، ثم نقلت هــذه التسمية للعبرية لتصبح أورشليم كما وردت في التوراة •

وتعاقب على القدس ، الفرس والبطالسة والسلوقيون • ثم جاء الرومان عام ٦٣ ق•م الذين أحرقوا نهائياً معبد سليمان الثاني على هضبة مودية وكان ذلك عام ٧٠ م • وفي عهد « هيرودوس » ولد المسيح في بيت لحم ، وعندما انتشرت المسيحية ودانت بها بيزنطة التي حكمت القدس فيما بعد ، أصبحت القدس مدينة مقدسة من جديد وأضحت عاصمة المسيحيين ، وكان من أول ما أنجزه البيزنطيون في هذه المدينة ، هو اقامة كنيسة القيامة فوق القبر المقدس •

واستمرت القدس تحت سيطرة البيزنطيين زهاء ثلاثة قرون ، وكان فيها أعداد من اليهود ، عملوا دائماً على تقويض السلطة المسيحية ، وكان لهم دور خسيس عندما حاصر الفرس بقيادة خسرو الثاني القدس أربعة شهور عام ٦١٤ ، فقام اليهود بحفر ثغرة في سور المدينة دخــل منها الفرس واستولوا على المدينة ، فما كان من اليهود الا أن أعلنوا انضمامهم الى الجيش الفارسي ، وكان عددهم بضعة آلاف يقطنون



القدس ــ قبة الصخرة

جبال الجليل ، وقاموا مع الغزاة الفرس بقتل الأطفال والأبرياء ، وباحراق الكنائس والأديرة وتحطيم الروائع الايقونية ، وقد هدم اليهود ــ كما يعترفون بذلك ــ البازيليك الشهيرة التي بناها جوستنيان . وقاموا بالقبض على جميع المسيحيين ، وجروهم حفاة عراة الى المعتقلات ، وكان على رأس سيل الأسرى بطريك القدس ، وقد امتدت أرتال الأسرى عشرات الأميال .

وقام المسيحيون من جديد ، بإعمار المدينة المقدسة ، بعد أن طردوا اليهود منها وحرموا عليهم دخول القدس تحت طائلة الاعدام ، وكان ذلك جواباً على الدور الذي قاموا به أيام الاحتلال الفارسي ، فعلى أيديهم تم اعتقال المسيحيين ، وهدم كنائسهم على جبل الزيتون ، وقاموا هم بسرقة نفائسهم وحرق كتبهم ، وكان اليهود يقومون بأعمال التعذيب في السجون وحراسة المعتقلات .

ولم يطل حكم هرقل فلقد ظهر الاسلام منادياً بدين توحيدي عام ٦٢٤ ، وامتدت سلطة الاسلام على جميع الأراضي العربية ومنها القدس ، التي دخلها عمر بن الخطاب عام ٦٣٥ على ناقة متواضعة ، معلناً التعايش الديني مع المسيحيين ، وكانت العهدة العمرية أول ميثاق للاخاء الاسلامي المسيحي على الأرض العربية ، فلقد أعطى عمر عهداً للمسيحيين بالأمان الكامل على أرواحهم وأموالهم وكنائسهم ، وحرم على المسلمين سكن هذه الكنائس أو هدمها ، ولقد تجاوزت هذه البيعة أحلام سوفرونيوس بطريك المسيحيين نفسه .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت القدس مركزاً عربياً ، جمع المسلمين والنصارى ، ولم يحرمها على اليهود ، وأصبحت محجاً يأتيها المؤمنون من أطراف الأرض ، وكان شهر ايلول من كل عام سوقاً دولية يجتمع فيه الزائرون مع سلعهم وتحفهم على جبل الجلجلة ، يتعارفون ويتبادلون السلع • ومن روائع المصادفات أن مطـراً غزيرة كانت تهطـل عقب انتهـاء السوق من كل عـام ، فتغسل غسلاً طاهـراً أرض الجبل من آثار التجمع الهائل •

الحرم الشريف

يقع الحرم الشريف في ذلك المكان المقدس القائم على قمة جبل مودية • ومنذ أن هدم الرومان المعبد الثاني على هذا الجبل ، بقيت المنطقة خراباً لا يرى فيها الا أكوام الحجارة والأنقاض • وما أن دخل عمر المدينة ، حتى صلى في موضع ما زال معروفاً ، ثم أقام مسجداً من الحجر ، يشابه ذلك الذي أقامه الرسول في المدينة • ولقد أزيل هذا المسجد لكي ينهض مكانه مسجد الصخرة ، الذي يطلق عليـه أحياناً اسم مسجد عمر •

ولقد استجمع الحرم الشريف صفاته بعد ذلك ، خاصة عندما قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان عام (٧٢ هـ • ٦٩١ م) لتشييد مسجد الصخـرة أو قبـة الصخـرة ، ثم تتالت المنشآت الدينيـة والتعديلات والاصلاحات مع توالي الخلفـاء والحكام ، حتى أصبحت مساحة الحرم الشريف ١٤١ دونماً ، وصار له عشرة أبواب مفتوحة ، وأربعة مغلقة وفي ساحته عدة سبل ، وفيه ثمانية آبار في صحن قبـة

الصخرة ، وسبع عشرة بئراً في فناء الحرم الشريف ، وفي وسط هـذا الفناء حوض يسمى (الكأس) يتجمع الناس حوله للوضوء ، وللحرم أربعة مآذن عالية ، وفيه أروقة تقع في الجهتين الغربية والشمالية ، وفيه مكتبة ، ومتحف اسلامي •

ويعتبر الحرم الشريف عند عامـة المسلمين ، مكان الدينونة يوم القيامة حيث ينفخ في الصور ويأتي الناس أفواجاً للحساب • ويجري الاعتقاد على أن الأقواس القائمة في أطراف الحرم ، والتي يطلق عليها اسم الموازين مخصصة لتعليق موازين الحساب • كما أن قبة السلسلة مخصصة للكشف عن أعمال الناس الخيرة والشريرة ، وعندما يلمس التائبون السلسلة المعلقة فيها ، قد يقرع جرس معلناً براءة التائب •

الصخرة المشرفة

على هذا الجبل الذي أصبح يسمى بالحرم الشريف صخرة ضخمة طولهـا سبعة عشر متراً وسبعون سنتيماً وعرضهـا ثلاثة عشر متراً وخمسين سنتيماً وارتفاعهـا مترين ، وهي من الحجر الصلد غـير المشذب ، جرداء قاتمة اللون ، ولهذه الصخرة قدسيتها التي ترجع الى حدثين ، الأول أن ابراهيم الخليل قد هم بذبح ولده ، وذلك قرباناً لله ، فافتداه الله بكبش • وكان ذلك على تلك الصخـرة وفي ذلك الموقع •

والحدث الثاني هو المعراج ، فلقد عرج الرسول على براقه الى السماء منطلقاً من هذه الصخرة ، ولقد قام جبرائيل بتثبيت هـذه الصخرة التي تنبع من أسفلها أنهار الجنة الأربعة •

وثمة اعتقاد يقول أن النافخين في الصور يوم القيامة ، سيقفون على هذه الصخرة ، وأنها ستكون مقر العرش الالهي •

مسجدة قبة الصخرة

فوق هذه الصخرة المشرفة أقام المسلمون قبة رائعة ما زالت قائمة حتى الآن رغم محاولة الصهاينة واصرارهم على حرقها وهدمها •

يرجع بناء مسجد قبة الصخرة الى عهد الخليفة الأموي عبد الملك ابن مروان ، وكان ذلك بناء على مشورة أهل الرأي من المسلمين • وقد عهد بهذا الأمر الى معماريين مبدعين هما : رجاء بن حياة بن جود الكندي ، وأصله من بيسان ويكنى بأبي المقداد توفي عام ٧٢٠ م •

ولقد نقش اسم عبد الملك بن مروان على افريز أقواس المضلع في الناحية الجنوبية الشرقية من الداخل وبالخط الكوفي المذهب ، وعلى خلفيه لازوردية من الفسيفساء ، ضمن الجملة التالية : « بنى هـذه القبة عبد الله عبد الملك بن مروان ، أمـير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين ، تقبل الله منه ورضي عنه آمين » •

ولقد شرع العمال في البناء سنة ٦٦ هـ • ٦٨٥ م وفرغوا منه سنة ٧٢ هـ ٦٩١ م • وقد بنوا أول الأمر قبـة السلسلة الكائنة شرقي الصخرة لتكون نموذجاً ، ثم بنوا المسجد نفسه •

يقوم المسجد على مخطط ثماني طول كل ضلع من المثمن ٢٠٫٩٥ متراً • ويحيط هذا المضلع مضلعاً داخليـاً طول ضلعه ١٤٫٤٥ متراً يحيط بدوره أعمدة تقع حول الصخرة وترفع القبة •

ولكي نستطيع وصف المسجد لا بد من تقسيمه على الوجه التالي :

١ ــ القبة ٢ ــ البناء ٣ ــ الأبواب ٤ ــ الكسوة •

١ ــ القبة

تغطي الصخرة المشرفة قبة عالية متطاولة ، يبلغ قطرها ٤٤ر٢٠/٢ متراً ،ويبلغ ارتفاعها ٥ر٣١ متراً وهي مؤلفة من طبقتين خشبيتين طبقة عليا مكسوة بصفائح من الرصاص ، وألصق عليها ١٠٢٠٠ لوحة من النحاس المذهب • وطبقة داخلية وبينهما فراغ متسع فيه طبقة من اللباد للتخفيف من شدة حرارة الصيف •

ولقد زينت القبة من الداخل بالخشب المنقوش والملون ، بزخرفات أموية صرفة ، وبكتابات جميلة قرآنية بالخط النسخي ، ممتدة حول دائرة مركزية ، تتضمن آية الكرسي من سورة البقرة •

وترتفع القبة على رواق من الأعمدة مؤلف من اثنى عشر عموداً من الرخام ، بين كل ثلاثة أعمدة ركيزة مستطيلة (كتف) طول ضلعها الكبير ثلاثة أمتار ، وهي مكسوة بالرخام الأبيض المعرق •

ويعلو الرواق رقبة القبة ، وينفتح فيها ستة عشر نافذة من الزجاج المذهب تنفذ منها أشعة الشمس ، وفي كل منها شمسية جصية جميلة • وتعلو الرقبة كتابات جميلة من سورة طه كتبت بماء الذهب وبالخط النسخي أيضاً •

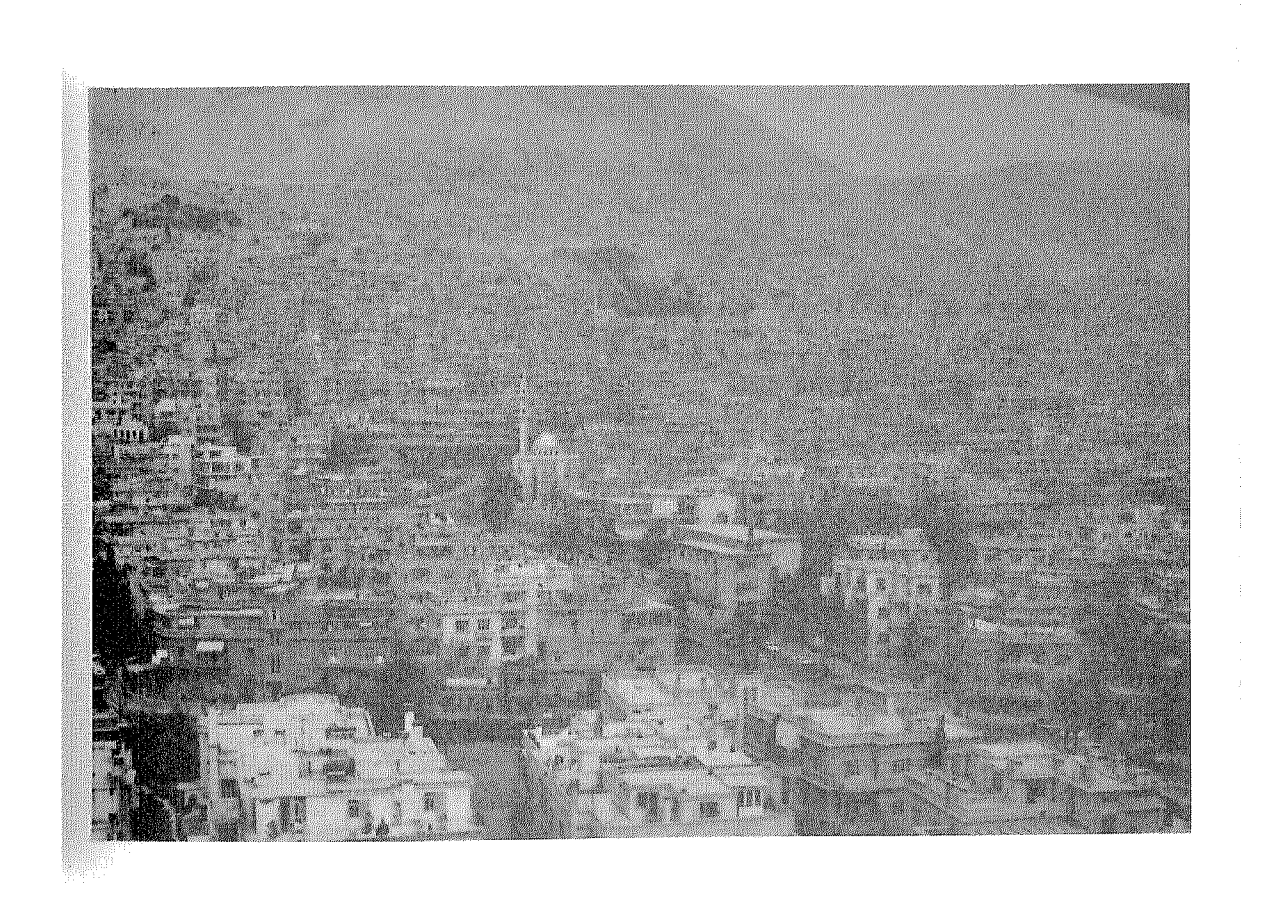
٢ ـ البنـاء

البناء كما أوضحنا ثماني الشكل مكون من مضلعين ، المضلع الخارجي وهـو يؤلف من الجدران الخارجيـة للمسجد • والمضلع الداخلي وهو مؤلف من أعمدة وركائز تحمل سقف البناء المثمن •

ويبلغ ارتفاع المضلع الخارجي تسعة أمتار ونصف المتر ، عـدا ارتفاع التصوينة العليا الذي يبلغ مترين وستين سنتيماً • وفي كل ضلع سبع نوافذ مفتوحة ، عدا الجانبيتين فهما مسدودتان ، والأضلاع التي فيها أبواب تحوي أربع نوافذ فقط ، نافذتان عن يمين الباب ، وأخريتان عن يساره ينفذ منهما النور •

واذا أحصينا عدد النوافذ في جدران المسجد ، لبلغ عددها ستة وخمسين نافذة ، أربعون منها منفتحة والباقي مسدودة ، وفوق كل نافذة من هذه النوافذ الستة والخمسين ، آية قرآنية •

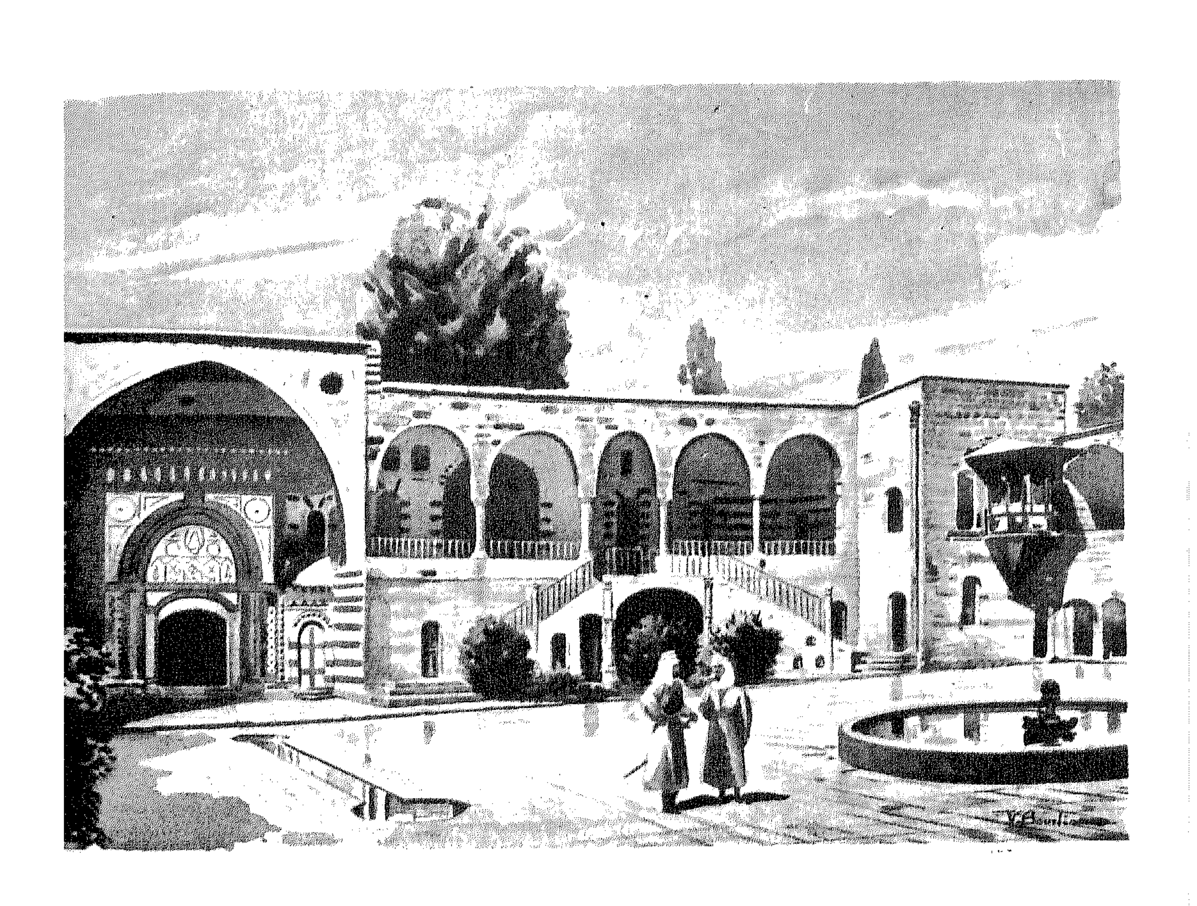
ويرتكز سقف البناء ، على المضلع الداخلي الذي يقع بين الجدران الخارجية والأعمدة حاملة القبة ، وهي مكونة من أقواس محمولة على ستة عشر عموداً مختلفة الألوان ، بين كل عمودين اسطوانة مكسوة بالرخام • وفوق الأقواس افريز كتب عليـه بالخط الكوفي سورة النساء •



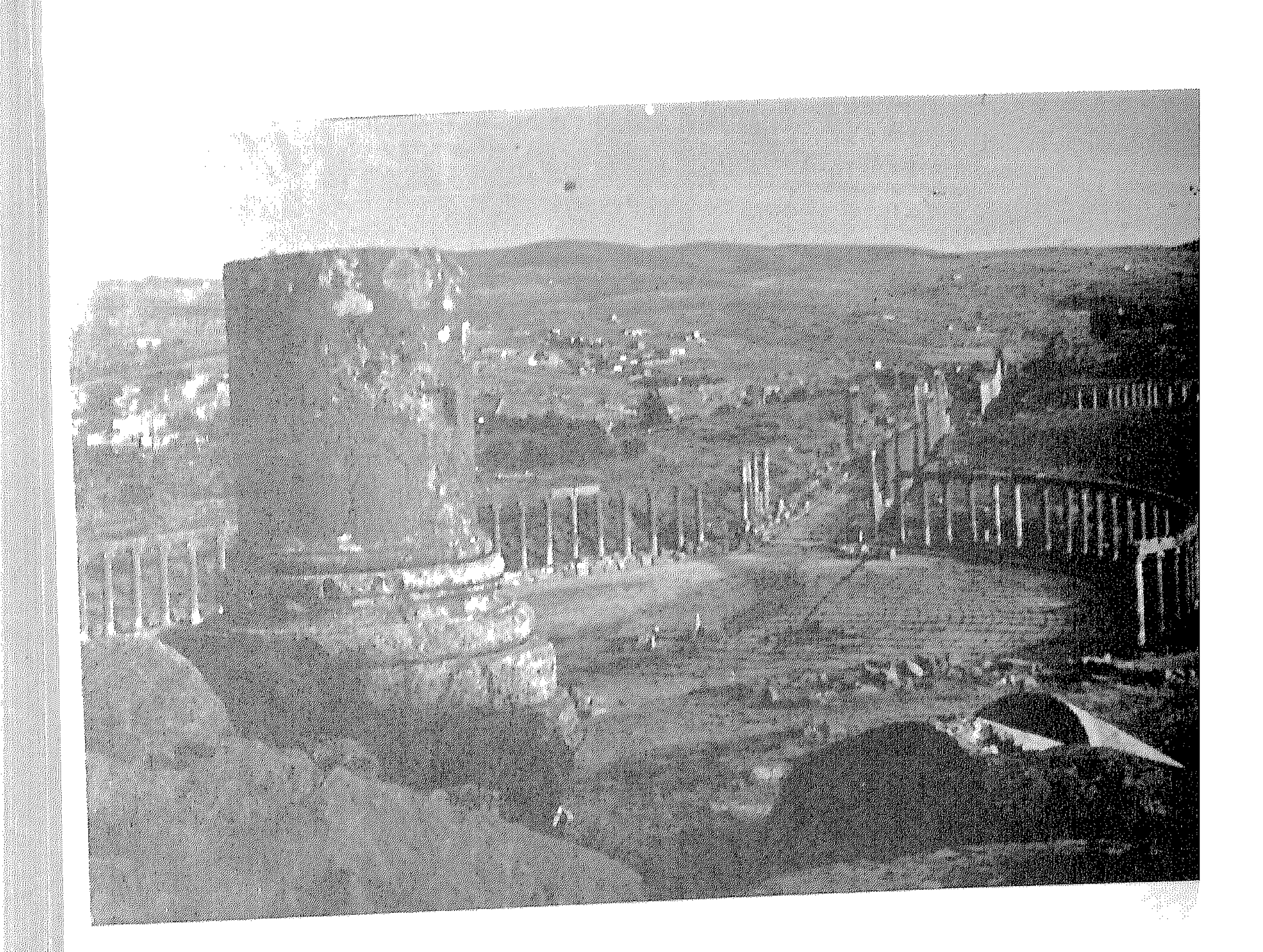
دمشق الحديثة ـ مشهد عام



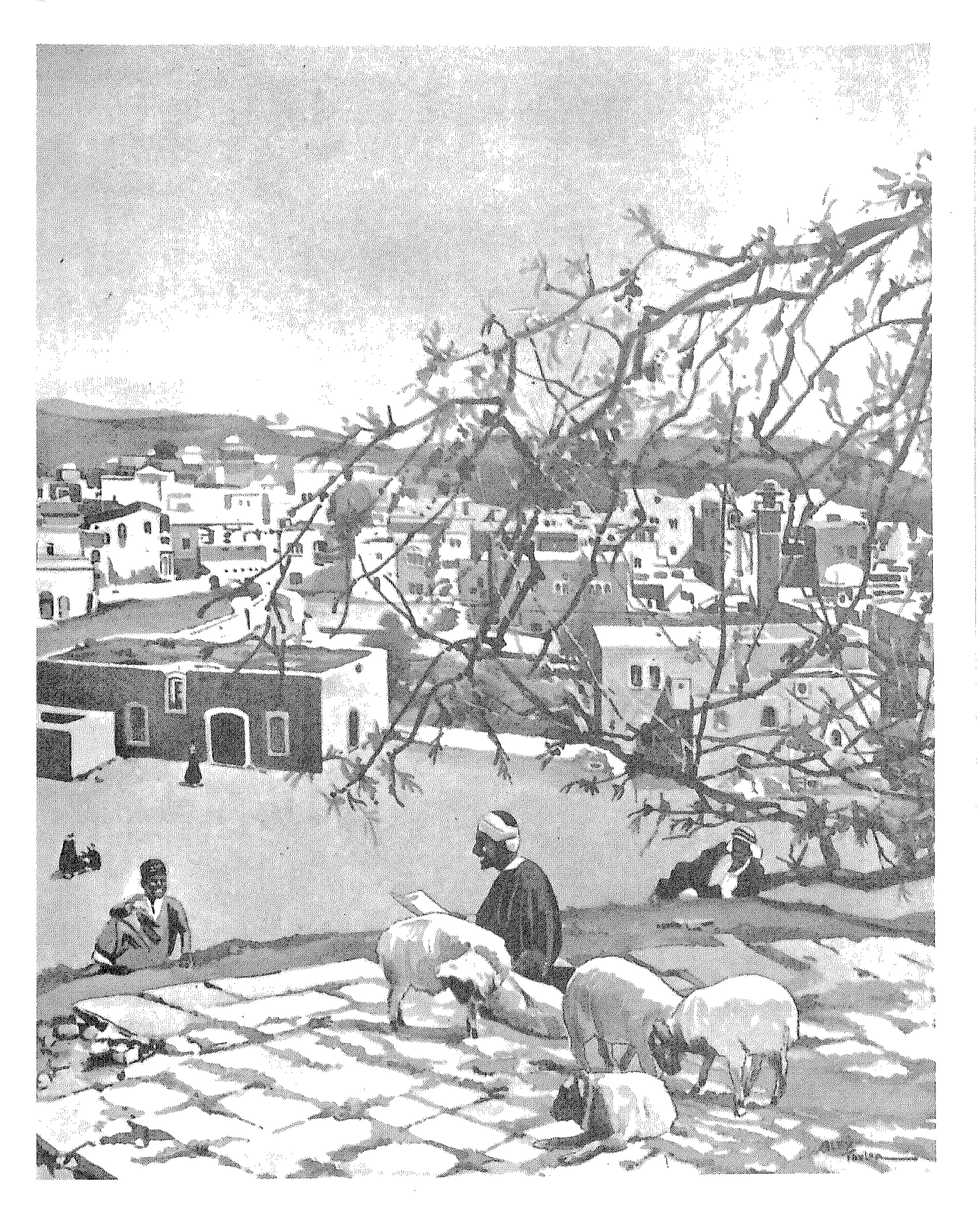
مدينة عمان ــ مشهد عام



بيت الدين ـ قصر الامير بشير الشهابي ـ لبنان



مدينة الخليل في فلسطين



مدينة الخليل منظر عام

ويعتبر الرواقان الكائنان بين المضلعين ، حرمين للصلاة ، ويقوم في الناحية القبلية المحراب وتقابله دكة المؤذن التي تقوم على عشرة أعمدة من الرخام .

٣ ـ الابواب

في مسجد الصخرة أربعة أبواب رئيسية ، وهي مزدوجة مصنوعة من الخشب المكسو بصفائح من الرصاص ، وهذه الأبواب هي التالية :

١ ـ الباب الشرقي ، ويقع في اتجاه قبة السلسلة ، ويسمى باب داوود .

٢ ـ الباب الغربي ، ويقابل باب القطانين .

٣ ـ الباب الشمالي واسمه باب الجنة .

٤ ـ الباب الجنوبي القبلي ، ويقابل المسجد الأقصى .

ولقد سعى البناؤون الى تمكين الداخل من أي باب ، أن يرى جميع ما في المسجد من أعمدة وأقواس ، وذلك بايجاد انحناء بسيط في دائرة دعامات القبة ، يبلغ درجتين ونصف الدرجة حسب تقدير العالم ريشموند ، أو ثلاث درجات حسب قياس العالم كريزويل ، ولولا هذا الانحناء ، لحجبت الأعمدة الأخرى المقابلة لها في الطرف الآخر .

٤ ـ الكسوة

يعتبر مسجد قبة الصخرة من أجمل الأوابد الشهيرة في التاريخ ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد جعله العلامة هاينر لويس « من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه الأرض ، وأجمل الآثار التي خلدها التاريخ » .

ويعود جماله لتناسق أبعاده المعمارية ، ولكسوته الرائعة . فلقد كسيت جدرانه الخارجية بالرخام الرمادي المعرق كما كسيت في قسمها العلوي بالقاشاني والخزف المزين بالرقش الأبيض على خلفية زرقاء . أما في الداخل فلقد كسيت الجدران بأبهى وأثمن أنواع الرخام الملون الذي استحضر من كارارا في ايطاليا .

ومن المؤسف أن الفسيفساء الخارجي قد زال مع الأحداث خلال ذلك التاريخ الطويل ، ولم يبق الا بعض الفسيفساء في الداخل ، قامت بدراسته الاستاذة برشم والعلامة دولوري .

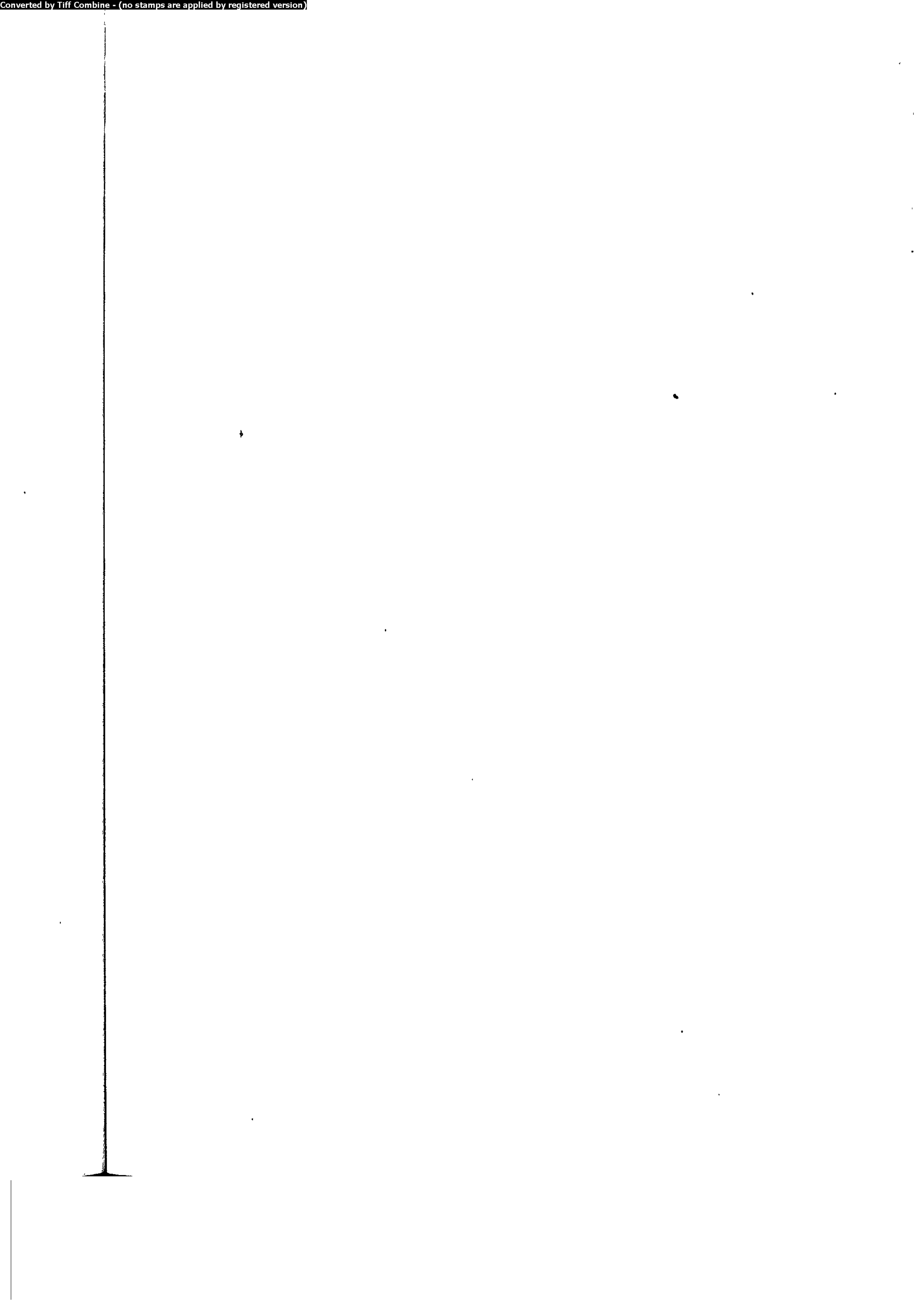
لقد قام المعماريون ، قبل انشاء المسجد نفسه ، باقامة قبة صغيرة ما زالت تقع شرقي المسجد ، ويطلق عليها اسم قبة السلسلة . وكان الغرض من اقامتها ، أن تكون أساساً لنسب ومخطط البناء الكبير ، ثم استعملت فيما بعد لحفظ الأموال .

المسجد الاقصى

يقع المسجد الأقصى في جنوبي مسجد قبة الصخرة ، في الحرم الشريف ولقد أقام المسجد في البداية ، عبد الملك بن مروان ، ثم أتمه ابنه الوليد عام ٧٠٨ م الا أنه لم يبق من المسجد هذا أي أثر ، ولكن

العلماء الأثريين استطاعوا أن يتبينوا معالم مخطط هذا المسجد ، فلقد كان يحوي مائتين وثمانين عموداً مرتبة على أربعة صفوف ، ويبدو أن بناة جامع قرطبة الذي ابتدىء بانشائه عام ٧٨٦ ، قد أخذوا عنه ٠

يتقدم المسجد صيوان كبير ذو سبعة عقود ذات أقواس منكسرة قليلا" تتقدم سبعة أبواب ، الباب الأوسط هو الباب الرئيسي الكبير ٠ وعلى امتداد هذه الأبواب ، تقوم أجنحة محاطة بالأعمدة تحمل ثلاثة صفوف من الأقواس في الجناح المتوسط الذي ينتهي بمربع تغطيه قبة ٠ وتنفتح في الجهـة الشمالية خمسة عشر نافذة ، ومن الجهـة الجنوبية احدى عشر ٠ وفي الحرم سقيفة مزينة بأروع الفسيفساء أضيفت الى المسجد بين عامي ٨٢٦ و ٨٤٤ ٠ ويبلغ طول هذا المسجد ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً ٠



الفصل السادس

العمارة الشاميّة

بداية العمارة الإسلاميّة
في بلاد الشام

القصور الشاميّة

البيت الشامي

بداية العمارة الإسلامية
في بلاد الشام

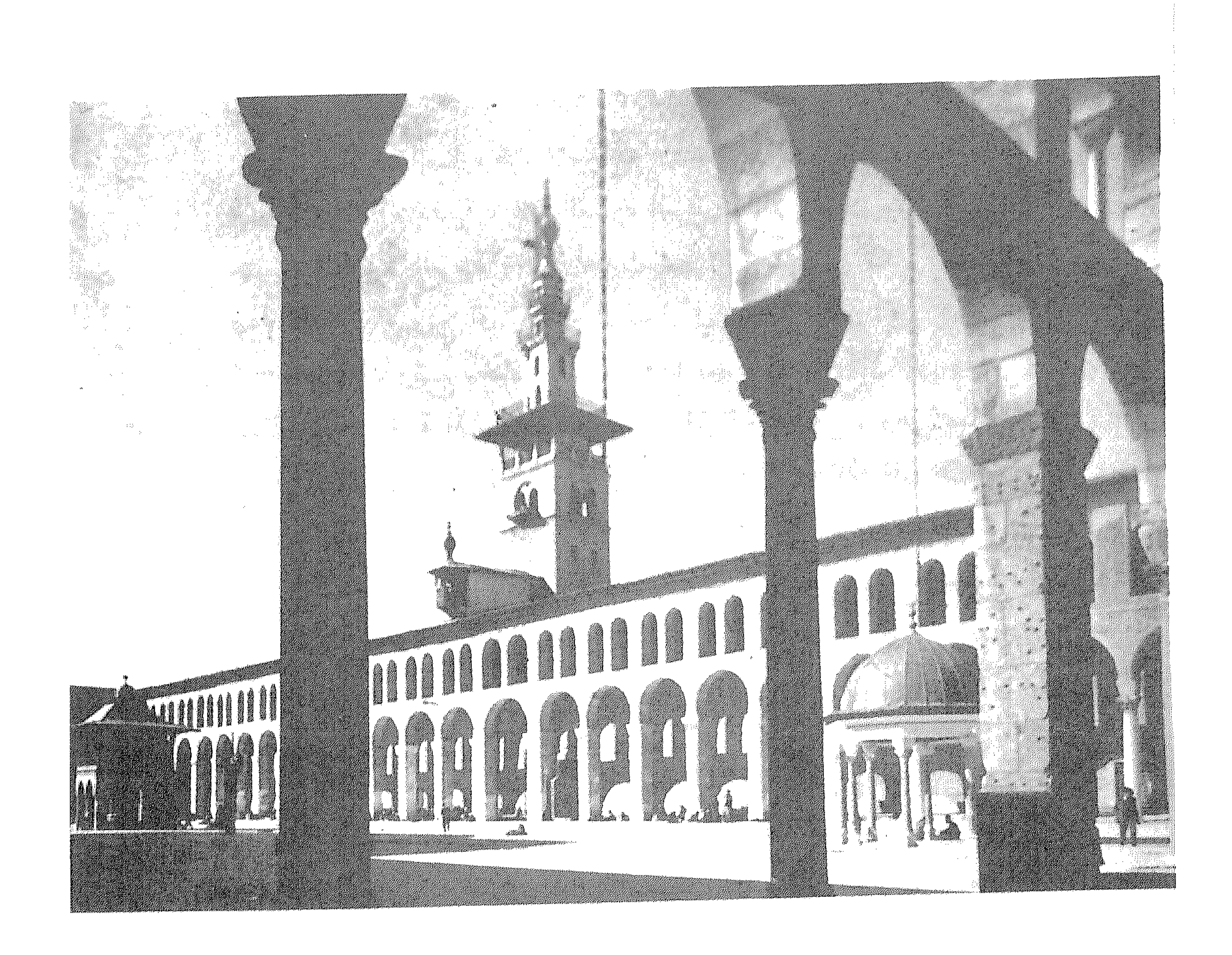
لقد تكونت العمارة الاسلامية في بلاد الشام ، وسواء أكانت هذه العمارة دينية أم مدنية ، فان العمارة العربيـــة التي كانت منتشرة في جنوبي الجزيرة العربية والتي تحدث عنها الهمداني لم تكن أساساً لهذه العمارة . ومع أن مسجد الرسول في المدينة الذي أقيم عـــام (٦٢٢ م) قد وضع مخطط المساجد فيما بعد ، الا أنه كان على وجه الدقة مجرد سقيفة أقيمت على طرف من أطراف الصحن ، وهي مبنية من الأغصان والطين مرتكزة على جذوع النخيل ، وهكذا فان هـــذا المسجد الأول لم يكن ليحمل أية صفة معمارية ، الا أنه حدد المخطط الأولي لمسجد المستقبل بأجزائه الأساسية ، وهي الصحن الواسع جداً ، والحرم ذو الأعمدة الذي يحاذي الصحن ويكون امتداداً له من جهة القبلة ، والحرم قاعة عريضة جـــداً وقليلة العمق ، اذ تحددت نسب أبعادها منطقياً مع نظام الصلاة الجماعية[1] .

وقد أضيف الى الحرم المنبر والمحراب ، أما المنبر فلقد استعمل منذ عهد الرسول ، فقد كان النبي يخطب في الجمع الى جذع في المسجد قائماً ، فقال له تميم الداري : ألا أعلّ لك منبراً كما رأيت يصنع في

---

(١) J. Sauvaget : La Mosquée Omayyade de Médine

أ



المسجد الاموي الكبير في دمشق

الشام[1] ؟ فأرسل الى أثلة في الغابة فقطعها ثم عمل منها ثلاث درجات على نحو ما عـــرف في الشام، ويرجع الى معاوية كما يقول ابن الفقيه[2] ايجاد أول محراب ، ومن المؤكد أن معاوية نفسه كان أول من أدخــل المقصورة الى المسجد[3] .

ويعتبر المسجد الكبير في دمشق « أول نجاح معماري في الاسلام » كما يقول سوفاجيه . وهو حلقـــة هامة تربط تقليد العمارة القديمة الشامية بعمارة اسلامية جديدة . ويقوم هذا المسجد في مكان مقدس من مدينة دمشق ، حيث كان معبد حدد الآرامي منذ ثلاثة آلاف سنة ، ثم أنشىء معبـــد لجوبيتر في العهـــد الروماني مؤلف من سورين متوازيين يحيطـــان الهيكل (الناوس) . وفي القـــرن الرابع أقام الامبراطـــور تيودوس كنيسة القديس يوحنـــا في الناوس المحاط بالسور الداخلي . وعندما فتح المسلمون الشام تقاسموا هذا المعبـــد مع المسيحيين الشاميين ، ثم اتفقوا على جعله مسجداً مقابل تخصيص المسيحيين لكنيسة مستقلة[4] .

وأصبح مدخـــلا المعبد الوثني وهما باب جيرون وباب البريد ، مدخلين للمسجد يؤديان الى الصحن . وتحيط بهذا الصحن أروقـــة من أطرافه الثلاثة ، ويقوم الحرم في الطرف الرابع ؛ وهو يضم ثلاثة أجنحة تمتد موازية للجدار القديم الجنوبي الذي يحـــدد القبلة ،

---

(١) ابن سعد ج ١ قسم ٢ ص ٩ — ١٠ .

(٢) ان الفقيه ، ص ١٠٩ .

(٣) اليعقوبي ج ٢ ص ٥٧١ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٥٩١ .

وينقطع ترتيب هذه الأجنحة العرضانية بجناح أوسط ممتد نحو العمق مشكلاً مصلبة تعلوها قبة عالية يطلق عليها اسم قبة النسر • ولقد أشرف الوليد بن عبد الملك عام (٧٠٥ م) على بناء هذا المسجد وتزيينه بالفسيفساء والرخام •

ولقد أقيم في الجامع أربعة مآذن في الاركان الأربعة تم منها اثنتان في طرفي الجدار القبلي وهما برجان مربعان يحملان الشكل التقليدي الشامي ، ثم أنشيء على شكلهما مئذنة أقيمت في منتصف الواجهة الشمالية ، التي تحد الصحن • وتحدد بذلك شكل المآذن الأولى في المشرق ، ثم في المغرب كما يقول مارسيه •

ولقد أصبح مسجد دمشق الكبير نموذجاً لأكثر المساجد ، كمسجد آمد (ديار بكر) ومسجد درعا[١] والمسجد الكبير في مدينة حلب ، بشكله القديم الذي كان عليه أيام الوليد الأول ، بالاضافة الى مسجد حران الذي يرجع الى عهد الخليفة الأموي مروان الثاني (٧٤٤ — ٧٥٠) والذي جعل من حران مقراً له دون دمشق •

وفي المدينة المنورة وسّع الوليد الأول عام (٧٠٨) مسجد الرسول ، ولقد قام المعماريون والمزخرفون الشاميون بهذا العمل الذي كان دون شك موافقاً لطراز المساجد الشامية كما يعتقد سوفاجيه[٢] •

ولقد أنشأ سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة في فلسطين[٣] وأقام

(١) وينسبه ايكوشار وسوفاجيه الى العهد الاموي ، انظر : نفس المرجع المذكور
J. Sauvaget :

(٢) نفس المرجع •

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٤٢ •



جامع حلب الكبير ـ واجهة الحرم

فيها قصره الذي تهدم نهائياً خلال الحرب العالمية الأولى . وأقام مسجداً (٧١٧ — ٧٢٠ م) أطلق عليه اسم المسجد الأبيض ، وما زالت مئذنته قائمة حتى الآن ، أعاد بناءها المماليك .

وتعتبر مئذنة الرملة من أضخم الأبراج الشرقية ، ولا يعد لها الا مئذنة الجيرالدا في اشبيلية . ومن أهم المساجد التي أقامها الأمويون خارج بلاد الشام ، مسجد القيروان الذي أنشيء أولاً في عهد هشام (٧٢٨ م) ، أما مئذنته فهي صومعة قامت في منتصف القرن الثامن على أنقاض مئذنة قديمة كانت كما يبدو مطابقة لأبراج المسجد الكبير في دمشق ، وهذه الصومعة لا تخرج عن مفهوم الأبراج السورية الا في ضخامتها التي تعدل مئذنة الرملة ومئذنة اشبيلية .

ولقد استند في تخطيط المسجد الكبير في قرطبة الذي أنشيء في عهد عبد الرحمن الداخل ثم وسع عدة مرات ومسجد سيدي عقبة في القيروان (٧٢٨ م) ، ثم جدد في عهد الأغالبة (٨٣٦ م) الى تخطيط المسجد الكبير في دمشق . كذلك كان الأمر في تخطيط جامع الزيتونة في تونس الذي أنشيء عام (٧٣٢ م) .

وكانت هندسة المساجد قد انتقلت الى الأندلس مع الفاتحين من أهل الشام وغيرهم ، وأخذت هـذه المساجد كثيراً من الأفكار التي كانت سائدة في جامع دمشق ، بل ان المحراب في مساجد المغرب وغيرها من المساجد في الأندلس ، بقي متجهاً نحو الجنوب كما هو شأن محاريب المساجد في الشام ، وذلك تقليداً لنظام هذه المساجد ، مع أن القبلة كانت تتجه نحو الجنوب الشرقي في تلك البلاد . وليس من

شك من أن المسجد الكبير في قرطبة الذي يشكل النواة الأولى لنشأة المدينة ، هو من أبرز الأوابد الاسلامية التي أقامها العرب من أهل الشام وغيرهم في الأندلس . ولعل هـذا المسجد الذي يضاهي مسـجد دمشق ، كان كنيسة مثله ، ثم استطاع عبد الرحمن الداخل ، وقـد حصل على تنازل المسيحيين عن كنيستهم ، كما فعل الوليد في دمشق ، أن يقيم منشأته عام (٧٨٥ م) التي اعتبرت أساساً لتوسعات كثيرة على امتداد هـذا المسجد ، كما أصبحت أساساً للعمارة الاسلامية الجديدة في الغرب[1] . ولقد كان مسجد قرطبة يضم حسب النسق الشامي حرماً مسبوقاً بصحن ، والحرم مؤلف من تسعة أجنحة مغطاة بجملونات ومتجهة نحو العمق ، على خلاف جامع دمشق الذي اتجهت أجنحته الثلاثة عرضاً ، ولقد كانت الأقواس تستند على أعمدة مستعارة من أبنية قديمة في المسجدين ، وكانت هذه الأقواس على طابقين ولا يقوم أي جدار بين صفي الأقواس مما جعل هذا النظام تطويراً لنظام الأقواس في جامع دمشق ، والتي كانت تطبيقاً لنظام أقواس قناطر الماء الرومانية على ما يبدو .

وعندما وسّع خلفاء عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة ، كان هم الحكم الثاني أن يجمّل محراب هذا المسجد في عام (٩٦١ م) بأروع الزخرفات الفسيفسائية تقليداً لمسجد دمشق .

ويمكن اعتبار قبة الصخرة التي ابتدأ بناءها الخليفة عبد الملك عام (٦٨٧) وانتهت عام (٦٩١) من أولى المنشآت الاسلامية في بلاد

---

(١) م. غ. مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ١٦ وما بعدها .

الشام ، وهي لهذا السبب تحمل الى حد بعيد طراز وشكل العمارة التي كانت سائدة في سورية •

ولقد أوضح كرزويل مصدر عمارة قبة الصخرة في القدس ، وقارن بين مخطط هذه القبة الثماني وبين مخطط كاتدرائية بصرى الشام والتي كان بتلر Butler قد قام بدراستها مؤكداً مخططها الثماني ونافياً الرأي بمخططها الدائري[1] •

وقبة الصخرة كما يذكر اليعقوبي ، أنشأها عبد الملك بن مروان للاستعاضة عن الكعبة بسبب ثورة ابن الزبير في الحجاز عام ٦٨٠ م ، وهكذا لم تكن مسجداً بالمعنى المألوف ، بل قبة كما نقش على افريزها ، واستعملت للصلاة ولكن دون أن يكون لها مئذنة[2] •

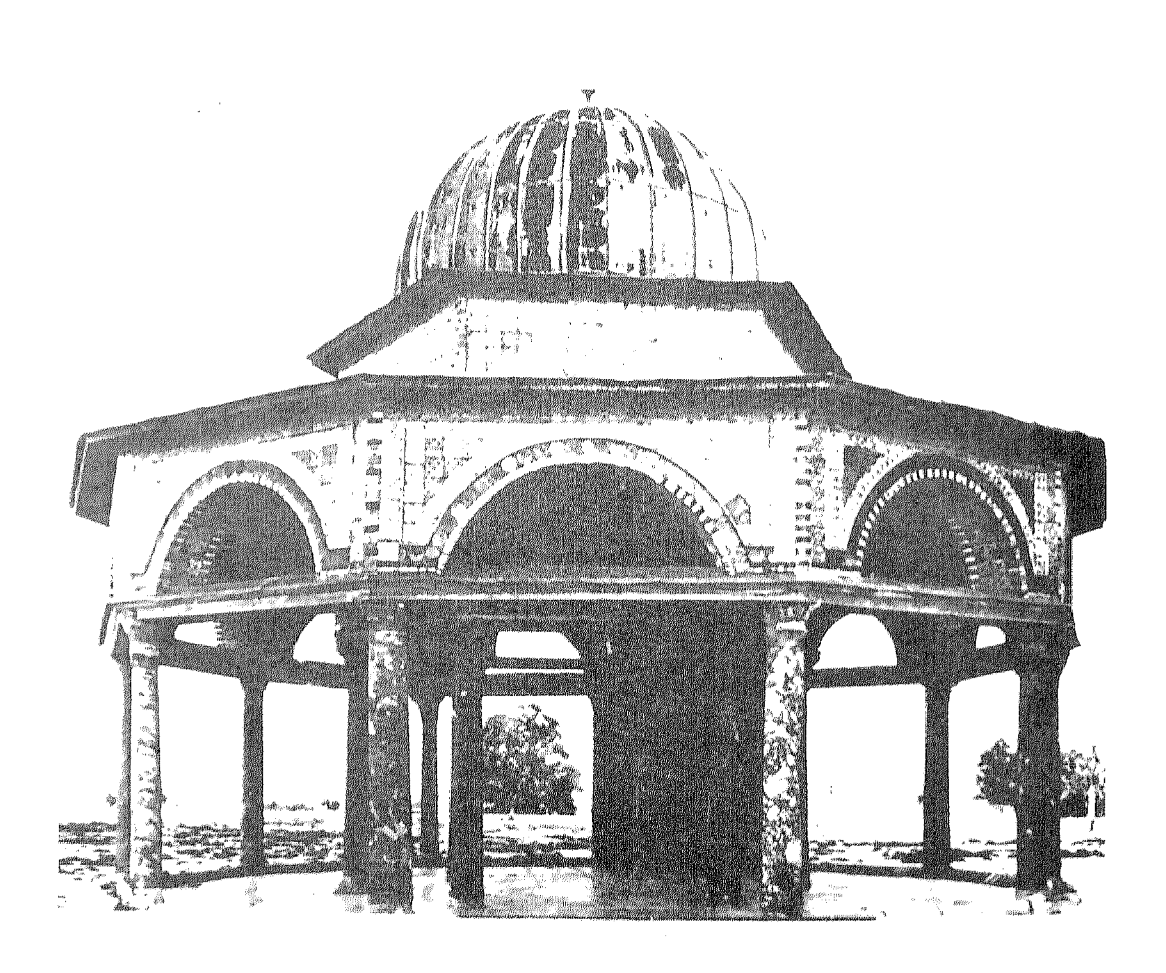
ان تغطية المنشآت الاسلامية بالقباب واقامة المساند على أقواس أو عقود هو تقليد محلي قديم يرجع الى عهد الرافدين الذين كانوا أول من ابتكر هذا النوع من التغطية ، والذي اقتضاه عدم توفر الحجارة الضخمة وضرورة ارتفاع السقوف والأروقة لتخفيف وطأة الجو الحار • وما زالت البيوت القروية في شمالي سورية مغطاة بقباب بنفس الطريقة التي كان الأوائل يتبعونها •

ولقد برع أهل الشام باقامة الأقواس والقباب في العهود الكلاسية ، وكان منهم مختصون تولوا نقل هذه الطريقة في التغطية الى الأبنية

---

(١) انظر :
K. A. C. Creswell : E. M. A. P. 72

(٢) انظر كتابنا الفن العربي الاسلامي في بداية تكونه ـ دمشق ١٩٧٣ •



قبة السلة



الاقواس والقبوات في اسواق دمشق (خان الجمرك)

الرومانية ، حتى أن قبة البانثيون في مدينة روما أشرف على اعادة انشائها في القرن الثاني معمار شامي مختص بالقباب ، واستمر هذا التقليد سارياً في الأبنية البيزنطية ، ثم تبنته المنشآت الاسلامية وخاصة في بناء المساجد والأضرحة والمدارس • وتعتبر قبة الصخرة (٦٩١ م) من أقدم نماذج القباب الاسلامية ، الى جانب قبة النسر في الجامع الأموي (٧١٥) وقبة حمام قصير عمرة التي ترجع الى عام (٧١٤) تقريباً • والشيء الجديد في تطور القباب التي انتقلت عن التقليد الرافدي ، هو طريقة وصل القبة بالجدران المربعة ، ولقد تم ذلك عن طريق مقعرات مثلثية أو عن طريق الأركان •

والشكل المعماري للمساكن والقصور التي ظهرت في بداية الاسلام هو تطبيق للتقليد المعماري المحلي الذي اقتضته ولا شك تقاليد الحياة الاجتماعية المحافظة والمغلقة ، والظروف المناخية القاسية أحياناً ، ولقد كان نظام العمارة المدنية مستمراً في بلاد الشام حتى في العهود الكلاسية حيث نراه واضحاً في تقسيم المنازل الرومانية الى قسمين رئيسيين ، الاتريوم Atrium وفيه ممر وفناء حول غرف المكتب والاستقبال ، والقسم الثاني بيريستيليوم Peristylium وفيه غرف النوم والطعام والغرف الخاصة • وتحيط الغرف فناء لترطيب الجو •

ان أكثر المساكن الأثرية في بلاد الشام يرجع في الواقع الى العهد العثماني ، ونادراً ما نجد بيتاً يرجع الى قبل هذا التاريخ الا اذا استثنينا بعضاً منها كالمدرسة الظاهرية التي كانت بيتاً لوالد الملك الظاهر في دمشق •

ومع ذلك فان نظام عمارة القصور والبيوت السكنية في بلاد الشام استمر مشابهاً لنظام عمارة القصور منذ العهد الأموي ، ويتضح ذلك بمقارنة ما كشفت عنه الدراسات والحفريات في قصور الأمويين في الشام ، مع ما نراه ماثلاً حتى الآن في الشام ومن بيوت مأخوذة في طرازها ونظام عمارتها عن تقاليد من عمارة المنازل الشامية الأموية ، مع ما أضيف اليها من زيادات ، أصبحت أساسية في نظام العمارة الشامية .

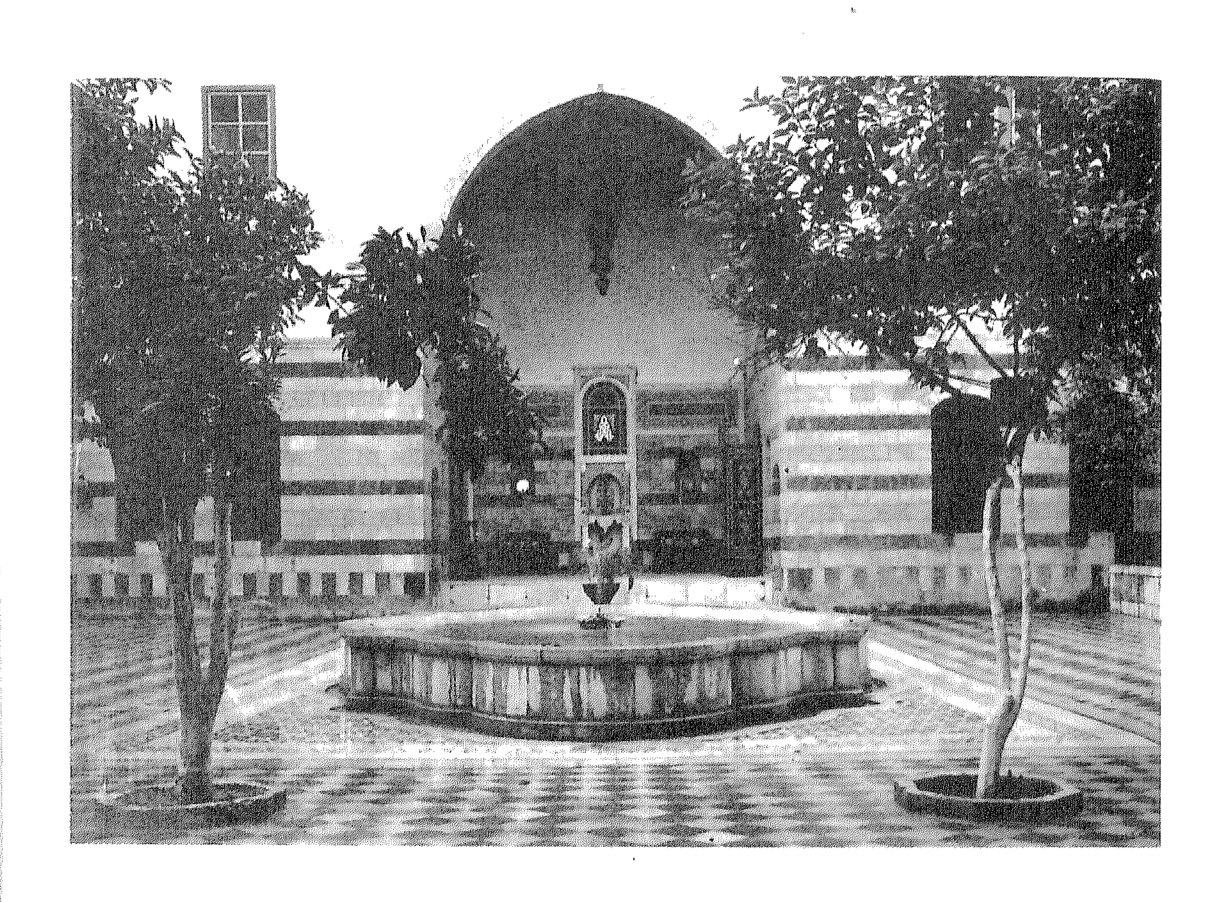
وأصبحت هذه البيوت تتألف من أقسام تقليدية لا بد أن توجد في أكثرها ، وهي الدهليز الطويل ، والباحة السماوية والايوان ، والقاعات الشتوية في الجهة الشمالية من الباحة ، وذلك لتكون معرضة لأشعة الشمس ، والقاعات الصيفية ذات الفسقيات المائية وهي تقع في الجهة الجنوبية ذات سقوف عالية لتخفيف الحر وتأمين الجو الرطب . ويقسم البيت الشامي الى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ ـ القسم الخارجي ، وفيه مركز الحارس والسائس ويلحق بهذا القسم الاسطبل .

٢ ـ القسم الأوسط ، وهو القسم الرئيسي في المسكن ويتضمن القاعات الهامة المعدة للاستقبال والجلوس .

٣ ـ القسم الثالث ، وهو الخاص بالحريم والحياة الداخلية .

أما بناء الحمامات في العهد الاسلامي ، فلقد بقي استمراراً لتقاليد فن عمارة الحمامات في الشام ، والذي كان سائداً منذ بداية العصر



البيت الشامي من الداخل

الهلنستي ، ثم ازدهر في العصر الروماني حيث نرى آثاره في انطاكية مثل حمامات كاليغولا وهادريان واطوفان ، وفي حمامات أفاميا وتدمر وفي بصرى وشهبا ... وتتألف هذه الحمامات عادة من ثلاثة أقسام ، القسم البارد Frigidarium والقسم المعتدل Tepidarium والقسم الحار caldarium ويقابل هذا التقسيم في الحمامات الاسلامية البراني ، وهو القسم البارد ، والوسطاني ويقابل القسم المعتدل ، والجواني وهو القسم الحار . أما القميم أي بيت النار فهو نفسه المسمى Hypocauste الذي يسخن مياه الحمام المنتشرة بواسطة أنابيب فخارية أو حجرية بين أجزاء الحمام .

ان أقدم حمام اسلامي أنشىء في بلاد الشام هو حمام قصير عمرة الذي ما يزال قائماً حتى الآن دون بقية القصر قرب البحر الميت وعلى بعد خمسين ميلاً من عمان ، وكان موزيل Musil قد اكتشفه عام ١٨٩٨ . وهو مؤلف من قاعة ذات ثلاثة أجنحة تنتهي بقاعة تحاذيها على الجانبين مقصورتان ذات قادمتين واضحتين من الخارج ، وتنفتح القاعة الى اليسار (أي من الشرق) على غرفتين ، أما الجنوبية فهي مغطاة بقبوة مهدية والثانية مغطاة بقبوة متقاطعة . وتنفتح هذه القاعة من الشرق أيضاً على قاعة ثالثة ذات قبة ولها مقصورتان ، وتتصل هذه القاعة بدهليز الى قاعة كبيرة يبدو أنها لم تكن قد اكتملت بعد .

ويشكل هذا الحمام حلقة مستقلة من نشوء الحمامات الشامية ، ذلك أن التقسيم الروماني يكاد يكون مطابقاً في هذا الحمام ، فهو مؤلف من قاعة واسعة لخلع الملابس وثلاث قاعات للاستحمام ، الباردة

والدافئة والحارة وهذه القاعة مجهزة بأنابيب البخار • الا أن ثمة شخصية جديدة محلية لبناء الحمامات تأخذ مكانها بالظهور مستمدة في مظهرها الخارجي من النظام الرافدي الأصيل •

ويشبه حمامات قصير عمرة الى حد كبير حمام آخر يسمى حمام الصرح ويقع على بعد (٢٠) كيلو متراً شمالي عمان ، وكان قد كشفه بتلر Butler عام ١٩٠٥ • ومما لا شك فيه أن أكثر القصور الأموية كانت تحـوي حمامـات مماثلة ، مثـل قصر المفجـر حيث زينت أرض احدى مقاصيره بأروع الفسيفساء الذي يمثل أسداً ينقض على غزال تحت شجرة تفـاح وارفة ينعم تحتها في الطرف الثاني ، غزالان آمنـان •

وفي قصر الحمراء نموذج لحمام يرجع الى القرن الرابع عشر وهو يتألف من نفس العناصر التي رأيناها في حمامات الشام ، أي من القسم البارد والدافىء ثم القسم الحار وهو مؤلف من مقصورات ، وتغطي الحمام قباب يتسرب النور فيها من خلال فتحات صغيرة عبر القبوات ، أما قاعة الاستراحة فهي المكان المخصص لتزيينات جدارية غنية ، شأنها في ذلك شأن حمامات الشام •

ولقد انتشرت الحمامات في بلاد الشام انتشاراً واسعاً بعد الاسلام، كما كان الأمر قبل الاسلام أيضاً ، وما زالت الحمامات الاسلامية قائم أكثرها حتى اليوم ، وبعضها كان آية فن العمارة والزخرفة وأصول توزيع المياه[1] •

---

(١) للتوسع ، راجع :
J. Sauvaget : Les Monuments historiques de Damas
وانظر الغزي في نهر الذهب ج ٢ ، وانظر ابن شداد في الاعلاق الخطيرة .

أما المستشفيات والمدارس فقد كان الوليد بن عبد الملك أول ملك في العصور الوسطى شيّد المدارس والمستشفيات للمصابين بالأمراض المزمنة • ولقد كانت مآوي المصابين بالأمراض الخبيثة في أوربا بعد ذلك تقليداً سبقتها اليه البلدان الاسلامية •

على أن المدرسة كمنشأة معمارية لم تنتشر في بلاد الشام الا منذ عهد السلاجقة ، فيما كانت قد ظهرت في بغداد منذ النصف الثاني للقرن الحادي عشر ، وان كان ما بقي منها انما يرجع الى عهد السلاجقة أنفسهم وخاصة المدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك في بغداد ، التي تكاد تكون أشبه بالجامعة وتخضع لنظام معماري مختلف عما ظهر في دمشق •

ان ترتيب المدارس الشامية على اختلاف أشكاله يبقى متقارباً ، فهي مؤلفة من قاعات للتدريس وحجرات للأساتذة والطلاب ، ومن مصلى وميضأآت وقد تتضمن مدفناً مقبباً لمنشىء المدرسة ، كما تتضمن ايواناً لممارسة التدريس في الهواء الطلق أيام الصيف ، والمدرسة الصاحبة[1] التي أنشئت في دمشق بين عام ١٢٣٣ وعام ١٢٤٥ تحمل الشكل التقليدي لعمارة المدارس في بلاد الشام ، وهي مؤلفة من دهليز يقع على محور الجبهة ، يؤدي الى الصحن المربع وينفتح من الطرفين ايوانان ، كما يقوم في الصدر ايوان ذو محراب ، ويشغل الزاويتين الأماميتين المدفن من جهة ، والميضأة من جهة أخرى •

(١) ما زالت المدرسة قائمة في دمشق (حي ابي جرش) وهي من الابنية الاثرية

وما زالت آثار المدارس الشاميـــة قائمة في بلاد الشام من مختلف العهـــود[1] .

واستمرت تقاليد عمارة المدارس في بلاد الشام قائمة في عهـــد الأيوبيين . ثم في عهد المماليك ونرى في دمشق من عهد نور الدين ، المدرسة النورية بقبتها المقرنصة ، والمدرسة العادلية الكبرى التي بناها الملك العادل الأيوبي ، ومدرسة بني العجمي في حلب التي أنشئت عام ١١٩٣ م وتسمى اليوم جامع أبي ذر .

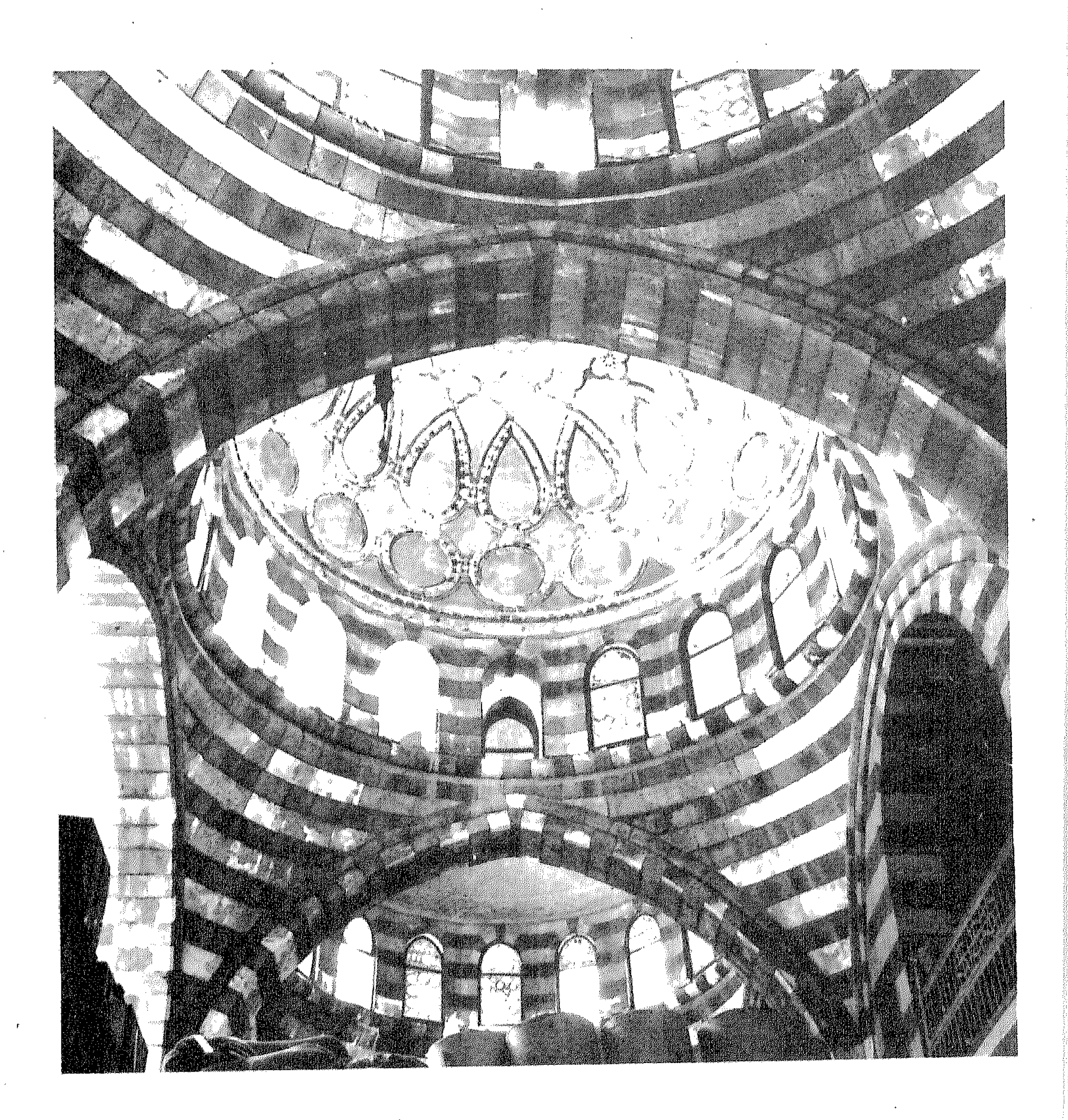
ولقد ظهر في بلاد الشام وفي العهد المملوكي ولأول مرة نظـــام المدارس المصلبة ، وذلك بانفتاح أربعة أواوين على صحن المدرسة الداخلي لتسهيل تدريس الفقه حسب المذاهب الأربعة . ولقد انتشر هذا الشكل المصلب فيما بعد في المدارس المصرية التي كانت تستعمل قبلاً مساكن خاصة كثيراً ما كانت تتحول الى مدارس .

ولعل أقدم خان أنشيء في العهد الاسلامي هو الخان الذي بناه هشام بن عبد الملك سنة ٧٢٨ م على مقربة من قصر الحير الغربي ، ولم يبق من هذا الخان الا بوابته الحجرية الضخمة التي أعيد بناؤها في متحف دمشق ، وقد نقش على ساكفها كتابة بالخط الكوفي تبين اســـم المعمار (ثابت بن أبي ثابت) وتاريخ الانشـــاء رجب ســـنة تسع ومائة[2] .

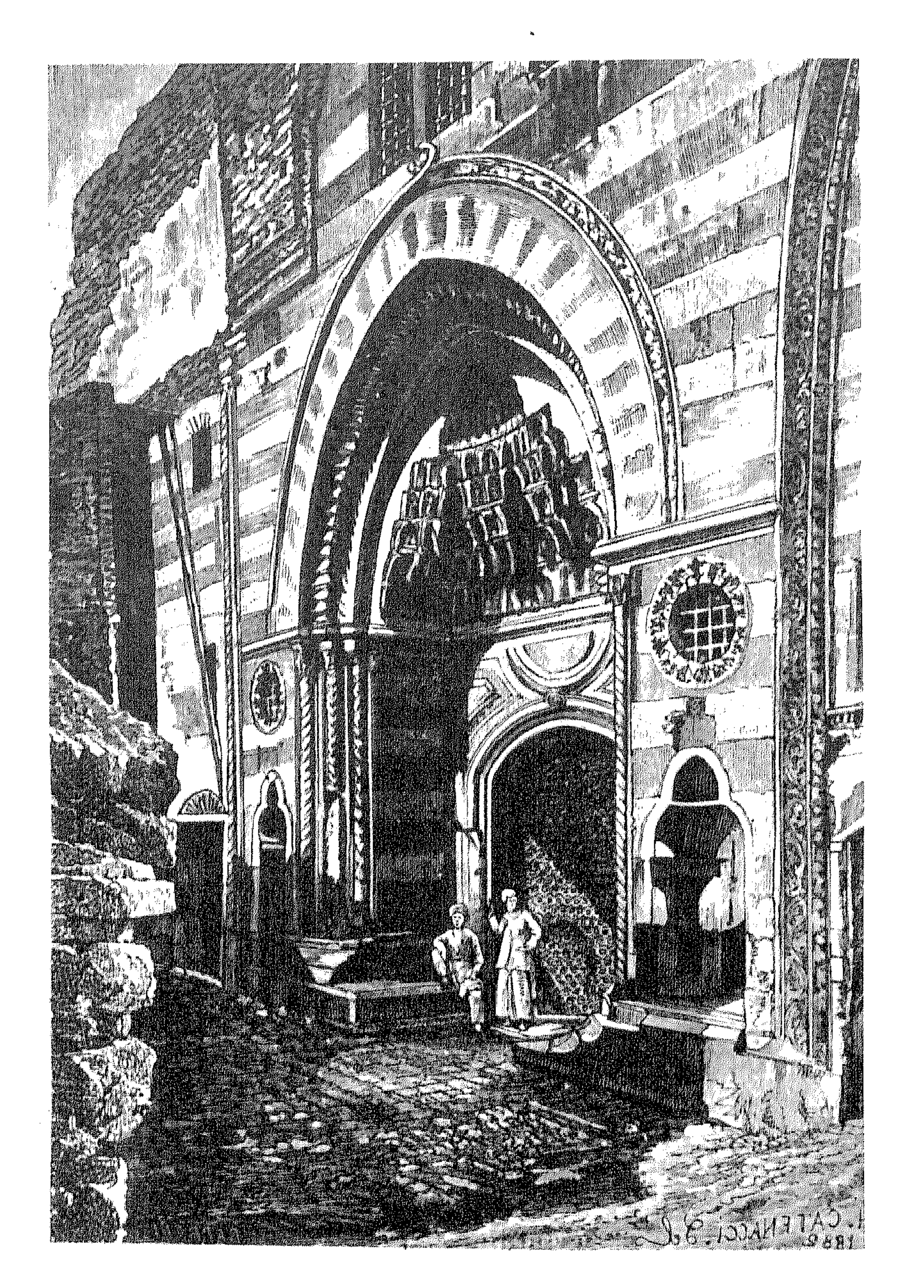
---

(١) انظر النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، وابن شداد والغزي : للتوسع في معرفة المدارس في دمشق وحلب .

(٢) ومن اهم الخانات التي ما زالت قائمة خان العروس من العهد الايوبي وخان أسعد باشا من العهد العثماني .



خانات دمشق ـ خان اسعد باشا ـ من الداخل



خانات دمشق ـ خان اسعد باشا ـ المدخل

القصور الاموية الشامية

كان عهد الوليد بن عبد الملك عهد رخاء وأمن ، وكان أكثر الخلفاء الأمويين اهتماماً باقامة المنشآت ، وكان ولعه بالبناء عظيماً بحيث كان اذا التقى الناس في المجالس بدمشق تذاكروا في أمر الأبنية والعمارات .

قصير عمرة

اكتشف عام ١٨٩٨ م العالم الواموزيل Musil قصير عمرة الذي يقع على بعد حوالي خمسين كيلو متراً الى الغرب من الرأس الشمالي للبحر الميت . وهو يتألف من حمام ومنزل يرجعان الى العصر الأموي وعلى التحديد الى عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـــ ٧١٥) سادس الخلفاء الأمويين . ويحيط بالقصر سور بطول خمسين متراً وعرض خمسة وعشرين متراً ، ويضم غرفاً ومخازن واسطبلات . وعلى مسافة قليلة من هـذا المقر الكبير بناء حمام لم يزل في حالة مقبولة[1] ، ولقد درس هذا البناء دراسة موسعة وهو يشبه الحمامات التي كانت معروفة في هذه المنطقة منذ عهد الرومان ، وهذا الحمام مؤلف من قاعة واسعة مخصصة لخلع الملابس وقريب منها مقصورتان ثم تأتي القاعة الباردة ، والقاعة الفاترة ثم القاعة الحارة وهي مجهزة بأنابيب البخار . ولقد استدل على تاريخ بناء هذا القصر من خلال صورة الملوك الستة اذ أن أحدهم وهو امبراطور بيزنطة كتب فوقه اسم قسطنطين وهو الامبراطور الذي كان يعاصر عبد الملك . وثمة صورة أخرى كتب فوقها روذريق الذي حكم لسنة واحدة وقتل في

(1) M. Almagro et autres : Qusayer 'Amra , Madrid 1975



احدى الصور الجدارية في حمام قصير عمره

احدى المعارك مع الجيوش الأموية عام ٧١١ م • ولكن الرسوم ترجع على الغالب الى عهد هشام (٧٢٤ ــ ٧٤٣) وذلك استدلالاً من كتابة عثر عليها موجهة الى أحد أفراد الأسرة الحاكمة •

وهكذا فان هذا القصر قد بدىء بعمارته عام ٧١١ واستمرت زخرفته وزياداته حتى عهد هشام[١] •

إن المواضيع التي زين بها المصور هذا الحمام تعطينا فكرة عن الهدف من بناء هذه المجموعة السكنية التي تخص الخليفة وجماعته ، فلقد حفلت الجدران برسوم ملونة تمثل مشاهد الصيد ، وبعضها يمثل الصيد وذبح الظباء دون أن يبدو بوضوح أمير الصيد ، كذلك تظهر مشاهد استحمام وتمارين رياضية ، وأوضاع مصارعة ومنازلة ، وبعض الصور لنسوة عاريات في أوضاع مختلفة أو ضمن مجموعات متجانسة • ولقد عثر على رسوم آلهة أسطورية اغريقية للفلسفة والتاريخ والشعر[٢] •

على أن أصول الرسم في قصير عمرة تعطينا دليلاً على تأثيرات كلاسية كانت قد تركت بصماتها في المنشآت التي أحدثت خلال العصر الروماني والبيزنطي في الشام ، ولكن شخصية الفنان العربي استمرت واضحة ويتجلى ذلك في عمليات التحوير والتبسيط التي بدت بصورة خاصة في رسم الهيئات البشرية ، مما ينسجم مع مفهوم الفن العربي

(١) R. Ettinghausen : La peinture arabe
انظر الترجمة العربية ص ٢٩ قام بالترجمة الاستاذان عيسى سلمان وسليم التكريتي .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠ .

الذي استمرت ملامحه واضحة في الفن التدمري وفي الفنون المسيحية.

ولذلك فانه ليس من شك اطلاقاً في هوية الفنان الذي رسم هذه الصور ، فهو عربي آرامي أو عربي مسلم من سكان البلاد ولقد صور حسب الطريقة التقليدية التي كانت سائدة[1] .

خربة المنية

تقع خربة المنية عند بحيرة الناصرة في فلسطين ، ولقد ذكر القزويني في معجمه (١٤٥ ـ ٢٢) أن منية هشام تقع عند منطقة الينابيع السبع. ولقد أطلق فيما بعد على بحيرة الناصرة اسم بحيرة المنية ، والمنية كلمة ذات أصل يوناني Moné [2] التي تفيد معنى منزل (فيلا) ويرجع هذا القصر الى عهد قبل الاسلام ولعله رمم ووسع في عهد الوليد (٧٠٥ ـ ٧١٥) فلقد عثر على لوح من المرمر كتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم . ما أمر عبد الله الوليد أمير المؤمنين ... على يدي عبد الله بن ... كما عثر على دينار مضروب عام ٩٨ هجرية .

ولقد ذكره كريزويل[3] بإيجاز . ويتألف القصر من بناء مساحته ٧٣ × ٦٧ متراً تقوم في زواياه أبراج مستديرة وله في الوسط من الناحية الشرقية باب ضخم يحيط به برجان من الجانبين ، ويمتاز هذا الباب الذي يبلغ عرضه ٥ر١٦ م بقبته المربعة التي يقوم في كل من

(١) نفس المرجع اعلاه ص ٣٣ .

(٢) انظر قائمة ما كتبه هؤلاء المنقبون وانظر ملاحظات كريزويل في كتابه ج١ . المجلد ٢) .

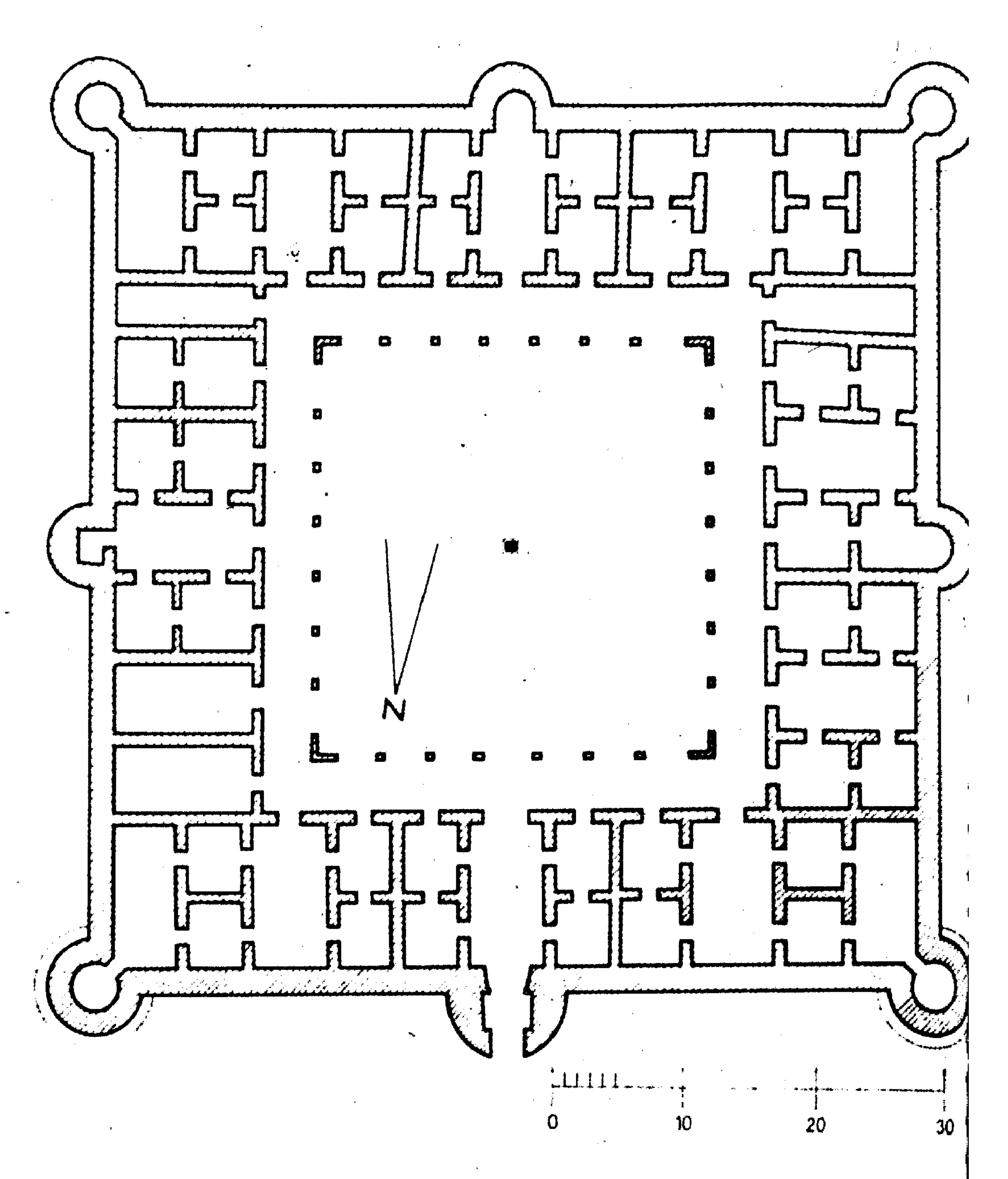
(٣) انظر قائمة ما كتبه هؤلاء المنقبون وانظر ملاحظات كريزويل في كتابه ج١ .

جانبيها نصف برج ، وكانت القبة مفتوحة من الأعلى وحولها طنف اكليلي مزخرف بغزارة والأقسام غير المنحوتة من القبة كانت مغطاة بالفسيفساء بلون أخضر وأزرق وأحمر وذهبي وفضي • وينتهي دهليز المدخل بالفناء المحاط بغرف منفتحة على بعضها ، وفي الجهة الجنوبية أقيم الجامع (١٩٫٤٢ × ١٣٫١ م) ذي المحراب المتجه نحو الجنوب • ولقد أنشيء هذا الجامع متأخراً قبيل تهديم القصر ولعله لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد •

قصر اسيس

يعتبر قصر أسيس الذي يقع في الجنوب الشرقي من دمشق وعلى مسافة ١٠٥ كم من أقدم (البوادي) قصور البادية الأموية ، وهو يضم أول جامع وحمام يعتبر أيضاً أقدم حمام اسلامي يقع خارج المدن، كذلك فان زخرفته الجصية تعتبر الأقدم في تاريخ الزخرفة الاسلامية •

وقصر أسيس مؤلف من سور محيط مربع طول ضلعه ٦٧٫٥٣ م عدا الضلع الجنوبي فهو أقصر بما يقارب المتر • ترتفع في زواياه أربعة أبراج دائرية كما تقوم في منتصف أضلاعه الثلاثة أبراج نصف دائرية ، أما الجدار الشمالي فينفتح في منتصفه المدخل الذي يحف به ربعا برجين ، وطول ضلع السور ٦٦ متراً تقريباً أي بنفس مقياس البناء الصغير في قصر الحير الشرقي • وينتهي دهليز المدخل بالصحن



مخطط قصر اسيس في بادية الشام ٢ ـ مخطط قصير عمره

الذي تحيطـه القاعـات في طابقـين اثنين وأكثرهـا أهميـة قاعات الوحدات الخمسة التي تحاذي البرج المتوسط من الجهات الثلاثة عدا الشمالية ، بل أن المدخل نفسه يشكل بدهليزه والغرف المنفتحة عليه مجموعة خماسية أخـرى • ويشابه التنظيم الداخلي لقصر أسيس التنظيم المعماري في قصر عنجر الذي بناه أيضاً الوليد الأول •

مدينة عنجر والقصر

تقع عنجر في منتصف الطريق بين دمشق وبيروت ، ولقد ذكرها ياقوت (عين الجر) •

ولقد تبين أن عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ــ ٧٠٥) كان كثيراً ما ينقل اقامته حسب اختلاف الفصول ، فلقد انتقل من الصنبرة الى الجابية والى دمشق وبعلبك ، ولقد تابع ابنه الوليد هذا التنقل ، ثم جاء الخلفاء بعده فتوسعوا بانشاء القصور في الاردن وفلسطين ، لذلك يعتقد موريس شهاب أن هذا القصر أنشىء في عهد عبد الملك أو في عهد ابنه الوليد ويؤيد ذلك ما ذكره بروك من خلال كتابات سريانية من أن الوليد بن عبد الملك بنى مدينة اسمها (عنجر) •

ويتألف موقع عنجر من سور كبير يشمل أرضاً واسعة طول ضلعه ٣٧٥ × ٣١٠ وسمك السور متران • ويدعم هذا السور ثمانية أبراج في الجهة الشمالية ومثلها في الجنوبية وعشرة أبراج في كل من الجهتين الشرقيـة والغربية وذلك عدا الابراج الدائريـة الواقعة في الزوايا الأربعة • وينفتح في منتصف كل جدار باب محاط باثنين من الأبراج ، وفي جهتي الباب الغربي عثر على كتابة كوفية منقوشة •

ويتألف القصر من قسمين متشابهين ، وهو مبني من الحجر المنحوت، وبعد ارتفاع معين توجد مداميك متناوبة من الآجر تشابه قبة الخزنة في صحن الجامـــع الكبير في دمشق ، وبعض أجزاء قصر المفجـــر . وللقصر مدخلان واحد من الشرق وآخر من الغرب ما زالت زخارفه قائمة والى جانبه حنية مزخرفة بكاملها . ويتصل البابان بالفناء برواق ذي أعمدة وأقبيـــة ينفتح على غرف مجاورة . وشبها بأكثر قصور الأمويين وخاصة قصر الحير الغربي والمفجر ، فان قسما هذا القصر ينفتحـــان على فناء محاط بأروقـــة ذات أقواس في طابقين ، وخلفهما مجموعات متداخلة من الغرف تشبه مجموعات قصر المفجر .

قصر الحرانة

من بين جميع القصور الأموية يبقى قصر الحرانة الوحيد الذي أنشىء كما يبـــدو من عمارته ، لأغراض دفاعيـــة . فهو قصر محصن أنشىء في بادية الاردن في موقع كان ولا شك موجوداً كحصن منذ عهد الرومان . وقصر الحرانة نفسه كان قد نسبه بتلر لما قبل الاسلام ولكن يمكن نسبته الى العهد الاسلامي ، ودليل ذلك الكتابة الكوفية الملونة التي عثر عليها فوق باب احدى حجرات الطابق الثاني من الجهة الغربية ، وهي تحمل تاريخ سنة ٩٢ هـ أي ٧١١ م وهو عهد الوليد الأول .

ويتألف هذا البناء الذي ما زال ماثلا بحالة جيدة من سور مربع ٣٠ م تقريباً ذي أبراج دائرية في زواياها الأربعة ، أما في منتصف أضلاعه فيوجد أبراج نصف دائرية ، ويبدو المدخل في الجهة الجنوبية وفي طرفيه برجان نصفا دائريين ، وتنفتح من خـلال ممر طويل على الصحن المحاط بغرف في طابقين ، وعلى طرفي الممر غرف ذات عقود وأقواس كانت تستعمل اسطبلات • وعلى طرفي الفناء الداخلي سلمين يؤديان الى الطابق العلوي • ويحيط بالفناء ثمانية أعمدة مربعة كانت تقوم فوقها شرفة • ويتألف مخطط الطابق السفلي من ثلاث حجرات رئيسية في كل طرف من الأطراف الثلاثة تحيط بها غرف أقل مساحة • ويماثل مخطط الطابق الثاني الطابق الأول فيما عدا غرفة أساسية عوضاً عن المدخل الجنوبي في الطابق الأرضي •

حمام الصرح

وهو من القصور الأموية التي تعود الى عهد الأمويين الأول وقد ترجع الى عهد الوليد بن عبد الملك ، ويعتقد كريزول أنه يرجع الى عام ٧٢٥ ـ ٧٣١ أي الى عهد هشام • وهو موقع صغير أنشىء كي يكون منطلقاً لرحلات الصيد الخاصة بالخليفة ، ولقد ضم هذا القصر حماماً ، وعرف هذا البناء دائماً باسم حمام الصرح ، ويشبه بناء هذا الحمام في مخططه وطراز بنائه بناء حمام قصير عمرة ، ولقد كانت جدرانه مغطاة أيضاً بالصور الملونة لم يبق منها الا آثار ضئيلة • ومع أن دراسة

القصر غير ممكنة ، فان الحمام يبدو بوضوح حتى أنه من المعتقد أن هذا الحمام أقيم فقط دون أي مقر آخر[1] .

ويقسم هذا الحمام ، شأن حمام قصير عمرة الى قسمين ، قسم مستطيل يؤلف قاعة الاستقبال مع القميم متصلة بغرفتين جانبيتين والثالثة مغطاة بقبرات عالية وتستمر هاتين الغرفتين رغم القاطع بمحاذاة قاعة الاستقبال .

والى الشمال الشرقي من هذا القسم يقع القسم الثاني المؤلف من الحمام المؤلف من ثلاث غرف صغيرة ، اثنتان ذات قبوات والثالثة ذات قبة محززة من الداخل كما هو الأمر في قصير عمرة مما يعطي الحمام الطابع الرافدي ، تحاذيها من الجانبين نصفا قبتين يغطيان امتداد الغرفة طولانيـــاً .

قصر الحير الغربي

يذكر الطبري[2] أن هشاماً كان ينزل في الزيتونة في بادية الشام ، فلما عمّر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى أن مات . كما يذكر ابن كثير[3] أن الخلافـــة أتته وهو في الزيتونة في منزل له ، فجاءه

(١) نفس المرجع ص ٢٥٤ .

(٢) الطبري ج ٨ ص ٢٩٢ .

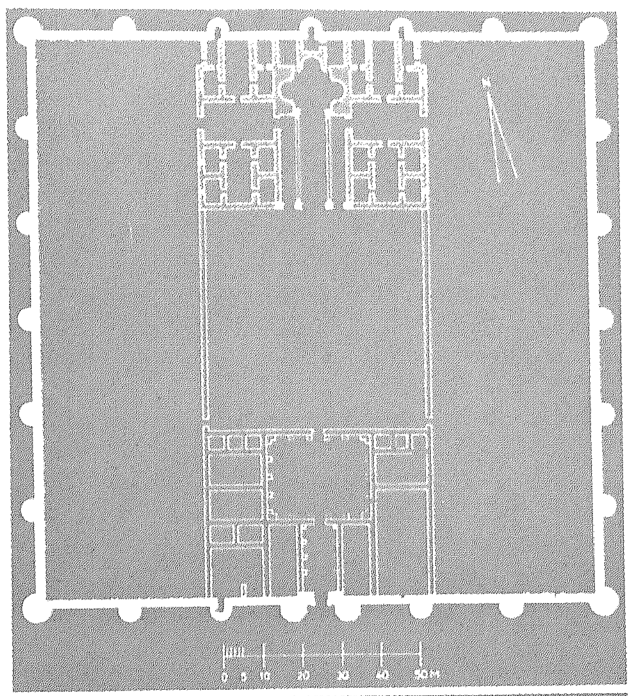
قصر الحير الغربي ــ بادية الشام

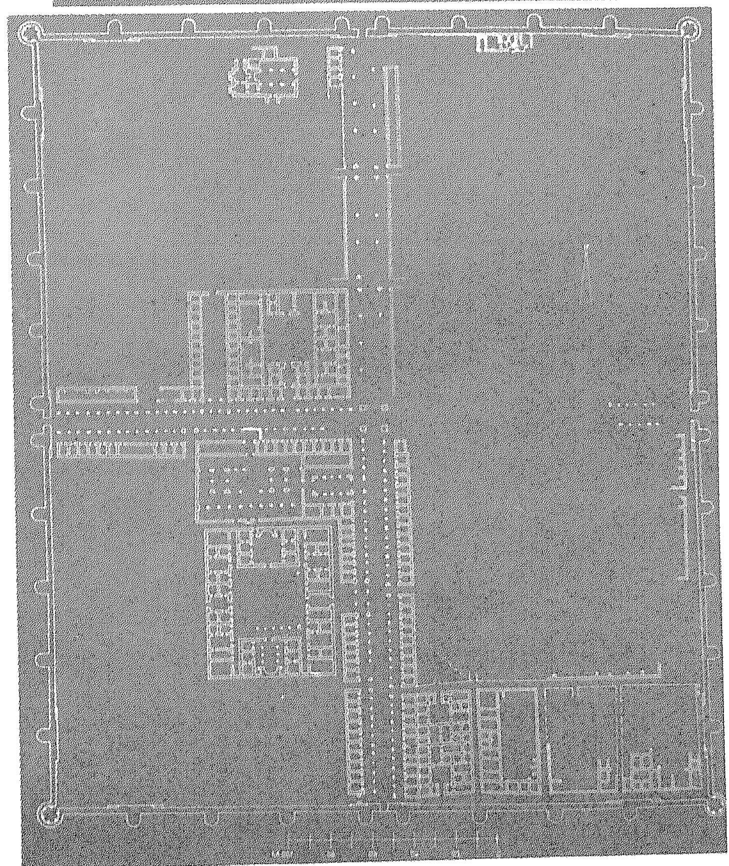
البريد بالعصا والخاتم ، فسلم عليه بالخلافة ، فركب من الرصافة حتى أتى دمشق •

والزيتونة هي قصر الحير الغربي الذي كشفه العالم شلومبرجيه ، وشكل قصر الحير الغربي مربع طول ضلعه ٧٠ × ٧١ وجداره الخارجي مدعم بأبراج مستديرة (ما عدا الزاوية الشمالية الغربية حيث البرج البيزنطي الذي أعيد استعماله) ، وبأبراج نصف دائرية تدعم أواسط الجدران الثلاثة ، عدا الجدار الشرقي حيث تنفتح بوابة يحيط بها من الطرفين برجان نصف دائريين مزخرفين ، وبناء هذا القصر من الحجر الى ارتفاع مترين ثم من الطوب والآجر مع عوارض خشبية •

وتتصل البوابة بواسطة دهليز بالفناء المحاط بأروقة محمولة على عمد قديمة ، ويوجد في وسط الفناء حوض صغير ، وترتفع حول الفناء البيوت في طابقين ، وترى قاعات القصر وحجراته مرتبة ضمن بيوت ستة مستقلة عن بعضها ، بيتان في الجهة الشرقية ومثلها في الجهة الغربية وواحد في الجنوب وآخر في الشمال • ويحوي كل بيت من ٨ ــ ١٣ قاعة أو حجرة •

ولقد اكتشف درجان خشبيان يؤكدان وجود طابق ثاني ، ولقد عثر على درابزون رواق الطابق الثاني وهو عبارة عن قطع جصية منحوتة • وكانت بيوت الطابق الثاني وغرفه مطابقة لنظائرها في الطابق الأرضي ، وكان النور يدخل الى الحجرات عن طريق كوات، أما الفتحات الداخلية فكانت نوافذ عليها مشبكات جصية رائعة التكوين •





مخطط مدينة عنجر والقصر في لبنان

وتتألف زخرفة قصر الحير الغربي من الزخارف الجصية في واجهة القصر ، ومن الزخارف الجدارية المشابهة للتمشيحات الرخامية ، ومن زخرفات الكوات ومن الصور الملونة الكبيرة • وفيما يلي شرح لهذه الأنواع من الفنون •

من أهم الألواح التزيينية التي ما زالت بوضع جيـد ، صورتان كبيرتان أعيد تركيبهما في القسم العلوي من جناح قصر الحير الذي أعيـد بناؤه في المتحف الوطني بدمشق ، وألوان هاتين الصورتين أصبحت باهتة مع الأيام وكانتا كما يقول شلومبرجيه تغطيان أرضية زوايا الدرج ، ويعتقد ايتنهاوزن أنهما تقليد للفسيفساء أقيمتا حيث عزت أحجار الفسيفساء وتقاليده •

يمتاز قصر الحير الغربي باحتوائه على نوعين من النحت ، النحت الزخرفي وهـو عبارة عن أشكال نباتيـة محورة أو هندسية مجردة مصنوعة من الجص البارز (في الواجهة) أو من الجص المفرغ (في النوافـذ) ، وهـذا النوع من الزخرفـة هو بداية الرقش العربي العربي Arabesque على الرغم من استيحائه من عناصر ساسانية ورومانيـة •

والنوع الثاني من النحت هو النحت التشبيهي الذي حفل به القصر والذي يشابه بأسلوبه وطريقة تنفيذه النحت الذي عثر عليه في قصر المفجر قرب أريحا • ونستطيع القول منذ الآن أن وحدة فن النحت في هذين القصرين واضحة جدا •



واجهة قصر الحير الشرقي

ومن أهم اللقى النحتية التشبيهية التي عثر عليها وأعيد ترميمها ، هي تمثال شخص يمكن أن يكون الخليفة هشام يؤكد ذلك مقارنته مع تمثال مشابه وجد في قصر المفجر ، ويعتقد أن مكان هذا التمثال هو الجبهة الخارجية فوق الباب مباشرة .

وفي أعلى الواجهة صف من التماثيل النصفية عثر على ثلاثة منها تمثل نسوة عاريات ، وفي مكان آخر ثلاثة قطع منحوتة لثلاث خراف وحيوانات أخرى يميز من بينها فهود .

قصر الحير الشرقي

يقع الحير الشرقي على بعد ١٠٥ كيلو مترا شمال شرقي تدمر وعلى مسافة ستين كيلو مترا جنوبي الرصافة . ولقد تحدث عنه كثير من الرحالة منذ القرن السابع عشر ، وكان آخر من زاره ١٩٢٥ وكتب عنه البرت غبرييل Gabriel الذي استفاد منه كريزويل وأضاف عليه منذ عام ١٩٢٨ ، ثم تولى أوليغ غرابار استكمال دراسته منذ ١٩٦٥[(١)] .

يتألف الموقع من قصرين ، قصر كبير مربع طول ضلعه ١٦٠ م تقريبا وآخر صغير مربع غير منتظم طول ضلعه ٧٠ م وسطيا ، وهذان القصران مدعمان بأبراج نصف دائرية ، برجان في كل ضلع اضافة لأبراج الزوايا الأربعة . وينفتح مدخل القصر الكبير من جهة

---

(١) انظر اوليغ غرابار قصر الحير الشرقي : الحوليات مجلد ١٥ ص ١٠٧ ومجلد ١٦ ص ٢٩ ومجلد ٢٠ ص ٤٥ .
وانظر كتاب غرابار :
City in the Desert . Harvard . U. 1978



تماثيل زخرفية لشرفات قصر الحير الغربي





تمثال الخليفة هشام بن عبد الملك في قصر الحير الغربي

الجنـــوب ببوابـــة كبـــيرة على طرفيهـــا برجـــان نصف دائريـــان وينتهي الدهليز بالفناء المحاط من جميع جوانبـــه بالغرف الواسعة ١١ × ٦ م تقريبا ، وتبدو مقطوعة الى قسمين الغرف الواقعة في الجهة الشرقية . والقصر مؤلف من طابقين ، ولـــه أربعة مداخل بما فيهـــا المدخل الرئيسي عدا مدخلين اضافيين في الجدار الشرقي .

وأسوار القصرين مبنية من الحجر المنحوت والآجر ومدعمة بأبراج نصف دائرية ، وبجوار هذين القصرين ثمة سور واسع بطول يزيد عن ستة كيلو مترات مدعم أيضا ببدنات وفي أحد أجزائه فتحات ذات أقواس عادية يمكن اغلاقها بأبواب من الخشب ، وثمة قناة تنقل الماء من مكان بعيد جدا ، وهذه الارض التي يمكن تنظيم الري فيها لا بد أنها قد استعملت لزرع بعض النباتات ولاقامة الفلاحين .

تعتبر منطقة قصر الحير الشرقي مدينة كانت معدة لسكنى حاشية الخليفة ، وترجع هذه المدينة الى عهد هشام يؤيد ذلك الكتابة التي عثر عليها جاك روسو في القصر وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله وحده لا شريك لـــه . محمد رسول الله ، أمر بصنعة هذه المدينة عبد الله هشام ، أمـــير المؤمنين وكان هذا من عمل أهل حمص على يد سليمان ابن عبيد » .

خربة المفجر

يقع قصر المفجر على مقربة من أريحا ، كان قد شيّده هشام بن عبد الملك لكي يكون استراحة ملكية تمتاز بوفرة الزخرفة[1] .

---

(١) R. W. Hamilton : Khirbet al Mafjar . Oxford 1959

وكشفت الحفريات عن قصر وجامع وحمامات وفناء أمامي ذي أعمدة وبركة مزدانة بالزخارف •

وبناء القصر هو الرئيسي في هذه المجموعة ثم أضيف اليه الجامع والحمامات • ويشبه مخطط القصر مخطط القلاع الرومانية فهو على هيئة مربع طول ضلعه ٦٤ر٥ متر أما الضلع الشرقي فهو ٦١ر٢٥ • في أركانه الاربعة أبراج مدعمة وأمام مدخله الذي يقع في الجدار الشرقي يوجد فسحة أمامية معمدة تمتد حتى الحدود الشمالية للحمامات ، والمدخل الرئيسي لهذا الفناء يقع في الجنوب يحيط به برجان • ولقد تركت معظم مساحة الفناء عارية ، وفي وسطها تقع البركة ذات الزخارف وهي من المنشآت الهامة اذ أنها بناء غريب يتألف من بركة مربعة عمقها متر تقريبا تعلوها قبة عظيمة ذات ثمانية أضلاع فوق أربعة أقواس ضخمة ، وهي مزدانة بأجمل الزخارف • وكان بناء القصر مؤلفا من طابقين لهما شرفات في الاعلى أو رواق سفلي يحيط بجوانب هذا الفناء ، أما البوابة فكانت ضمن برج كبير يعلوه قوس متقنة تزدان واجهتها الامامية بصف من المحاريب •

وينتهي الدهليز بالفناء الداخلي للقصر والمحاط بالغرف في طابقين • وتشكل الغرف في الجهة الغربية مجموعة متكاملة وتعتبر المقر الملكي • بينما تبدو غرف الجهة الجنوبية مستقلة عن بعضها واسعة ، أحدها كان بمثابة مسجد •

ويقع الجامع في الجهة الشرقية بين القصر والحمامات ، ولم يبق مسقوفاً منه الا الصدر الجنوبي المعقود الذي يضم المحراب ٠

وتتألف الحمامات من رحبة أمامية ومدخل مسقوف وقاعة ضخمة طول كل ضلع من أضلاعها ٣٠ م ، ويحمل سقفها على ست عشرة قاعدة ضخمة هي أعمدة متداخلة تحمل أقواسا فوقها أقواس مخففة ، وفي الجدران تجاويف خمسة مغطاة بقباب عالية ٠ وقد فرشت أرض الحمام بالفسيفساء بتشكيلات خارقة[1] ٠

ويمتاز قصر المفجر بزخارفه الفسيفسائية الهامة جدا ، فاذا استعيض عن هذه الالواح بصور ملونة في قصر الحير الغربي ، فهي هنا فسيفساء حقيقية مؤلفة من مكعبات حجرية ملونة تشكل صورا تشبيهية أو زخرفية رائعة التصميم والتنفيذ ٠

ومن أهم هذه الالواح الفسيفسائية قطعة كبيرة تفرش قاعة الاستراحة بالحمام الكبير وتزين القسم المجوف المرتفع الذي يقع في نهاية القاعة ٠ ويتصل بهذه الصورة الكبيرة عدد من الصور مما يجعل هذه الغرفة المترفة شديدة الزينة رائعة الجمال ، فأرض القسم المربع مفروشة بالفسيفساء أيضا ، ولكن برسوم هندسية ملونة بنفس الشكل الذي استعملت به على الدكة المجوفة المرتفعة المحيطة بها ٠

---

(١) **Arab Painting**
انظر الترجمة العربية ص ٣٧ وما بعدها .
وانظر كريزويل الطبعة الثانية ص ٥٥٤ ـ ٥٧٧ .

لوحة فسيفسائية ـ ارضية قاعة الاستقبال في حمام قصر المفجر

ويظن هاملتون[1] أن قطعة الفسيفساء هذه تمثل بساطا لأن فيها أهدابا تشبه حاشية أنواع معينة من الأبسطة .

أما الصورة الأساسية التي تزين أرضية الحنية في غرفة الاستقبال هذه ، فهي صورة تشبيهية رائعة التكوين مؤلفة من شجرة تفاح أو نارنج مع نباتات اضافية على طرفي الشجرة حيث تختلط هذه النباتات من اليمين بصورة أسد ينقض على غزال هلع ، بينما يبدو في الجهة اليسرى غزالان هادئان ينعمان بقضم أوراق هذه النباتات ، وتمتاز الشجرة بواقعيتها اذ روعي فيها اختلاف مقاييس الفروع والأغصان الطبيعي ، كما روعي التكوين المدرسي فلقد ظهرت الأوراق في الوسط صفراء شاحبة يعقبها أوراق خضراء ثم أوراق زرقاء مخضوضرة قائمة ، ومقابل هذه الالوان تبدو الثمار بلون أحمر ساطع . ولقد التفت فروع الشجرة وأغصانها بشكل واقعي صرف .

النحت في المفجر

وأروع ما في هذه الغرفة هو سقفها المقبب المنقوش بالنحت الجصي ، ثم القبة التي تعلو القسم المربع وهي قبة عالية فيها رسوم على هيئة جياد طائرة وفوقها افريز مؤلف من صور نافرة مدهونة تمثل طيور الحجل . وفي عنق القبة نوافذ ذات زجاج معشق ملون . وتزدان القبة بمنحوتات بديعة مؤلفة من ست أوراق منها ستة رؤوس لرجال ونسوة ملونة وراء أغصان الكرمة ، وأكثر هذه الشواهد النحتية الجصية نقل

---

(١) انظر هاملتون نفس المرجع سابقا .
(٣٤) نفس المرجع ص ٣٩ .



بعض تماثيل قصر المفجر لعله تمثال هشام بن عبد الملك

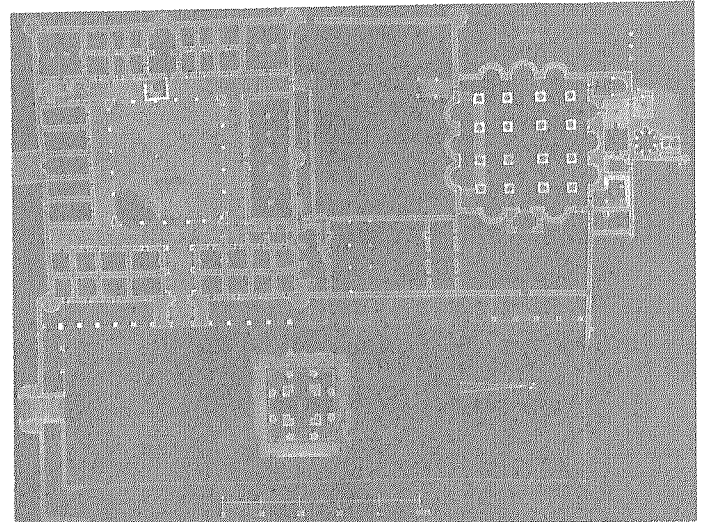
الى المتحف الفلسطيني في القدس مع منحوتات حجرية من أهمها تماثيل لرجال ونساء كاملة أو نصفية كان بعضها موجودا في المدخل المسقوف بقبة تعتمد على دعائم الأقواس الجانبية ، وعلى دعائم هذه الاقواس كانت تقوم تماثيل لأشخاص ذكور يحملون رباطا من أوراق الخرشوف فوق صف من الخـراف الجاثمة مع امتداد الدائرة[1] ويتألف عنق القبة من اثنى عشر تجويفا محرابيا يقف في كل منها تمثال لذكر أو أنثى متتالين ، هذه التماثيل مدهونة بألوان جذابة . وتضم واجهة المدخل محرابين عشر في أحدهما على تمثال يعتقد أنه للخليفة هشام وذلك بمقارنته مع تمثال هشام في قصر الحير الغربي . ولكن هذا التمثال ملون ويحمل سيفا ويقف على أسدين جاثمين .

قصر المشتى

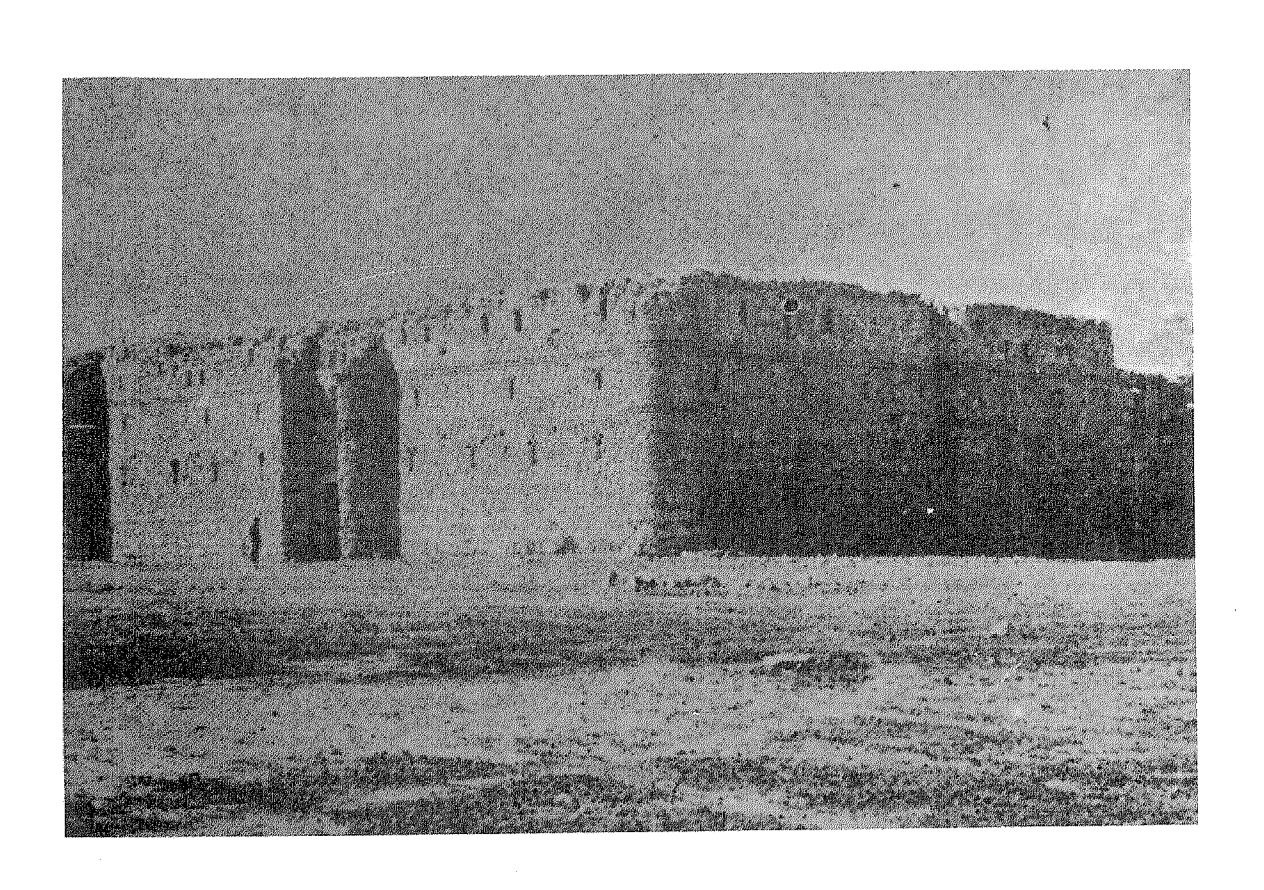
يقع في بادية الاردن قصر المشتى وهـو من أعمال الوليد الثاني ٧٤٣ ـ ٧٤٤ ، ويحيط بالقصر سور مربع طول ضلعه ١٤٤ م ، ويكتنفه خمسة وعشرون برجا دائريا ، عدا برجا المدخل فهما نصفا مثمنين . يمتاز القصر بتقسيماته فهو مقسم الى ثلاثة أجنحة ، الجناح الوسطي مقسم الى ثلاثة أقسام ، يضم القسمان الشمالي والجنوبي الأبنيـة الرئيسية أما القسم المتوسط فهو يشكل ساحة مكشوفة .

والقسم الشمالي كان مقرا للخليفة أما القسم الجنوبي فهو ممرات وغرف مسجد . ومنه ينفتح المدخل الوحيد الذي تزينه من الخارج واجهة مزخرفة .

(١) انظر كريزويل ص ٥٧٨ ـ ٦٠٦ .



واجهة قصر المشتى ـ مع المخطط



قصر الحرانة

يعتبر قصر المشتى من أكثر القصور الأموية زخرفة ويكفي أن نذكر زخرفة واجهته الشهيرة • والموجودة في متحف الدولة في برلين[1] وهذه الواجهة تغطي القسم الامامي للبناء الاول الذي يتضمن البوابة الرئيسية • ويتألف هذا القسم من برجين دائريين وبرجين مضلعين (٥ أضلاع) وبينهما جدران على جهة عرضها ستون مترا • وتغطي الزخرفة جميع أرجاء هذه الواجهة وبشكل كثيف ابتداء من القاعدة ٤٧ سم ثم العتبة • ثم ألواح الجدار ٢،٩٥ سم يعلوه طبان ٩٠ سم • وتتألف ألواح الواجهة من مساحات مثلثية يحد ضلعاها المتساويان اطار زخرفي ممتد ومتصل على طول الجهة بشكل منكسر • وكل مثلث حافل بالزخرفة النباتية والحيوانية وفي وسطه زهرية كبيرة من ست حنيات في المثلثات القائمة الى أسفل أو مسدس زخرفي في المثلثات القائمة الى أعلى •

قصر الطوبة

يقع قصر الطوبة الى أقصى الجنوب من القصور الأموية في بادية الاردن التي أنشئت في عهد الأمويين في وادي الغداف على بعد مئة كيلو مترا من جنوب شرقي عمان ، وهو أكبر موقع أموي بعد موقع الحير الشرقي والمفجر • ويطلق عليها اسم الطوبة ، لأن هذا البناء

(١) كان نقلها الامبراطور غليوم الثاني عند زيارته الى بلاد الشام ، وقد قدمها هدية له السلطان عبد الحميد بناء على توصية من العالم ستروبجفسكي عام ١٩٠٣ وتم افتتاح المتحف عام ١٩٣٢ وأعيد ترميمه بعد الحرب باشراف العالم كونل .

أنشيء من الحجر والطوب وليس بالآجر • ولعله أنشيء عام ٧٤٣[١] •

ويمتاز هذا القصر بطابعه الأموي الواضح من طريقة النحت على الحجر ولكنه يختلف عن غيره من القصور اذ أنه أنشيء من الحجارة والطوب واللبن (وهو الآجر غير المشوي) على السواء • ومع ذلك فان بناء القصر لم يكتمل كليا فلقد تم انشاء الجناح الشمالي أما الجناح الجنوبي فلم يتجاوز مرحلة انهاء الأساسات ، وتقوم غرف كبيرة جميلة في الجناح الشمالي ذات عقود مرتفعة •

البيت الشامي التقليدي

البيت الذي أصبحنا نأوي اليه بعد الحرب العالمية الثانية ، بيت غريب مستورد • فهو لا يحترم عاداتنا وتقاليدنا ولا ينسجم مع مناخ بلادنا ولا يشكل مرحلة من مراحل فن العمارة التقليدي •

لقد كانت ثمة أسباب لانشاء هذه المعلبات الطابقية ، منها متانة الاسمنت وطواعيته لتشكيل العمارة ، ومنها انفتاح الناس على مظاهر الحياة الاوربية كعلامة من علامات التقدم ، ومنها أيضا وفرة المال بين أيدي بعض الناس •

ولقد وصمت البيوت التقليدية على أنها عتيقة متخلفة ولم يدر بخلد الذين بارحوها الى مناطق جديدة ، والى بيوت جديدة قد تكون أكثر انتظاما وأوفر خدمة ، أنهم تركوا فيها عالما أصيلا وذكريات تمتد الى آلاف السنين ، وانهم هجروا حنينا كانت أزقة الحارات وجدران البيوت وظلال النارنج والياسمين قد اترعت منه نفوسهم وخواطرهم •

---

(١) انظر كريزويل ص ٣٧٦ •

انتقلوا من الاحياء القديمة الى أحياء جديدة ذات شوارع عريضة وأرصفة وحدائق خارجية وواجهات مفتوحة على الشوارع ، وكان انتقالهم هذا الى عالمهم الجديد قد كلل سيماءهم بمسحة غريبة ، فلقد هجر الناس لباسهم التقليدي واستغنت المرأة عن براقعها وانكشفت الحياة الخاصة لتعرض على النوافذ والشرفات ، وانقطعت الإلفة بين أبناء الحي من الأهل والأصدقاء وأصبح المنزل مغلقا لا تربطه بالأرض الا طبقات من المساكن لم يألف نظيرها في حياته السكنية الماضية أبدا •

ويرتد الى جوانح الناس حنين جامح الى تلك البيوت القديمة التي احتوت شخصيتهم وقيمهم ، وقد أصبحت موئلا للغرباء والعتاد وأصحاب الصناعات • وتهفو نفوسهم أن تعود الى عالمها الروحي الوديع النقي الهادىء ، أن تعود الى الوطن بعد هجرة قاسية • أن تعود الى الذات • البيت القديم هو الوطن العريق فيه عبق التراث ولحن السكينة وأفراح الأسرة المتكافلة •• ماذا بقي منه ما هي حدود الحاضر من أبعاد الماضي سؤال حزين ولكنه ملح ولجوج •

ومع ذلك فان الجواب قد يكون مطمئنا اذا ما استطعنا أن ننظر الى البيت القديم بروحنا وبعين الفن والحب في نفوسنا •

والمشاهد هنا بيوت قديمة عريقة ، اتهمت مرة أنها عتيقة متخلفة •

واذا كان لا بد من تعريف يضاف على ما قدمناه من تعريف ، فاننا نقول أن البيت العربي هو مسكن الروح والجسد ، وموطن النفس العائدة من شرودها اليومي الى جنتها العائلية •

والمسكن في تكوينه وهندسته شديد الانسجام مع ظروف المناخ ، ونعرض هنا بعض مظاهر هذا الانسجام[1] .

تلتصق المساكن ببعضها متداخلة أو تفصلها الأزقة الضيقة والدروب ، مما يعطي المدينة وأحياءها طابع التلاحم الذي يساعد عدم التعرض للرياح والشمس عدا أنه يعطي المدينة طابع التماسك والوحدة .

تنفتح المساكن على فناء داخلي يسمى الصحن وهو من أهم ميزات عمارة المساكن العربية الاسلامية ، التي تجعل هذه العمارة أكثر تكييفا مع ظروف المناخ ، ذلك أن مستوى حرارة الصحن لا تتأثر بتيارات الجو الخارجية ، ولذلك فان الفرق الحراري فيها ضئيل ، ولأن الغرف المحيطة بهذا الصحن تنتح عليه فان هذه الغرف تبقى محتفظة أيضا بحرارتها دون أن تتأثر بتقلبات الطقس الخارجية .

وعدا ذلك فان الصحن يسمح بظلال على امتداد النهار كما أنه يحتفظ بهواء نظيف غير ملوث .

والايوان هو قاعة بدون جدار رابع منفتحة كليا على الصحن يركن اليها أهل البيت ويستقبلون فيها ضيوفهم مستفيدين من اتساع الصحن وأشجاره وبركته ومن هواءه النظيف المعتدل .

---

(١) انظر دراستنا : مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية ـ الحوليات الاثرية السورية مجلد ٢٤ .

يبلغ ارتفاع سقف القاعة الكبرى والايوان في المسكن الدمشقي ضعف ارتفاع مستوى الغرف الأخرى ، وهذا الارتفاع يساعد على الاحتفاظ بنقاوة الهواء ، وعلى تلطيفه المستمر كما هو الأمر بالنسبة للقباب التي تقـام في الأماكن العامـة كالمساجد والخانات والتكايا والبيمارستانات •

تحفل المساكن العربية بالبرك (بحرة) والفستقيات (فستقية) وبالسلسبيل (المصب) وتقوم البركة في منتصف الصحن واسعة يبلغ قطرها ٣ ـ ٦ أمتار • أما الفستقية فهي صغيرة قطرها متر وهي اما أن تكون مرتفعة أو منخفضة وتصنع من الرخام المشقف أو من الفسيفساء الرخامي الهندسي ومكانها ضمن القاعة ، والسلسبيل لوح مرمري أو مزين بشقوف رخامية مجزعة قائم على الجدار يسيل من أعلاه الماء على صفحة هذا اللوح المحاط باطار وقاعدة مزخرفين •

واهتمام المعمار بالمياه محاولة لتلطيف الجو الجاف في داخل البيوت بل وفي داخل الغرف أيضا •

أقيمت المساكن والقصور من الحجـر ومن الآجر المضبب بـين مداميك البناء بالخشب الملبّن ، وهي في مجملها طريقـة لدعم اللبن بأعمدة خشبية أشبه بالاطار ثم تكسى هذه الجدران بالطين والكلس • أو تبنى الجدران بالطين الدك ، أو بالآجر ، ويدخل الحجر كمادة انشائية ضرورية لاقامة المداميك الأولى للجدران ولتغطية بعض الواجهـات ولاقامة اطارات الأبواب والنوافذ الداخلية والخارجية • ولقد أبانت الدراسات أن البناء الطيني هو أكثر انسجاما مع البيئة القارية من أي

مادة أخرى ، اذ أن الفرق الحراري في البناء الطيني لا يتجاوز الدرجتين[1] .

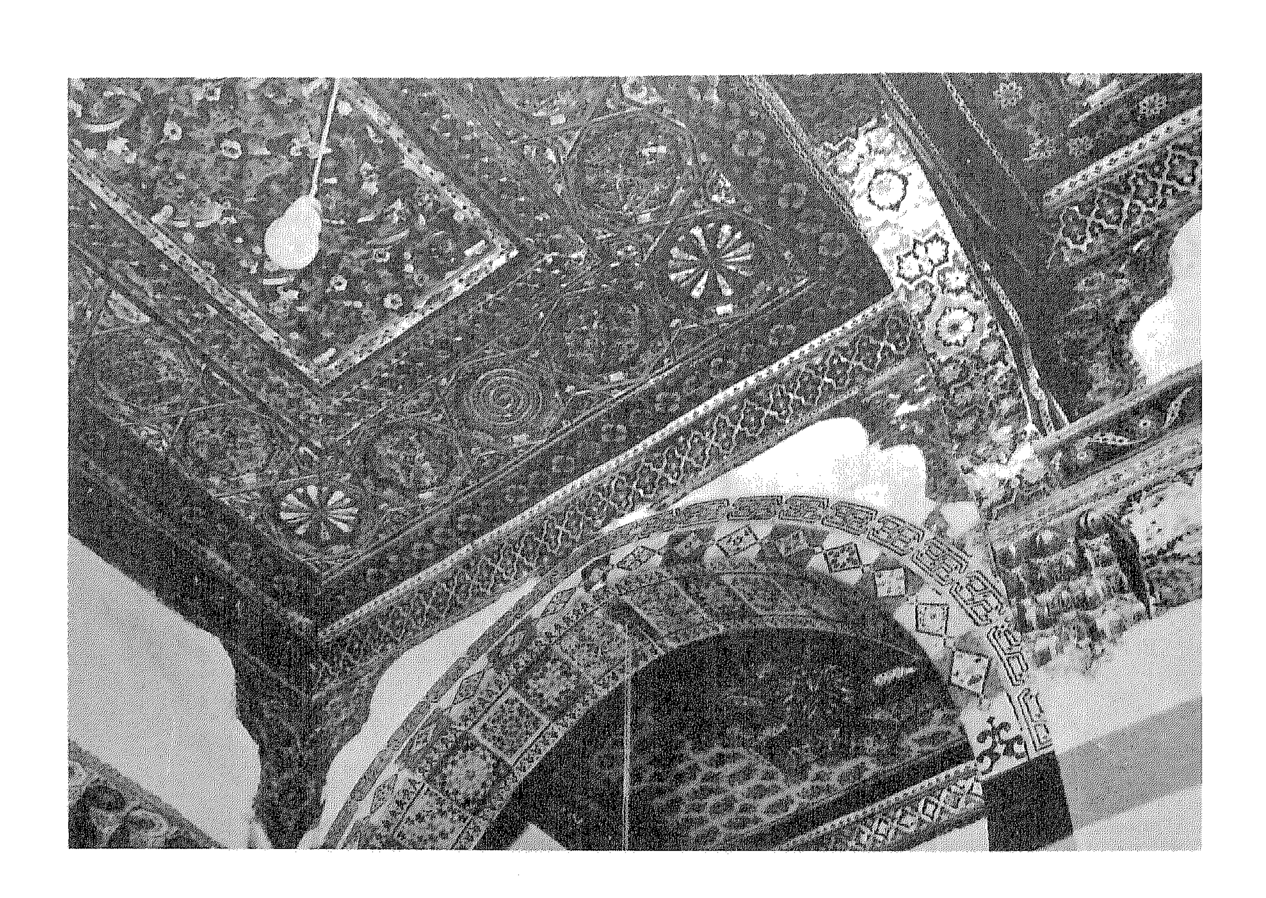
ونمضي الى داخل المنزل القديم ، الى الصحن حيث البركة الواسعة في منتصف الصحن ، وحيث الأشجار المثمرة كالنارنج والليمون ، وحيث الزهور كالياسمين والورد والريحان ، ولندقق أيضا في الخطوط الأفقية والشاقولية المحيطة بالصحن ، والتي تشكلها حدود الطبقات والنوافذ ، والى الأبواب والأقواس والزخارف الحجرية والخشبية ، هذه العناصر الزخرفية التي تحقق جمال العالم الداخلي في المسكن ، انها صورة عن سعي المؤمن الى تحقيق روعة العالم الداخلي في أعماق نفسه ، فالخطوط الأفقية المحيطة بالصحن هي رمز لحلقات الوجود المادي المحيط بالكون أو بالملأ الأعلى ، وتتصل الأرض وجميع حلقات الوجود المادي بالسماء عن طريق المركز المتمثل ببركة الماء التي تتدفق من أوسطها نافورة مستمرة الانبثاق[2] .

وهذه الأشجار المثمرة والرياحين ، هي الجنة التي تصورها المسلم دائما كنقيض للصحراء القاحلة ، أما الأقواس ، فهي صيغة مصغرة لاتصال المكان بالسماء ، فهذا القوس يبتدىء من الأسفل ، ثم يعود الى الأرض وقد رسم شكل الكون الأصغر ، وفي حنايا هذه الأقواس أو العقود أو القباب يعيش المؤمن في مسكنه المدني تحت رحمة أجنحة الله الحادبة .

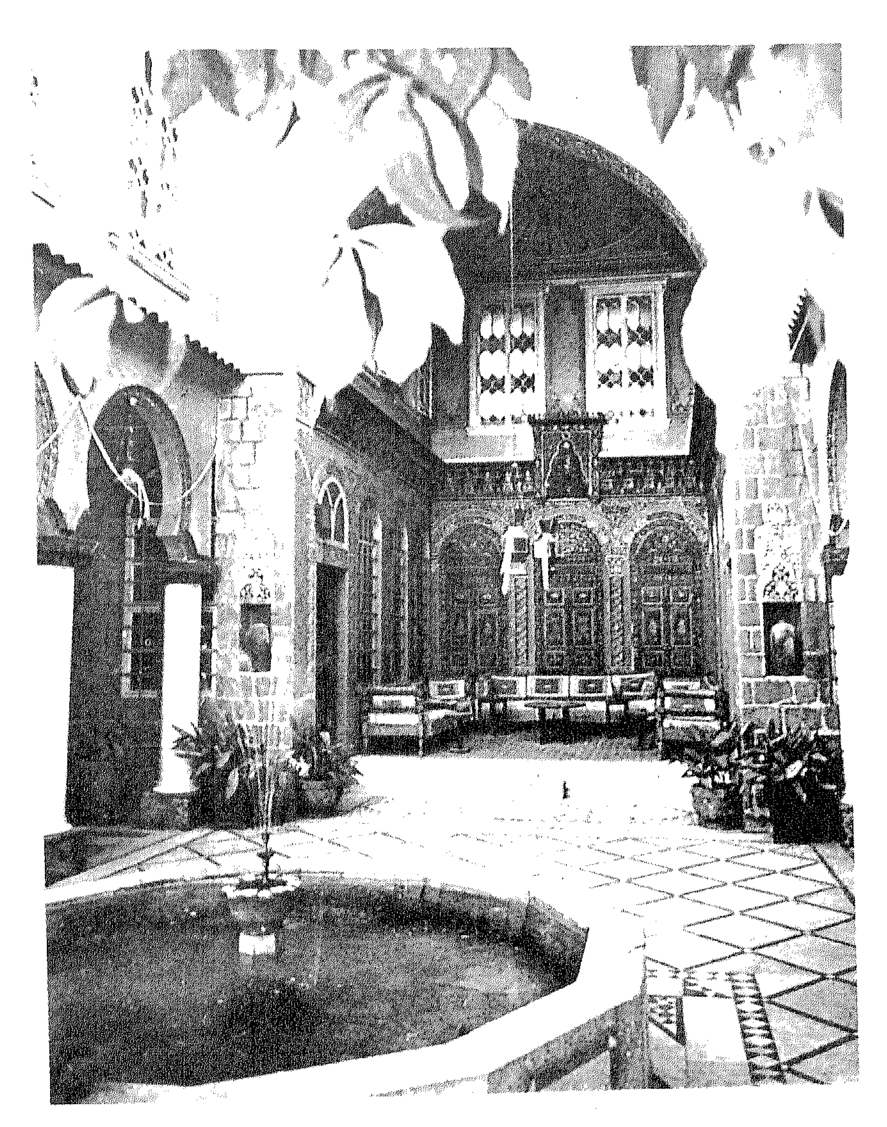
---

(١) انظر دراستنا : مشكلة المدينة القديمة في البلاد العربية ـ الحوليات الاثرية السورية مجلد ٢٤ .

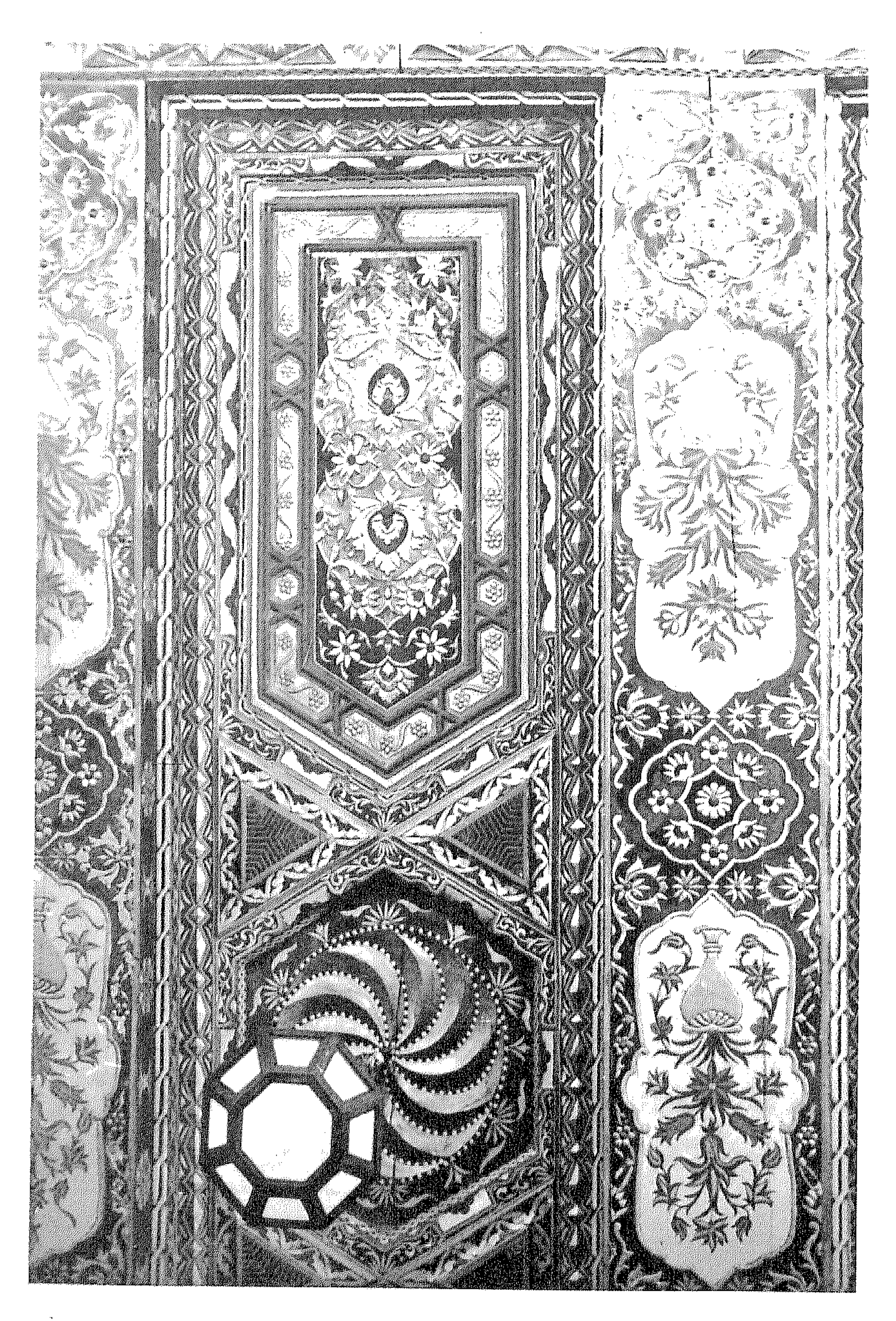
(٢) انظر دراستنا : تكون الفن العربي الاسلامي في ديار الشام ـ الحوليات الاثرية السورية المجلد ٢٢ .



زخارف داخلية في قصر العظم في حماه



زخارف داخلية في بيت شامي



زخارف جدارية في القاعة الشامية المتحف الوطني بدمشق

ومن الناحية المعمارية يتلاءم البيت الشامي مع المناخ والتقاليد والمفهوم العميق للمسكن من حيث هو عالم داخلي مستقل عن كل مظاهر العالم الخارجي • ومن الناحية الفنية هو مجال كامل للزخرفة والتزويق بجميع أنواعه •

ان الزخرفة الداخلية في البيت الشامي تعتمد على ثلاثة أنواع من العناصر الزخرفية ، الرقش الهندسي وهي الزخرفة التي تعتمد على تقطيع السطح الى أشكال هندسية متداخلة مشعة بشكل جابذ ونابذ تبتدىء من النجمة وتنداح بأشكال مختلفة لتشكل نجوما أخرى لا تلبث أن تتداخل مع أشكال مشعة أخرى • ويقوم الفنان العربي بتصوير هذه الأشكال التي تسمى « الخيط » بدقة بارعة ، ثم يلون هذه المساحات بألوان مختلفة منسجمة •

وليست هذه الأشكال الهندسية وهذه النجوم ، أشكالا مجردة بلا معنى ، بل هي ذات معان صوفية وفلسفية راقية جدا[1] •

والنوع الثاني من العناصر الزخرفية ، هو الرقش اللين وهو تأويل للأشكال النباتية يخرج عن معناه الأصلي ، لكي يعبر عن معان أخرى تدل على الحاح مستمر على التبتل والارتباط بالملأ الأعلى •

والنوع الثالث هو الخط العربي الجميل الذي يحمل آيات من القرآن الكريم أو أبيات من الشعر الرائع في مديح الرسول أو في الحكمة والتعبير عن مكارم الأخلاق وحسن الذوق •

وهذه الخطوط وهي الثلث والفارسي والكوفي والمزوي وغيرها تزيد الزخارف الجدارية رونقا وبهاء وتزيدها أهمية بما تحويه من

---

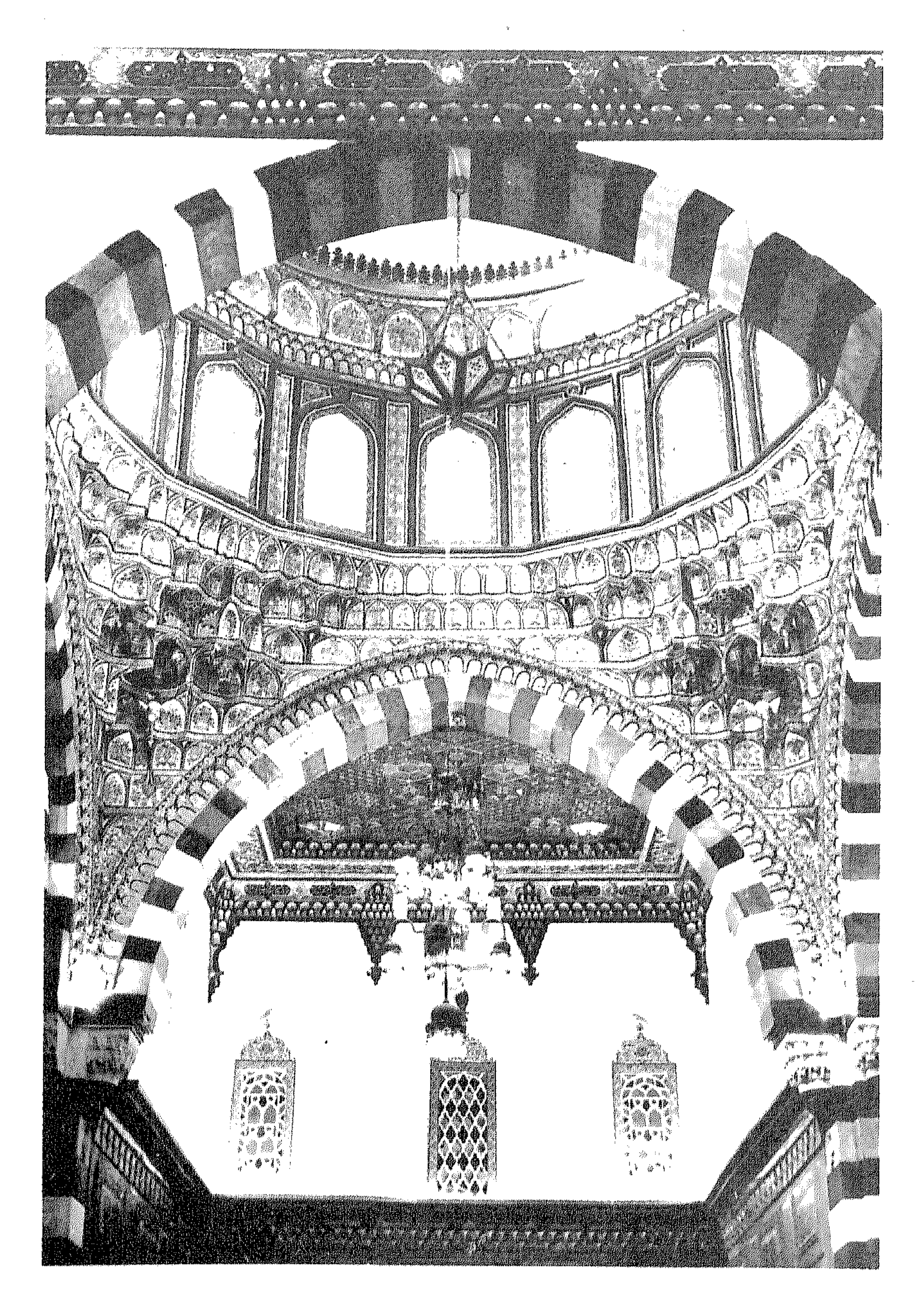
(١) انظر دراستنا « معاني النجوم في الزخرفة العربية » الحوليات الاثرية السورية المجلد ٣٢ •

مضمون أدبي عال ، ولابد أن نضيف لهذه الأنواع ، نوعا رابعا هو الصور الواقعية المحرفة والتي تتمثل بتصوير بعض مشاهد المدن ، أو بعض صور الزهور مع بعض الأواني الجميلة . وهذه الزخارف جميعها عبارة عن تصوير بألوان هي عبارة عن مساحيق ملونة تمزج اما بالماء والغراء أو بالكحول ، بحسب مادتها اذا كانت ترابية أو معدنية وتزين بها الجدران الخشبية التي تأخذ أشكال الخزائن والكتبيات والسقوف . ويمتاز الرقش في بلاد الشام عنه في المغرب من أنه رقش بارز ، وهـذا البروز التي يتمثل في فروع الزخرفة وعناصرها يتكون بواسطة معجون خاص لكي يوحي بوجود مستقل لهذه العناصر تتميز عن الخلفيات .

وهذا النوع من الزخرفة قديم عريق ولقد اكتشفت في الرقة أصوله العباسية الأولى وهي محفوظة في متحف دمشق .

وعدا عن هذا النوع من الزخرفة الخشبية الملونة هناك الزخارف الحجرية والرخامية والجصية والتي تسمى المشقف والمجزع والأبلق .

والمشقف هو زخارف هندسية كل شكل مؤلف من فص حجري مقطوع باليد يضم مع بعضه لكي يشكل حصيرة رائعة من الفسيفساء الهندسي الذي يسمى المشقف ، وهو اما أن يكون بأحجام كبيرة تزيد عن خمسة سنتيمات أو هو دقيق بحدود السنتيم الواحد . وترى هذه الزخارف واضحة في أشكال السلسبيل (المصب) وفي أشكال البرك (الفسقيات) التي تضم عشرات ألوف الفصوص التي تقطع وترصف باليد . أما المجزع فهو تنزيل الأحجار والرخام المقطع بأشكال لينة نباتية ملونة على سطوح ملونة أيضا ومفرغة ، ويتم هذا النوع من الزخرفة



قصر العظم في حماه

بمهارة خارقة ، وهو يشكل البلاطـات الكبرى الواحدة التي تغطي القاعات الكبرى في البيت العربي •

والأبلق هو تفريغ فني لسطح من الجص لافساح المجال لتنزيل ملاط ملون ضمن أشكال هندسية أو نباتيـة أخاذة ، ويغطي الأبلق واجهات الغرف المطلة على الصحن ضمن صفوف مختارة •

وثمة زخرفة خاصة بالنوافذ وهي المسماة « بالمعشق » ، ومؤلفة من شبابيك جصية مفرغة بأشكال هندسية أو لينة أو تشبيهية ، ويغطى كل فراغ بزجاج ملون متناسق مع الألوان الأخرى •

ان الغرض من هـذا الشباك المعشق هو الاستفادة من النـور الخارجي لتزيين بعض المساحات بألوان ضوئية جميلة ، ولقد اشتهر هذا النوع من الزخرفة في اليمن وفي السعودية وفي بلاد الشام وكان في بدايته مجرد ألواح جصية مفرغة دون زجاج •

ولا بد أن نتحدث عن زخرفة الصحن الداخلي ؛ زخرفة الأبواب والبرك الخارجية والأعمدة ، فالبلاط في الصحن هو أحجار ملونة منسقة أو بلاطات من الرخام المشقف ، أما الأبواب فلقد كانت تحفة بذاتها ، فهي من الخشب (الخيط العربي) وحشواتها قد تكون من الربام المجزع • والبرك الخارجية ذات أشكال جذابة ومحلاة بنافورات معدنية ومساقط مياه برونزية ذات أشكال حيوانية أو تجريدية •

وتعتبر هذه المساقط مع سقاطات الأبواب الخارجية من التحف البرونزية التي يزهو بها البيت العربي •

ان الغرض من زخرفة البيت العربي هو أن يكون الفردوس الخاص لساكنه ، الفردوس الذي يذكره دائما بثواب عمله الخبز اليومي والذي يوحي اليه بالسعادة والطمأنينة ويجعله في عالم فني كامل يحقق لـه الفرح والمتعة .

الفصل السابع

الفنون الشاميّة

بداية الفن التشكيلي
في بلاد الشام

الفنون التطبيقية الشاميّة

الفنون الشاميّة

الفنون الشامية

بداية الفن التشكيلي في بلاد الشام

تأثر الفن الاسلامي في بداية تكونه في بلاد الشام بالفن الساساني والفن البيزنطي ، ومن مظاهر اتصال الفن الاسلامي في بدايته بالفن الساساني ما نراه في زخرفات قصر المشتى من تفريعات للمراوح النخيلية ومشتقاتها ، وما نراه واضحا وبصورة مشتركة مع التأثير البيزنطي ، في العمائر الاسلامية الأولى •

أما تأثير الفن الشامي الكلاسي ، فلقد كان واضحا في مجال الزخرفة في استعمال نبات الاكانت (شوكة اليهود) ، وورقة الكرمة التي كانت أكثر الصيغ الزخرفية شيوعا في الفن المسيحي الشامي ، وكان هـذا الفن قد استمدها من الفن الهلنستي والروماني ، ثم أمد بها الفن القبطي في مصر بشكلها المسنن وصيغتها الزخرفية المحضة • ثم تطور شكل هذه الصيغ النباتية ، حتى ابتعد كثيرا عن أصله الكلاسي ، لكي يظهر بطريقة جديدة في العهد الاسلامي مندمجة مع شخصية الفن الجديد ، حيث بدت هذه الصيغ مختلطة مع غيرها من الصيغ النباتية التي تبدو بوضوح في واجهة قصر المشتى •

ويلاحظ اشبنغلر[1] هذا التحول واضحا في التاج الكورنثي الذي

---

(١) عبد الرحمن بدوي : اشبنغلر ص ١٣٤ •

يقوم على تأويل ورقة الاكانت ، فقد تغير شكل هذه الورقة على يد الفنانين الشاميين اذ حولت الى شبكة من الخطوط الزخرفية البحتة ، بحيث أصبحت تملأ المسطحات كلها بطريقة غير عفوية •

واستمرت تقاليد الزخرفة المسيحية الشامية سائدة حتى ظهرت في الفن الأموي ، وتبين ذلك بمقارنة الزخرفة الاسلامية بالحشوات العاجية التي تزين كرسي الأسقف مكسيمليان في رافينا ، وهي حشوات مسيحية شامية ، تبدو فيها طريقة الحفر المحلاة بفروع الكرمة والزاخرة بأشكال الحيوان والطيور النافرة على خلفية مفرغة •

ولعل الزخارف النحتية الموجودة في واجهة قصر المشتى الأموي وهي من أهم الآثار الشامية الاسلامية الأولى ، تقدم لنا حجة قاطعة على تبلور الشخصية الفنية المحلية ، وخاصة في الزخارف المؤلفة من أشكال الحيوان والطيور والأشكال الآدمية ، والتي صيغت وسط تفريعات من سيقان الكرمة ، وهذه الزخارف تعبر عن استمرار الشخصية الفنية السورية التي كانت سائدة ، ولا علاقة لها بأي تأثير ساساني • أما المجموعة الثانية وتشمل مثلثات توجد على يمين المدخل فليس فيها أثر لصيغ تشبيهية بل لقد غلب على تفريعات سيقان الكرمة صيغ تجريدية تستند في أسلوبها الى الطابع الرافدي • ويؤكد هرتزفلد أن هذه الزخارف تكشف عن وجود أسلوب جديد تصح تسميته بالأسلوب الأموي • على أن هذا لا يمنع من استمرار وجود تأثيرات هلنستية نراها واضحة في الزخرفات الخشبية في المسجد الأقصى ، حيث نرى تعبيرات عن الاكانت وتفريعات من الكرمة تماثل الموجود في

فسيفساء قبة الصخرة أو في الجامع الأموي الكبير ، أو في الزخارف النحتية الموجودة على تيجان عثر عليهـا في الرقة محفوظة في متحف المتروبوليتان .

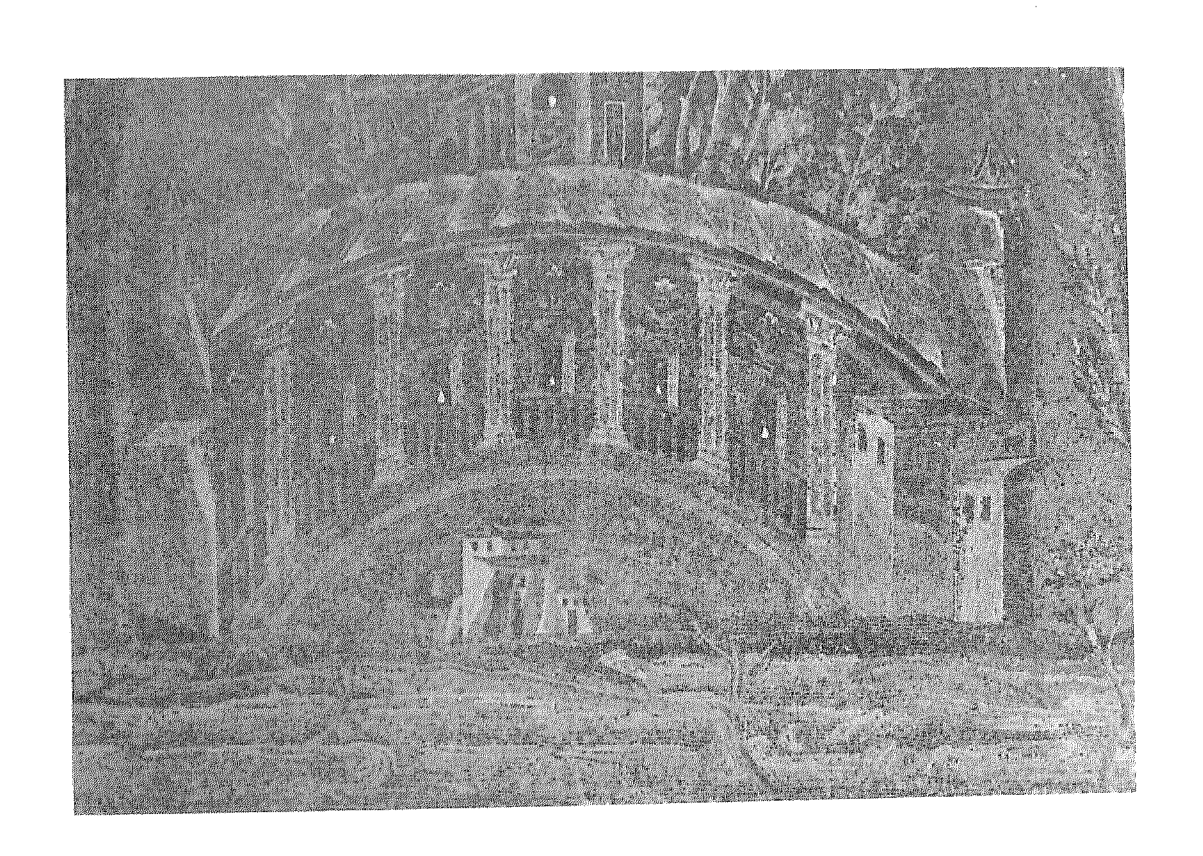
ومما لا شك فيه أن نظام الزخرفة العربية (الارابسك) وقواعدها ، هو ارث محلي قديم حيث نرى الزخارف ذات مستوى واحد وتكسو السطح كله ، كأنما هناك خشية من استقرار الشر ، وهو اعتقاد قديم استمر سائدا في الفن الاسلامي . كما نرى الزخارف منتظمة في خطوط عمودية على خلفيـة غائرة مما يعطي تأثيرا جماليا جذابا مستمدا من التباين بين الضوء والظل ، ولقد طور الفنانون المسلمون فيما بعد هـذه المبادىء تطويرا هاما لا حدود له .

الفسيفساء

لا شك أن العناصر التزيينية الفسيفسائية الموجودة على جدران المسجد الكبير في دمشق ، وعلى جدران قبة الصخرة في القدس تبقى من أهم آثار الزخرفة الاسلامية في نشأتها . ومما لا شك فيه أيضا أن هذه الزخارف قد أنجزت من قبل سكان البلاد من أهل الشام ، ممن برعوا في هذه الصناعة الفنية[1] .

فلقد أكدت فان برشيم Van Berchem أنه « نظرا لأن العمارة الاسلامية الشامية في نشأتها كانت قـد تميزت بوضوح عن العمارة البيزنطية ، فان جميع الدلائل تدفعنا للاعتقاد أنه كان في الشام أيضا مدارس لتعليم الفسيفساء ، ولعل ثمة مصانع للفسيفساء »[1] .

(١) انظر كريزويل E. M. A ج ١ .



من فسيفساء الجامع الاموي الكبير في دمشق



من فسيفساء قبة الصخرة في القدس

« انني أعتقد جازمة أن العرب اعتمدوا على عمال الفسيفساء المحليين في الشام »[1] .

وهكذا فقد اشترك أهل الشام في اقامة تقليد تصويري محلي ، اذا كان مستمدا من الطرز الكلاسية والساسانية ، فلأن سلطان هذين الطرازين كان واسعا واستمر زمنا يزيد عن عشرة قرون ، لم تكن خلالها بلاد الشام تتمتع بسيادتها ووحدتها ، عدا أن الطراز الكلاسي ، لم يكن طرازا محليا قوميا خاصا ببلاد اليونان أو روما ، بل أصبح منذ فتوح الاسكندر نظاما عالميا نموذجيا ، ولقد كان الانتماء اليه ، طوعيا أو الزاميا انتماء للجديد الراسخ والجليل .

ويوضح ذلك ارتباط العالم الهلنستي والروماني والبيزنطي ، بل وعصر النهضة والكلاسية المحدثة ، بهذا الطراز الذي اتصف دائما بالقاعدية والثبات والترف .

على أن معطيات تكون الفن الزخرفي والتصويري الاسلامي ، كانت أوسع بكثير من معطيات الثقافة الكلاسية والساسانية . فالدين الاسلامي ، على قرابته من الدين المسيحي ، قد أكد على مفاهيم أساسية في تحديد مكانة الانسان من الله ، أو دور الخالق في تقرير مصائر الناس ، ودور المخلوق في عمليات الخلق ، مما وجه الفن التصويري نحو التجريد والرمز والتوريق والرقش .

فالله « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ، وهو الخالد « كل شيء هالك الا وجهه ، له الحكم واليه ترجعون » .

---

(١) انظر كريزويل نفس المرجع ص ١٥٥ .

على أن الدين الاسلامي قد حرّم عبادة الأنصاب من دون الله . وأن الرسول انما نهى عن مضاهاة الله في عملية الخلق . وتوعد المصورين بالعذاب يوم القيامة ، لتصويرهم الله صورة الأجساد[1] . فقد حرم الاسلام تشبيه الله بالكائنات « وليس كمثله شيء »[2] .

ولقد استطاع الفن الاسلامي أن يتطور نحو شخصية فنية متميزة عن سابقتها ، ذلك أن جيل الفنانين الذي ألف ممارسة الصيغ والصور حسب ارشادات الكنيسة البيزنطية أو القصور الساسانية ، قد حل محله جيل جديد ممن دخل الاسلام الى قلوبهم وعقولهم ، فأثر في مفاهيمهم وأذواقهم ، فكان انتاجهم أكثر تحررا من الصفات الموروثة وكثر ارتباطا بمفهوم جمالي جديد .

التصوير التشبيهي

ولم يكن الفنان الشامي ليتحاشى تصوير الوجوه والمخلوقات في عمله الفني ، فلئن فعل ذلك في قبة الصخرة والمسجد الكبير في دمشق ، فلأن هاتين المنشأتين الدينيتين تحتاجان ، بحكم صفتهما ، الى تزيينات مطلقة مجردة ، وحتى ما نراه من صور بيوت وأنهار وبساتين على جدران المسجد الكبير ، فانه يبقى رمزيا محرفا عن الواقع ، ولم تنجح جميع محاولات المؤلفين والمؤرخين لربط هذه الصور بمشاهد محلية أو بالكعبة أو بغير ذلك من الأماكن المعروفة في ذلك الزمان . بل انها كانت تمثل معنى الجنة .

لقد عاش المصور الشامي قبل الاسلام في بيئة مسيحية لم تنظر الى

(١) انظر كتابنا الفن والقومية ـ دمشق ١٩٦٥ ص ١٣ وما بعدها .

(٢) انظر بحثنا صورة الرب ، مجلة المعرفة العدد ٥١ .

الصور المشبهة على أنها أوثان ، ولم يخطر في ذهن الكنيسة الشامية أن تقدس الصور ، بل على العكس لقد قام الأباطرة البيزنطيون من أهل الشام من أمثال الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ ــ ٧٤٠) بمحاربة تمجيد الصور (الايكونوكلازم) ، بل كان هو أول من أصدر قرارا بتحريم التصوير عام (٧٢٦ م) خشية العودة الى الوثنية ، ثم جاء ابنه قسطنطين الخامس وأصدر القـرار الثاني ، وقاوم جميع المحاولات المضادة ، الى أن تمكنت تيودورا من تحقيق الاصلاح الاورثوذكسي[١].

وهكذا استمرت ممارسة التصوير التشبيهي في بداية الاسلام ، بل استمرت طيلة الحكم الأموي ، ولقد كان ظهور النقد الاسلامي عام (٧٥ هـ) وعليـه صورة عبد الملك بن مروان رغـم ورعـه[٢] ، من أوضح الأمثلة على عدم وجود مانع ديني يحول دون التصوير التشبيهي وخاصة تصوير الخلفاء ، وهكذا قام المصورون المهرة بتزيين جدران وبلاطات القصور ، بصور آدمية ملونة قريبة من الواقعية وقريبة من القواعد التشريحية وقواعد المنظور أحيانا ، مرتبطة برموز وموضوعات لعلها ذات أصل وثني ، تم ذلك في قصور الخلفاء أنفسهم ، مثل قصر الحير الغربي الذي أعيد انشاء واجهته في المتحف الوطني بدمشق ، ونقلت اليه اللوحات الفريسك التي تمثل فارسا قناصا وفوقه صورة موسيقيين ، عازف على الناي وعازف على القيثارة ، وثمة لوحة أخرى

---

(١) انظر كتابنا تاريخ الفن والعمارة ــ دمشق ١٩٧٠ ص ٢٣٣ .

(٢) يروي ابن الطقطقي في « الفخري في الآداب السلطانية » ــ القاهرة ١٩٢٧ ص ٨٩ ، ان الخليفة عبد الملك كان قبل الخلافة « احد فقهاء المدينة ، وكان يسمى حمامة المسجد لمداومته تلاوة القرآن » .

تمثل (جيا) آلهة الأرض يحيط عنقها ثعبان وفوقها مخلوقان عجيبان أطلق عليهما شلومبرجيه اسم (القنطورس البحري)[١] .

أما في قصير عمرة الذي اكتشفه موزيل Musil عام (١٨٩٨) ؛ فانه يحوي عددا من الصور الجدارية، بل تكاد تغطي جميع جدرانه صور تشبيهية ملونة تمثل مشاهد المصارعة والاستحمام ونساء عاريات ، ومجموعات من الأسر مع مشاهد عمارات ووجوه لعلها مستوحاة من الأساطير الوثنية . كما غطيت القبة من الداخل بالأبراج السماوية . وثمة مشاهد قد أتلفت مع الأسف ، وما زالت صورها التي التقطها أعوان موزيل موجودة حتى الآن ، منها ما يمثل الخليفة بوضع جليل وعليه كتابة عربية ناقصة يصعب استكمالها . والمشهد الثاني الذي تلف تماما فيما بعد ، هو مشهد الملوك الستة وقد ظهروا في صفين بحسب أهميتهم ، وقد كتبت أسماؤهم بالعربية واليونانية فوق رؤوسهم ، وهم امبراطور الروم البيزنطيين ، وشاه الفرس الساساني ، وردريك آخر ملوك الفيسكونت في اسبانيا ، ونجاشي الحبشة . ولعل الامبراطورين الآخرين ، هما امبراطور الصين وملك تركي أو هندي[٢] .

ويدعي بعض المؤرخين أن التأثير الهلنستي في التصوير التشبيهي الذي نراه في قصور الأمويين في بلاد الشام واضح ، ولكن المؤرخين من أمثال برهيه Brehièr ولامنس Lamens يجمعون على القول أن بلاد الشرق الأدنى كانت قد ابتعدت منذ البداية عن العناية بتصوير الأجسام واحترام علم التشريح وفق القواعد الهلنستية ، بل رجع

(١) انظر : R. Ettinghausen : La peinture arabe ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠ .

الفنانون الى أصول الفن الرافـدي يستوحون من قواعده الفنيـة والجميلة • وتبعا لهذه الآراء يتضح لنا أن التصوير الاسلامي في نشأته اتبع تقاليد محلية ، ومارسه فنانون محليون وفق تقاليدهم الخاصة ، ولم يمارسه الغرباء ولا حتى العرب الفاتحون ، ولم يتأثر هذا الفن بمحاولات منع التصوير التشبيهي التي ظهرت على ما يبدو فيما بعد •

أما في مجـال تصوير المنمنمات فان المدرسة العراقية اذ تأثرت بالأفكار المانوية ، حيث احتضن هـذا المذهب العقائدي والتصويري المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) ، فان المنمنمات السورية بقيت مرتبطة بتقاليد الفن المحلي التي حفظهـا المصورون الشاميون النساطرة واليعاقبة ، الذين استمروا في ممارسة تصوير الكتب الاسلامية وتذهيبها •

التصوير غير التشبيهي

ان شواهد فن التصوير والنحت في الشام كثيرة وافرة ، ولكن أغلبها يبتعـد عن التشبيه ومحاكاة الواقع ، ويجنح نحو التحـوير والتجريد • ولقد فسر هذا الاتجاه غير التشبيهي على أنه ميل أصيل لدى العربي وأسـلافه تجلى في الفن الرافدي والأموري والآرامي والكنعاني بصيغ محورة أو رمزية أو تجريدية زخرفية • ولقد أيد الاسلام هذا الاتجاه ، بل لعله تشدد في الاحجام عن تصوير ونحت الكائنات الحية تبعا للحديث الشريف « يعذب المصورون الذين يضاهون بخلق الله »[1] •

---

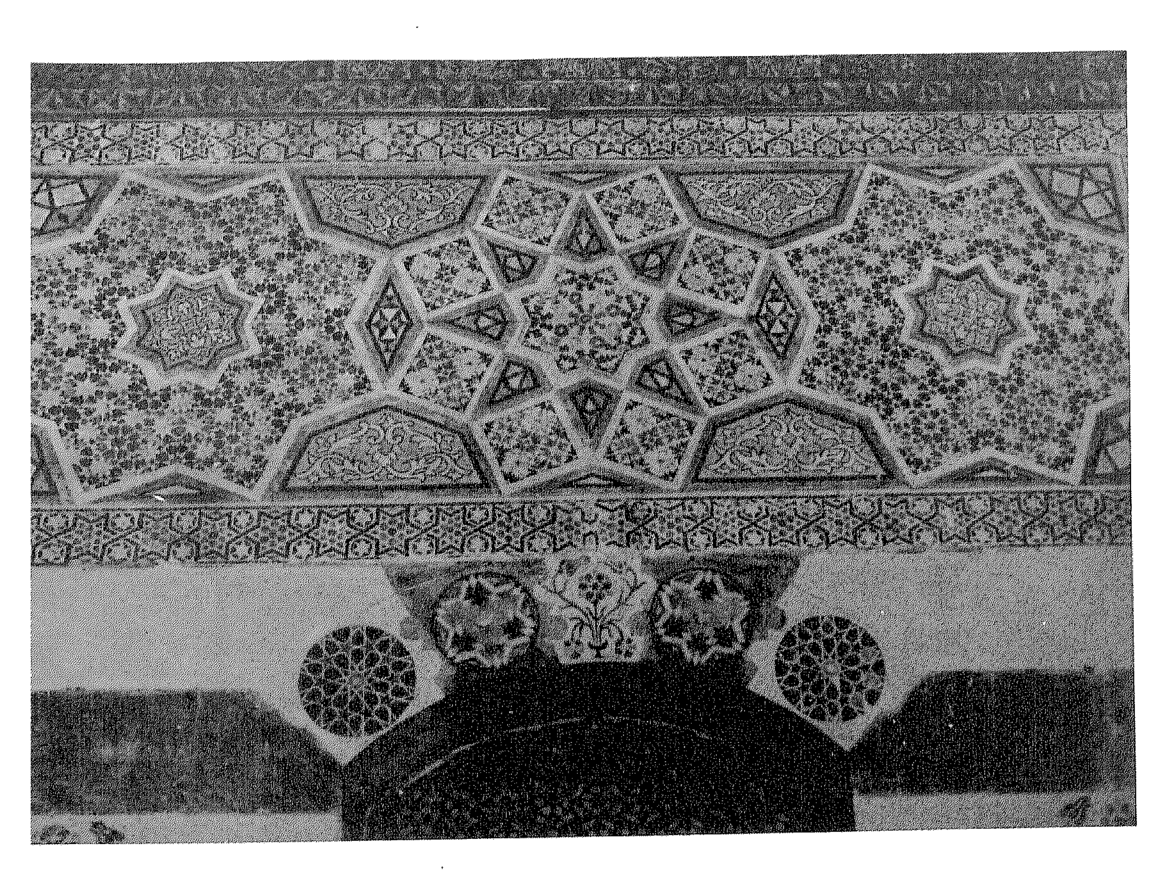
(١) انظر كتابنا الفن والقومية ص ٦٣ .

ولقـد مال المصورون المسلمون في الشام الى تصوير المشاهـد والأزهار والفواكه ، بأسلوب مبسط بدىء تجلت فيه البراءة والعفوية والخيال ، وبألوان زاهية جذابة ، ولكنهم برعوا في تكوين العناصر الزخرفية الهندسية والنباتية وتلوينها .

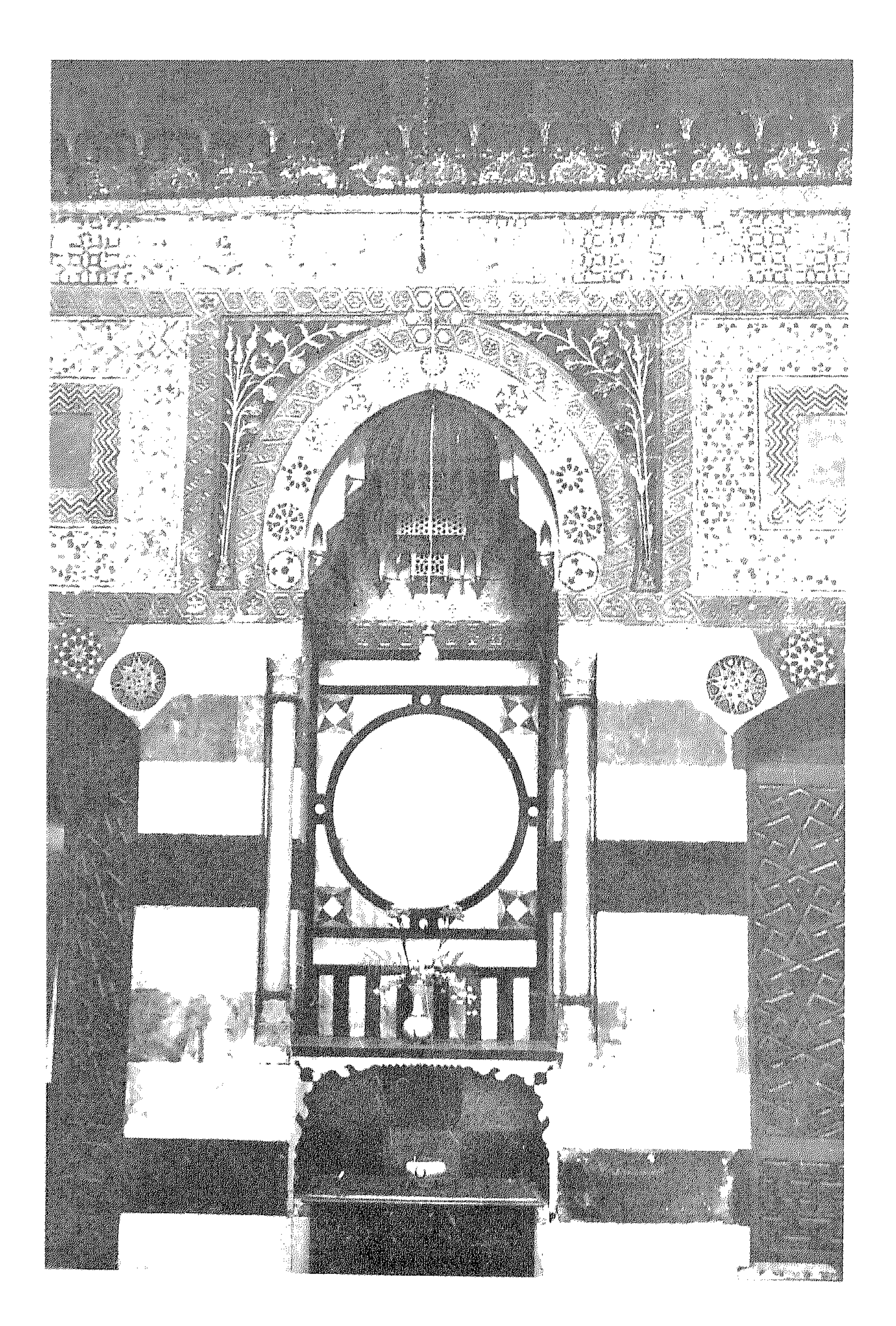
وهـذا الفن الذي حمل دائما التسمية العربيـة (ارابيسك) Arabesque ونطلق عليه اسم (الرقش) ، هو فن عريق يرجع الى ما قبل الاسلام ، ولكنه ازدهر منذ العصر العباسي واستمر خـلال الفاطميين والايوبيين والمماليك حيث بلغ ذروته .

ولقـد تجلى الرقش العـربي الى جانب التصوير التشبيهي في محاولات تزيين المنشآت المعمارية المساجد والقصور ، نرى ذلك واضحا منذ بداية الاسلام في مسجد بني أمية الكبير بدمشق ، وقصر الحير الغربي . واستمر شائعـا حتى العصر الحديث ، كما نراه متمثلا على الخشبيات التي تزين جـدران وسقوف القاعات . ولقد خصصت الحشوات لتكون ألواحـا لصور ملونة نافرة أحيانا ، بعضها يمثل زخرفات محورة مستوحاة من الغصون والأوراق والأزهار ، وبعضها ذو تشكيلات هندسية جابذة ونابذة مركزها شكل مضلع أو نجمة ، وتتفرع الخطوط اشعاعيا لتشكل تكوينا جذابا طريفا . وثمة حشوات أخرى كانت ألواحا لموضوعات تشبيهية .

ونحن نرى أمثلة هذه الألواح الزخرفية في أكثر البيوت الشامية التي ما تزال قائمة حتى اليوم ، ولعل أشهرها القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق ، وخشبيات هذه القاعة الأصلية أنجزت في عام ١٧٣٧ م



زخارف هندسية من الابلق ـ دمشق



زخارف حجرية وابلق ـ دمشق

ثم أعيد ترميمها عام ١٨٧٦ م • ولقد كان هـذا التقليد الفني شائعا في جميع المدن الشامية ويمتد من العصر العباسي ، حيث عثر في الرصافة على أجزاء من تخشيبات مماثلة • وفي متحف الدولة ببرلين مخشبات صالة حلبية ترجع الى عام ١٦٠٠ م• وتتوالى هذه الشواهد مماثلة في قصر العظم في دمشق عام (١٨٤٩) الذي يشغله متحف التقاليد الشعبية ، وقصر العظم في حماة (انتهى ١٨٣٠ م) الذي يشغله متحف حماة ، عدا عن الدور الشهيرة مثل دار السباعي ودار المجلد ودار نظام ودار جبري وغيرهـا في دمشق ، أو دار الدلال وبيت آجقبـاش في حلب[1] ، والكيلانية في حماة •

ومن أهم الأعمال التي أنجزت في مطلع هذا القرن ، زخرفة وتزيين الجامع الأموي بعد أن احترق كله عام ١٨٩٢ وأصبح أنقاضا متراكمة • ثم أعيد بناؤه بأموال الدمشقيين وتطوعهم العملي • واستمرت الأعمال الفنية فيه من عام ١٨٩٧ الى عام ١٩٥٩ ، وكان من أشهر المعماريين والمزخرفيين الذين اشتركوا في اعادة بنائه « الحموي ومعاونوه والتوام ، وملص واخوانه ، وان الذين نقشوه هذا النقش البارع الذي جاء على مثال النقش القديم وأربى عليه هم أولاد أبي نجيب الدهان الشامي العامي ، وانهم هم الذين صنعوا هذه الشبابيك الخشبية الثلاثة التي هي فوق المحراب والثلاثة المقابلة لها »[2] •

ولقد انتقل فن التزيين الملون على الخشب الى أبي سليمان الخياط وأولاده ومعاونيه من أمثال أحمد محفوظ ونادر أوضه باشي •

(١) أسعد طلس : الآثار الاسلامية والتاريخية في حلب ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

(٢) علي الطنطاوي : الجامع الأموي ص ٨٨ .

ان هذه النماذج وغيرها تشكل مجموعات رائعة من فن التصوير الزخرفي والتشبيهي ، مما يقدم لنا أمثلة عن الفن التشكيلي الشامي قبل تأثره الكامل بمفهوم الفن الحديث في العالم •

لقد جنح المصور حذرا الى الانتقال من الصيغ النباتية الزخرفية المحورة ، وهي الرقش بمعناه الاصطلاحي ، الى تصوير هذه النباتات بشيء من الواقعية • فهي اضمومة زهر أحيانا ، وهي مزهرية تضم باقة من الورد والأوراق ، ثم هي مشهد طاولة عليها مزهرية أو صحن من الفواكه مما يسمى اليوم بالطبيعة الصامتة • وقد تتضمن الصورة مشهد مدينة أو منظرا طبيعيا أو بحرا • كل ذلك بأسلوب بديء مبسط لا يقيم وزنا للدقة وقواعد المنظور والنسب ، وهذا ما يسمى اليوم بالفن الساذج Naïf أو بالفن المحلي Insitic وهو الفن الذي يعتمد على مشاعر فطرية لم تصقلها قواعد التصوير وعلومه ، ويمارسه هواة كونتهم الممارسة المستمرة التي ثبتت التجارب الأولى التلقائية •

التصوير على الزجاج

لا بد من الاشارة الى نوع من الفن الشعبي احتـــل مركزا هاما اليوم هو فن التصوير على الزجاج • ولقد رافق هذا الفن في بدايته ظهـــور القصص الشعبية وانتشارهـــا مكتوبة أو مروية بواســـطة (الحكواتي) الذي كان يتربع في بعض المقاهي ، يقص على الناس قصصا من ألف ليلة وليلة ، أو من الزيناتي خليفة أو من الزير سالم أو من أبي قاسم الطمبوري وعنترة وأبي زيد • « وهي قصص مأخوذة من التاريخ الاسلامي ، محورة جدا ، فلقد كانت المبالغات أساسا في اجتذاب الناس الى سماعها وقراءتها ، وهي مع ذلك روايات حماسية

عنترة بن شداد رسم على الزجاج

والجرأة وحفظ الذمام ورعاية الذمار والجار ... »(١) .

تمثل الشجاعة والكرم والانفة والحمية والوفاء والصدق ، والمروءة

وكانت هذه الروايات منسوخة أو مطبوعة وبعضها مزين برسوم على عادة الروايات المترجمة الى الفرنسية والالمانية والعربية كألف ليلة وكليلة ودمنة والتي زينها المصورون الاوروبيون بالصور التوضيحية . وتفنن المصورون السوريون في تمثيل بعض مشاهد هذه الروايات وفي تصويرها على صفحات مستقلة عن مخطوط الروايات ، أو على صفحات منفصلة تعلق في المقاهي حيث الحكواتي والمستمعون وأمامهم صور تجسد بعض ما يروى ويثار من مواقف بطولية حماسية .

ويتهافت الناس على هذه الصور الملصقة على الزجاج والمؤطرة بالورق أو الملونة مباشرة على الزجـاج بصورة معكوسة لكي تظهر صحيحة على الوجـه الآخر . وكان على المصورين أن يلبوا طلبات الراغبين فينسخون الواحدة تلو الأخرى بأسلوب متأن أحيانا أو متسرع في أكثر الأحيان ، وهكذا تبدو الموضوعات الواحدة على مستويات مختلفة من الجودة والدقة ، والعجيب أن النسخ الاخيرة لم تكن تنطوي على نضوج المصور بقدر ما تدل على تهافته وتعبه ، فهو يصور الخطوط مرسـلة دون اهتمام بالنسب وبالضروريات التشريحيـة في أجسام الأشخاص والحيوانات ، ثم هو يثبت الألوان مبرقشة تتجاوز الخطوط أو تقصر عنها ، ويحشد في الصورة ألوانا متباينة وينثر الكلمات بخط رديء مغلوط ومعكوس أحيانا ، ويشير الى الموضوعات بأسمائها هنا

---

(١) محمد كرد علي : خطط الشام ج ٦ ص ٢٨٦ .

(عنتر) وهذه (عبلة) وذلك (أبو زيد) ... كل هذا بأسلوب بدائي لا يسعفه قانون أو علم . ومع ذلك فلقد لاقى هذا النوع من التصوير رواجا فأقبل عليه السواح وبائعوا العاديات واقتنى منه أصحاب المجاميع الفنية . ولقد برزت في هذا المجال أسماء مصورين مثل « متولي » و « علي المصور »(١) و « حرب التيناوي » وابنه أبو صبحي التيناوي وأولاده الذين قاموا بصنع هذه الالواح الملونة والمذهبة والمكتوبة ، واستمر أبو صبحي(٢) يمارس هذه الصنعة ويربح منها كثيرا ، وهو قابع في مشغله في باب الجابية ، يأتيه الراغبون متشوقين لاقتناء بعض أعماله ، فيبيعهم دون أن تبدو عليه رغبة في استغلال شوقهم ورغبتهم في الاقتناء ، ودون أن يستجيب لأي علامة من علامات المديح والرغبة بالدعاية ، فهو يرفض الحديث مع الصحفيين ويرفض رواية حياته ويرفض تصويره ويكتفي ببيع انتاجه الوفير ، ولا يهمه أن يقوم بعض التجار بجمعها واحتكارها ورفع أسعارها ، كما لا يهمه أن تقام لأعماله المعارض في بيروت وفي باريس وفي لندن ، وأن تكتب الصحف العربية والأجنبية عنه ، فهو بعيد تماما عن أضواء الشهرة ، متنكر لأقلام النقاد والمدّاحة ، قانع بصنعته سبيلا للارتزاق وليس سبيلا للفن .

ومن المؤكد أن اهتمام المتذوقين في سورية وخارجها بهذا الفن يرجع الى ارتباطه بتيار واسع ظهر مع بداية الفن الحديث ، وسار باتجاه التعبير عن الحس الفني البريء من جميع المعطيات العلمية (والتي تجعل

---

(١) محمد علي المصور ولد في دمشق ١٨٨٠ وتوفي عام ١٩٦٣ وكان حكواتيا وكركوزاتيا وصاحب صندوق العجائب .

(٢) ولد ابو صبحي التيناوي في دمشق عام ١٨٨٣ وتوفي في اواخر نيسان ١٩٧٣ .

من الفن علما كما يقولون) • كما يرجع أيضا الى اعتبار هذا النوع من الفن أصدق معبر عن اتجاه محلي مرتبط بالفن الجداري والفن الديني والفنون القديمة التي تحدثنا عنها ، ويشكل معها وحدة مترابطة •

على أنه لا بد من فرز الأعمال الجيدة من هذا الانتاج اذ أن بعضا منه قام على النسخ الرديء أو التقليد التافــه ، ولقد دلت الأعمال الجيدة التي طبعت على بطاقات بريدية أو التي أصدرت على طوابع تذكارية على روعتها وأصالتها وأهميتها في دراسة تطور الفن التشكيلي في الشام •

وثمة نوع آخر من التصوير كان يتم على لفائف طويلة ويوضع بين قضيبين ليعرض ضمن علبة ذات نوافذ صغيرة اسمها « صندوق العجائب » • وفي متحف التقاليد الشعبية بدمشق لفافة طويلة من رسم وتلوين على المصور تعتبر مثالا صادقا لمستوى الفن في بداية هذا القرن•

كذلك ظهر فن الحفر على الخشب مستمدا من تأثيرات بندقية ايطالية ويبدو واضحا على صناديق الملابس وبعض الاثاث •

وشاع في الشام واستمر حتى عهد قريب فن التمثيل بخيال الظل (قره كوز) • والذي يهمنا من هذا الفن هو صناعة الشخوص التي تمثل أبطال القصص المروية والتي تتحرك بقضيب خلف ستارة مضاءة • ان هذه الشخوص هي عمل فني له أهميته وهي تصنع من الجلد وتلون وتقص وفق ترتيب معين ثم تربط مفاصلها بخيوط تساعد على تحركها • وأسلوب هذه المقصوصات هزلي بارع ، والشخوص بعيدة عن محاكاة صور كائنات سليمة ، بل هي كائنات تكاد تكون خرافية ، وان اقتربت

من الملامح البشرية الأصلية . ويمكننا أن نعتبر هذا الاسلوب أقرب الى السريالية ولكن مع الاحتفاظ بالطابع الشعبي الخاص .

ولا بد من الاشارة الى فن تصوير النوافذ وفق الاسلوب المسمى (الزجاج المعشق) ، ويتألف من ألواح مفرغة من الجص وفق تشكيلات زخرفية وتشبيهية مغطاة بقطع من الزجاج الملون . ولقد عاد هذا الفن الى الظهور مؤخرا بواسطة سالم الشوا في دمشق .

ولم يقتصر الفن التشكيلي على التصوير الجداري أو الزجاجي أو على الجلد ، بل لقد انتشر التصوير على النسيج، وهو فن شامي قديم ، ولقد عرف منذ عهد الفاطميين من المصورين «الغيبي الشامي» وآثاره ما زالت في جامع التوريزي بدمشق. واستمر هذا النوع من التصوير حتى اليوم وكان توفيق طارق ١٩٤٠ وعبد الحميد عبد ربه من المشتغلين بهذا النوع من التصوير ، وما زال زهير الصبان تلميذ طارق يمارس هذا النوع من الفن . وعدا ذلك هنالك فن التصوير على القاشاني وهي ألواح خزفية تنقش برسوم ملونة ثم تطلى بميناء وتشوى فتكون بلاطات جميلة اذا ما جمعت مع بعضها شكلت رسوما متكاملة أو زخرفة متتابعة ، ومن أقدم من اشتهر بهذا النوع من الفن (محمد الدمشقي) الذي يحتفظ له المتحف الاسلامي بالقاهرة بلوح كبير على صورة مكة المكرمة وفيها الكعبة وعليها اسم المصور وتاريخ الصنع ١١٣٩ هـ . والتوريزي الدمشقي وهو غيبي نفسه وسنأتي على ذكره .

وفي نهاية القرن الثامن عشر اشتهر اسم فاضل بن علي بن عبد الظاهر الزبداني الصفدي الذي ولد عام ١١٧٤ هـ وكانت له « مهارة

كلية في التصوير والنقش وتجسيم البلاد والعباد وله في ذلك العجب العجاب » كما يقول الكمال الغزي .

التصوير الايقوني

وثمة فن احتل مكانة عالية في تقدير المؤرخين وهو فن التصوير الديني أو الفن الايقوني .

ومن المعتقد أن منشأ هذا الفن الذي انتشر في أنحاء العالم المسيحي كان بلاد الشام ذاتها[1] ، وما زالت في كنيسة المهد في بيت لحم واجهة تمثل زيارة المجوس للمشرق ترجع الى بدوات هذا الفن . ثم انتقل هذا الفن عبر العالم عن طريق الحجاج . واهتمت به الكنائس تزين به واجهات المذابح (الايكونستاز) بمواضيع انجيلية ، تملأ حشوات هذه الواجهة بأسلوب صوفي شاعري رمزي . ولعل من أقدم الايقونات الشامية الشهيرة ، ايقونة العذراء الرحيمة سيدة دمشق والموجودة حاليا في كنيسة لافاليتا عاصمة جزيرة مالطة .

ولقد اتبع في تصوير الايقونات الشامية التقاليد المحلية ، وكان يوسف المصور وابنه نعمة الحلبيان من أبرز المصورين الذين وضعوا أساس أسلوب محلي أصيل منذ بداية القرن الثامن عشر[2] الا أن ظهور المصور اليوناني ميشيل الكريتي واقامته في الشام من عام ١٨٠٩ ـ١٨٣١ شكل تيارا غريبا في الفن الايقوني مارسه تلاميذه من المصورين، وهو يحمل الطابع اللاتيني القائم على النظام والبراعة . ولقد برز من أسماء المصورين الشاميين في ذلك الوقت جرجي المصور ونعمة ناصر

(١) انطون هبي : الصور المقدسة أو الايقونات ١٩٦٨ .

(٢) انظر دراستنا عن « الفن الايقوني السوري في القرن الثامن عشر » مجلة المعرفة السورية العدد ١٣٤ ص ١٢١ .



لوحة فنية ـ لداوود القرم

الحمصي وهما من الفنانين الحمصيين ، تركا عددا هاما من الايقونات دون أن تحمل طابعا متميزا ، وان كانت تميل أحيانا نحو الطابع الشعبي البدائي فتكون بذلك أكثر ارتباطا بالبيئة وأقرب الى الاسلوب المحلي ، ونرى ذلك واضحا في أعمال المصور بطرس عجمي وفي أعمال نعمة ناصر الحمصي نفسه .

الفن الحديث

ان ما أتينا على ذكره حتى الآن انما يتناول الفن بحالته الفطرية ولكن الفن التشكيلي الشامي عندما ابتعد عن الأغراض التزيينية والدينية التعبدية ، ابتدأ ينهل من مفهوم الفن العالمي ، وابتدأ ذلك في الساحل الشامي نظرا لأن حدود الشام قبل عام ١٩٢٠ كانت تشمل لبنان ، وهكذا فان الفنانين ظهروا في المناطق اللبنانية قبل ذلك التاريخ لا بد أن يكون لهم مكان لائق في تأريخ الحركة الفنية الشامية الحديثة خلال المائة عام الأخيرة[١] .

وفي مقدمة الفنانين الذين ظهروا في لبنان خلال القرن التاسع عشر[٢] نجيب يوسف شكري (من دير القمر) ونجيب فياض (من بيروت) وعبد الله مطر (من عبيه) ولقد هاجر الى مصر ونال فيها شهرة واسعة .

وفي أواخر القرن التاسع عشر ، ظهر شيخ الفنانين ، الأخ نعمة الله المعادي الذي درس الفن في بلجيكا ، ورئيف شدودي الذي أنهى حياته بتعليم التصوير في مدرسة الفنون في اسطنبول .

ثم ظهر فنانون آخرون اهتموا بمظاهر الحياة الوطنية ، منهم

(١) انظر كتابنا ــ الفن الحديث في البلاد العربية ــ طبع اليونسكو ١٩٨٠ .

(٢) صلاح كامل : الفن اللبناني ١٩٥٦ .

داوود القرم الذي درس الفن في روما عام ١٨٦٥ وحبيب سرور درس أيضا الفن في روما عام ١٨٧٠ وخليل صليبي درس الفن في انكلترا عام ١٨٩٠ ثم في فرنسا حيث تأثر بالانطباعيين وخاصة رنوار ، ثم سافر الى لندن وتأثر برينولدز ، ويعتبر أول فنان مجدد[١] .

وبعد الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان واهتمام الفرنسيين بالفنون المحلية ، ظهرت بوادر الحركة الفنية في المدن الداخلية مثل دمشق وحلب .

وكانت بدوات اللوحات الزيتية في الثلاثينات وبدوات النحت في الاربعينات وظهور فن الحفر في الخمسينات وفي الستينات ظهرت فنون الديكور والاعلان .

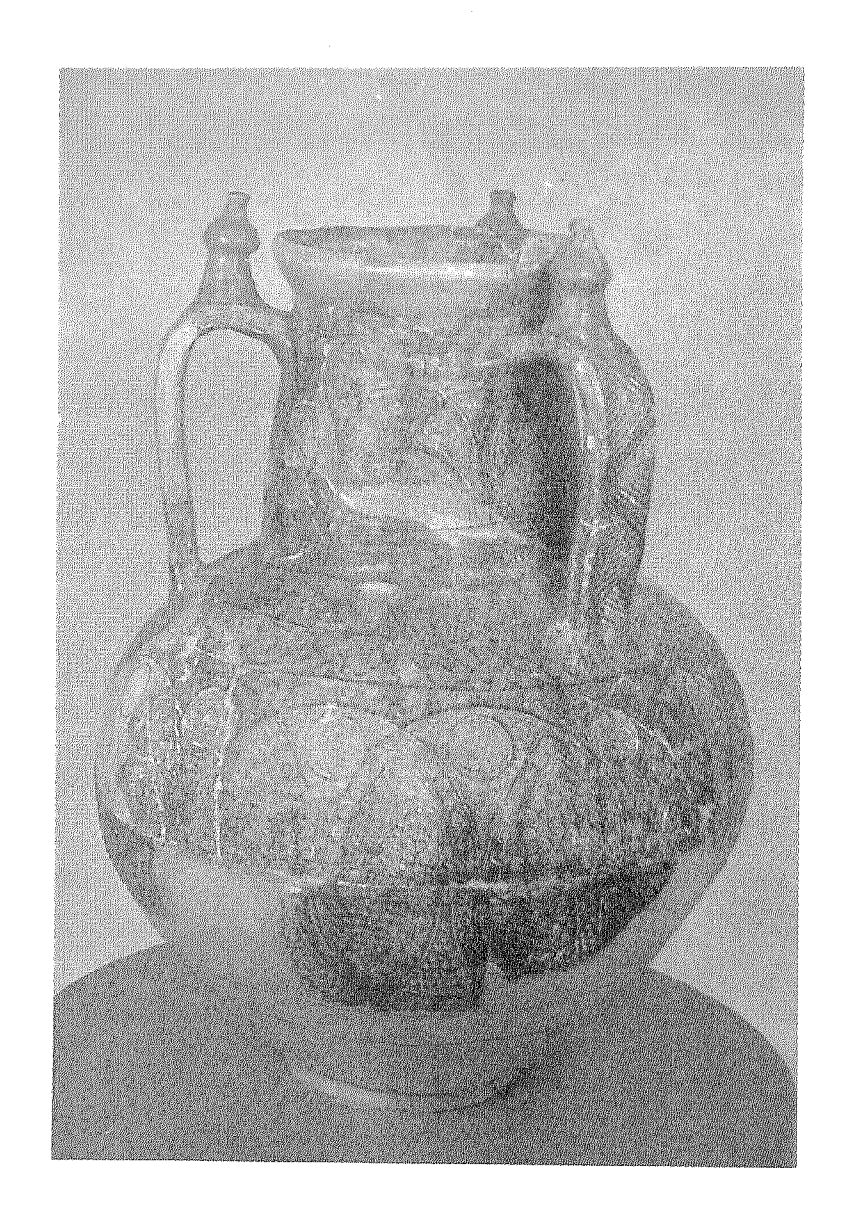
ومما لا شك فيه أن تقاليد هذه الفنون جاءت نتيجة تأثيرات عالمية تمت عن طريق الفنانين الأوربيين الذين وفدوا على بلاد الشام أثناء الانتداب الأجنبي ، أو جاءت نتيجة اطلاع الفنانين الشاميين الأوائل على تطور الفن في أوربا وأخذهم ببعض الأساليب الفنية الشائعة .

الخـزف

ما زلنا نجهل أخبار فن المعدن والنسيج والمنسمات في العهد الاسلامي الأول في بلاد الشام لعدم توفر الأدلة والشواهد حتى الآن . ولكن شواهد صناعة الخزف تبدو أكثر توفرا ، وهي وان كانت تحمل المعالم الساسانية أحيانا ، الا أن أشكال الأواني ورموزها الحيوانية

---

(١) انظر كتابنا « رواد الفن الحديث في البلاد العربية » نشر الرائد العربي — بيروت ١٩٨٥ .



انيه خزفية من القرن ٩ م

تجعلها أكثر استقلالا عن التقليد الساساني ، وان كانت الأصول التقنية متشابهة •

ومن أقدم الآثار الخزفية الشامية آنية محفوظة في المتحف الوطني بدمشق تحمل كتابة كوفية تنتهي بهذه الجملة (عمل يحيى بن أمية ، لصاحب الحيرة) وهي ترجع الى القرن الثامن الميلادي •

وكانت الرقة منذ اقامة الرشيد فيها (٧٨٦ ــ ٨٠٩) ، وحتى عصر متأخر ، مركزا هاما لصناعة الخزف ، ولقد عثرت بعثات العالمين الالمانيين زاره Sare وهرتزفلد Herzfeld في تلك المنطقة ، على كثير من بقايا الخزف التي ترجع على ما يبدو الى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر •

وخزف الرقة على أنواع ، منه ما كان ذا بريق معدني على شكل زهريات وأباريق وسلاطين وطاسات ، وألوان البريق المعدني السائدة هي البني الداكن ، وهو لون يميز خزف الرقة عن غيره ، وتزين هذا النوع من الخزف زخارف نباتية وكتابات نسخية أو كوفية وأحيانا رسوم طيور محورة وكانت الخلفيات ذات أشكال حلزونية •

وطريقة البريق المعدني التي ظهرت في الشام هي من ابتكار السلاجقة • وتنسب الى سامراء أو مدينة الري أو الى قاشان • ويصنع هذا النوع من الخزف من طفل أصفر نقي ، يغطى بطبقة غير شفافة من الطلاء القصديري ترسم عليها الزخارف بالأكاسيد المعدنية بعد حرقها للمرة الأولى ، ثم تحرق ثانية حرقا بطيئا جدا تحت درجة حرارة أقل من الأولى تتراوح بين (٢٥٠ ــ ٤٠٠) وعندئذ تتحول الأكاسيد المعدنية

باتحادها مع الدخان الى طبقة معدنية رقيقة جدا • وهكذا يصبح لون البريق المعدني الحاصل ذهبيا أو قريبا من الأحمر • وفي المتحف الوطني بدمشق زهريتان مزينتان بخطوط زرقاء ، وزهرية ذات عناصر نباتية وكتابية وجدت في الرقة ، وابريق جميل عثر عليه في شمالي الشام ، ومجموعات أخرى وأكثرها من صنع الرقة في العصر السلجوقي بين القرن ٢ ـ ٣ م • وظهر أيضا الخزف المسمى (الغبري) وهو اسم لعبدة النار ، ولعل هذا النوع من الخزف مأخوذ عن البيزنطيين السوريين ، وفي المتحف الوطني نماذج كثيرة من هذا النوع كصحن مزين بوعل وعدد من الزبادي المزينة بصور آدمية أو نباتية •

وانتشر في بلاد الشام أيضا وبكثرة وافرة الخزف المزين بزخارف ملونة تحت ميناء شفافة غير ملونة أو ذات لون أزرق ، وهو خزف كانت تتميز به الرقة أكثر من غيرها •

وظهرت في الشام أنواع من الخزف ذي أشكال تمثيلية كسراج خروف أو حمامة وجد بعضها في الرصافة وبعضها في الرقة ، وينسب الى دمشق خزف ذو بريق معدني على هيئة أوعية اسطوانية زخارفها أشرطة أفقية أو حلزونية من الزخرفات النباتية أو الكتابات الدعائية أو رسوم الطيور منها قدران كبيران في المتحف البريطاني ، وثمة تحفة محفوظة في متحف الكويت كتب عليها اسم صانعها يوسف برسم أسند اسكندراني من دمشق ، وتعود الى العصر المملوكي •

ويتصف خزف الرصافة التي ترجع الى عهد هشام بن عبد الملك ، بنفس صفات الخزف في الرقة القريبة من الرصافة ، فهو اما مزخرف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذو بريق معدني ، أو مزخرف برسوم بدون بريق وألوانه أقل قتاما وأقرب الى الاحمرار •

وفي عهد الفاطميين استمرت صناعة الخزف ذي البريق المعدني ناشطة في بلاد الشام • وفي متحف اللوفر سلطانيتان من صناعة الشام احداهما مزينة برسم أرنب والثانية مزينة بأشكال اللوتس وبكتابات عربية ، ويعتقد أنها من صنع دمشق • واستمر التقليد الشامي في التلوين الأزرق الفيروزي الذي تصطبغ خلفيته بلون ارجواني ، ثم أصبح اللون مخضرا في عهد المماليك • ولا بد من القول أن تقاليد صناعة الخزف التي ظهرت في الرقة والرصافة كانت قد انتقلت الى مختلف الديار الشامية والمصرية ، وانها استمرت سائدة في مختلف العهود الايوبية والمملوكية والعثمانية ، بل ان الصناع الشاميين نقلوا أنفسهم الى مراكز أخرى كالفسطاط حيث كرسوا تقاليد هذا الفن هناك •

القاشاني

ولا تختلف صناعة الألواح القاشانية في دمشق عن صناعة الأواني الخزفية في مادة الصنع والتلوين ، ولقد تم العثور على عدد كبير من الأواني الخزفية التي تعود صناعتها الى مشاغل دمشقية ، وهي موجودة في المتاحف والمقتنيات الخاصة ، اما الألواح الخزفية التي تغطي جدران المساجد والمدارس والتي صنعت في دمشق ، فانها ما زالت موجودة في أماكنها ، وقليل منها تسرب بسبب زوال المنشآت التي تتزين بهذه الألواح •

لقد كان ثمة من يعتقد أن هذه الألواح التي انتشر استعمالها في العصر العثماني ، هي من مستوردات تركيا وبخاصة ازنيك التي اشتهرت

وما زالت بهذه الصناعة ، وكان من انتاجها كميات ضخمة من الأواني التي توزعت في العالم ، وكميات ضخمة من الألواح التي زينت جدران القصور والمساجد في استامبول وادرنه وقونيه وبورصه •

ولقد ساعد على هذا الاعتقاد القرابة في الصيغ المستعملة بين الخزف الازنيكي والخزف الدمشقي • ولكن الدراسات الجديدة أكدت أن دمشق تقدمت بصناعة هذا النوع من الفن ، وكان فيها مصانع غزيرة الانتاج ازدهرت في الفترة بين القرن الثاني عشر والرابع عشر ، أي حتى اجتياح تيمورلنك لدمشق عام ١٤٠٠ م ومصادرته الخزافين الممتازين وارسالهم الى سمرقند • ثم استعادت ازدهارها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر •

وهناك اعتقاد بأن صانعي ألواح القاشاني في قبة الصخرة في القدس هم من العمال المحليين ، بل ان السلطان العثماني سليم استعان بالخزاف عبد الله التوريزي ١٥٥٢[1] لانجازها •

علما أن زخرفة جامع وتربه التوريزي في دمشق ١٤٢٣ م قد زينت بأروع القاشاني من صنع « غيبي التوريزي » الفنان الشهير ، ومن أعماله بعض الألواح المحفوظة في المتحف الوطني بدمشق ، وهي ترجع الى العصر المملوكي • ومن روائع القاشاني ألواح الجامع الأموي التي تسربت بعد حريق عــام ١٨٩٣ ، وبعضها موجود في متاحف لنــدن ونيويورك والقاهرة ودمشق[2] •

(1) A. Lane : Early Islamic Pottery

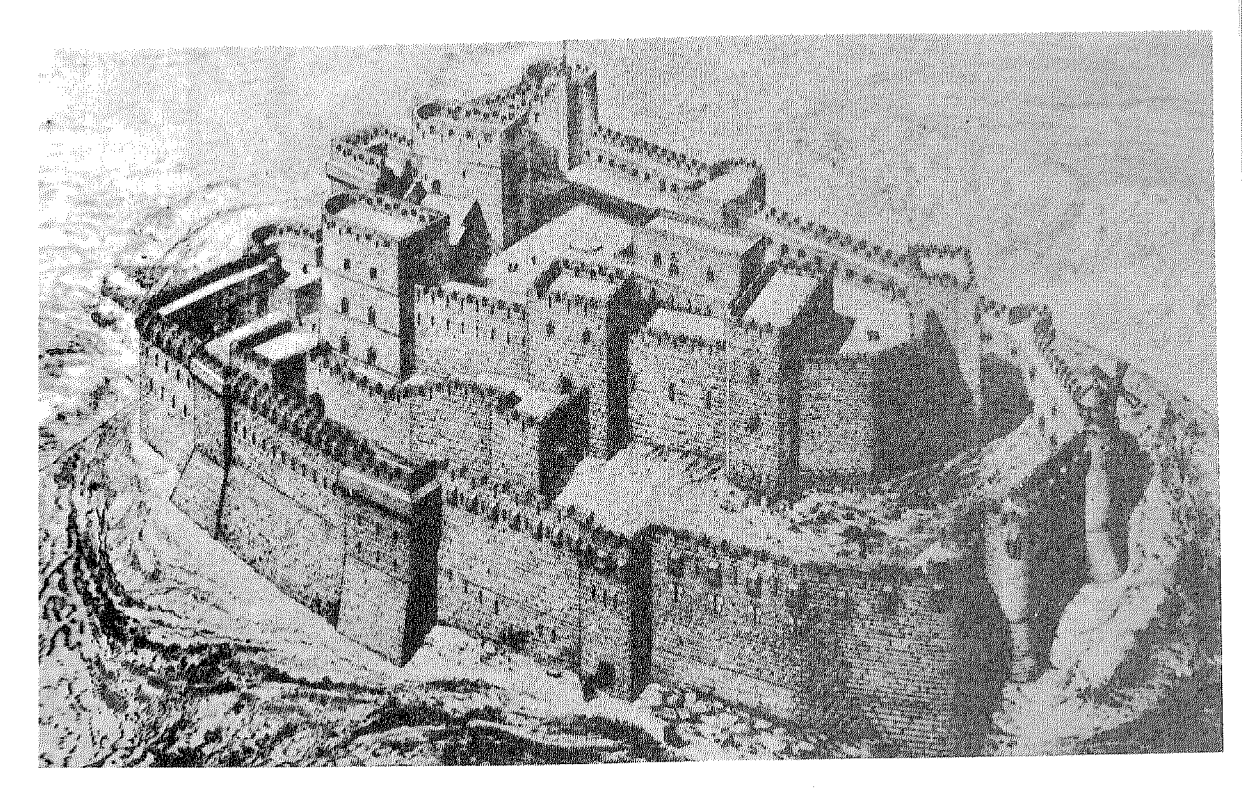
(٢) انظر دراستنا عن الواح القاشاني الدمشقي ـ الحوليات الاثرية المجلد ٣٤ •



الواح قاشاني ـ صناعة دمشق



الواح قاشاني ـ صناعة دمشق (التكية السليمانية)



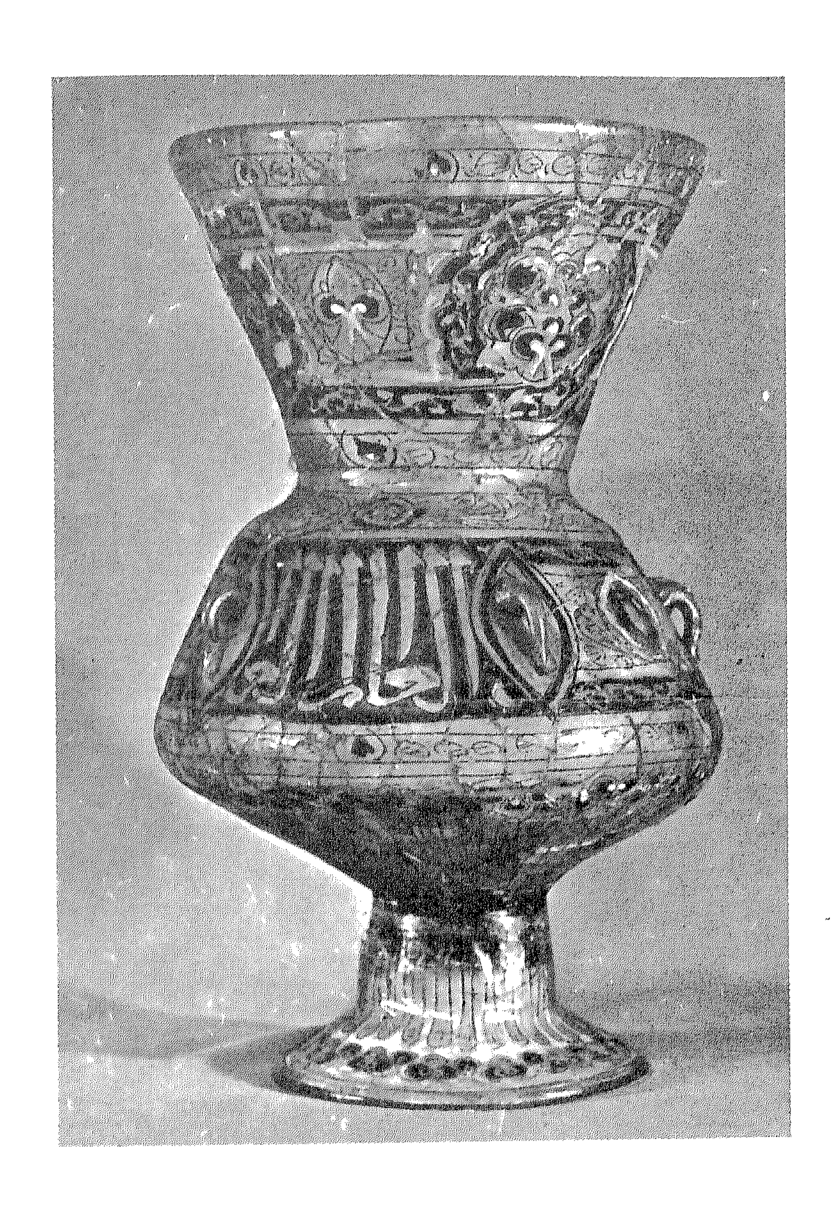
قلعة الحصن

وفي العصر العثماني ازدهرت صناعة ألواح القاشاني الشامي في دمشق خاصة ، ونرى نماذج كثيرة من ألواح القاشاني في مسجد التكية والدرويشية وجامع السنانية وحمام القيشاني بدمشق ، ومدفن صلاح الدين وجامع محي الدين بن عربي • ويمتاز القاشاني الدمشقي بألوانه الباردة ، الأزرق الكوبالت والأسود والأخضر والارجواني والباذنجاني، وغياب اللون الأحمر البندوري ، مما يميزه عن ألواح ازنيك • أما مواضيعه فتمتاز بالدقة والغنى والكتابات الفنية •

الزجاجيات

أما الزجاج فلقد كان من المكتشفات الفينيقية التي استمرت فيما بعد، واشتهرت في العصر الاسلامي الأولي باسم الزجاج الفينيقي وخاصة في الفسيفساء الزجاجية الموجودة في قبة الصخرة والمسجد الأموي ، وفي صناعة الشمسيات والقمريات التي كانت قد استعملت في قصر الحير الغربي • أما الأواني الزجاجية فلقد كانت على شكل قوارير وأباريق وكؤوس وحقق ، ولقد عثر في جبل أسيس بين أطلال القصر الأموي على كثير من الشواهد الزجاجية التي ترجع ولا شك الى القرن الثامن الميلادي ، والتي تقدم لنا فكرة واضحة عن تطور أشكال الأواني الزجاجية وتطور صناعتها ، فهي ذات ألوان زرقاء أو خضراء بعضها شفاف وبعضها عاتم • وفي الرقة عثر على قدح من الزجاج ذي البريق المعدني كتب عليه صنع في دمشق ويرجع الى القرن التاسع ميلادي •

ولقد تحددت شخصية النسيج الشامي الاسلامي بنفس الطريقة التي تحددت فيها شخصية النقد ، ذلك أن المصادر الساسانية والبيزنطية تجمعت في شخصية محصلة لم تلبث أن افترقت عن أصولها لكي تولد



آنية زجاجية ـ مشكاه ـ صناعة دمشق ـ القرن ١٤ م

متميزة تحمل اسم مكان صنعها (دامسكو) متنقلة عبر العالم بزهو واعتزاز .

المنسوجات

ومع أن الساسانيين أنشأوا مصانع للمنسوجات الحريرية ذاعت شهرتها في جميع بلاد الشرق الأدنى ، الا أن شاهبور الأول كان قد استقدم عمالا شاميين للعمل في مصانع نسيج خوزستان . ذلك أن الشام كانت قد اشتهرت بهذه الصناعة ، ولقد نشر بفيستر بحثا هاما عن المنسوجات التي اكتشفت في تدمر ودورا أوروبوس[1] . كما أن مجموعات من المنسوجات الحريرية الموجودة في المتاحف العالمية تنسب الى الصناعة الشامية القديمة ومن أشهر المجموعات قطعة محفوظة في روما نسجت عليها رسوم تمثل البشارة ميلاد المسيح ، وقطعة ثانية ، معروفة باسم نسيج ديوسكوري محفوظة بكنيسة القديس سرفاتيوس في ماستريشت ، كما توجد قطعة حريرية ثالثة تزينها مناظر صيد محفوظة في متحف المتروبوليتان ، ولقد جرت العادة أن تنسب رسوم هذه المجموعات الى الفن الساساني ، ولكن الاتجاه الصحيح الذي تبناه المختصون بالفن الاسلامي يرمي الى نسبتها لشخصية شامية[2] . وهي على أية حال شخصية فنية متطورة ، سنراها أكثر وضوحا في بدوات الفنون الاسلامية .

المعدنيات

وظهرت صناعة التحف المعدنية كتقليد راسخ في بلاد الشام ، وانتقلت تقاليد هذه الصناعة الى أوربا وخاصة الى البندقية التي كانت مركز هذه الصناعة ، وكان الصناع الشاميون أول من مارس في

---

(1) R. Pfister : Nouveaux textiles de Palmire . 1937

(٢) انظر ديماند : الفنون الاسلامية ، ترجمة احمد محمد عيسى .

البندقية ذاتهـا هذا الفن ، ومن التحف الباقية عـدد من الصواني والسلطانيات عليه اسم أحد الفنانين الشاميين (محمود الكردي) .

السيف الدمشقي

عرف السيف عند العرب كأداة أساسية للدفاع عن النفس والقتال وحمل أسماء كثيرة كالحسام والصمصام والمهند والصارم .

ويصنع السيف العربي من الحديد فيقال له السيف الأنيث ، أو من الفولاذ ، أو من الحديد ورأسه من الفولاذ ويقال له السيف المذكر[1].

وخلافا لما هو معروف وشائع فان السيف العربي الأول كان مستقيما وذا حد وحيـد ، ويحدثنا الشعراء عن سيوف ذات حدين في قسمها السفلي ، كما يتردد الحديث الذي رواه الرسـول في معركة بدر ، « لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي » ، وقد أصبح هذا الحديث منقوشا على أكثر السيوف .

ولقد عدد الكندي[2] من أنواع السيوف خمسة وعشرين نوعـا تتبع تسميتها لنوع الفولاذ فيها والمكان الذي صنعت فيه ، كالسيوف اليمانية والقلعية والهندية وهي سيوف كريمة « عتيقة » ثم السيوف الخرسانية والبصرية والدمشقية والمصرية والكوفيـة وهي سيوف « مولده » . أي أن فولاذها مصنوع حديثا[3] .

---

(١) ان تقسيم المعادن الى مؤنث ومذكر جاء عن قدماء الصين الذين قدسوا عملية صهر المعادن فلا يقوم بها الا الورعون ، ولقد اطلقوا صفة الانثى نرماهن او ارمهان والفولاذ بـ شابوركان او شبرقان .

(٢) رسالة الكندي ، السيوف واجناسها طبعة ليدن ٢٨٧ .

(٣) انظر مقالنا :

LaFabrication de l'Epée de Damas Syria T. LIII

والسيف العربي مختلف القياس بحسب المقاطعات التي انتشر فيها العرب ، وكان له في كل منها أوصاف خاصة ، وهكذا لم يكن للسيف العربي صفات موحدة كما يقول ستون[١] .

ولقد صنعت السيوف العربية قبل الاسلام في أراضي مؤاب وعرف السيوف باسم المشرفية ، وفي نفس الوقت كانت تصنع سيوف عربية عند المناذرة في الأبله وهي قرية صغيرة على الدجلة في العراق ، كما كانت بصرى الشام عاصمة الغساسنة تصنع سيوفا ذكرها الشعراء منسوبة الى قرية تسمى أريح[٢] .

وفي حمير عرفت السيوف اليمانية الشهيرة التي امتازت بمرونتها وحسن صناعتها ويصف الكندي[٣] السيوف اليمانية فيقول : ويصل طول السيف اليماني العتيق أربعة قدود ، ومنهـا العريض الأسفل المخروط الرأس المربع السيلان تربيعـا مخروطا الى طرف السيلان ويجرى على نصله أربع شطب[٤] ، منها المخفور ، وهو الذي شطبه شبيهة بالأنهار مدورة الحفرة ، ومنها ما شطبه ذات زوايا مربعة . وتكون هذه الشطب متساوية في وجه السيف ، ومنها ذو ثلاث شطب . واحدة في الوسط واثنتان في الشفرتين .

وأكثر السيوف اليمانية يبلغ عرض نصلها ثلاث أصابع تامة ، ويبلغ عرض أقل ما يكون منها اصبعين ونصف اصبع .

---

(١) **G. C. Stone : A Glossary of the construction and use of Arms and Armory . Portland Maine 1934 , P. 535 .**

(٢) **الجواليقي : المعرب . تحقيق احمد شاكر ، ص ٥٩ .**

(٣) **نفس المرجع اعلاه .**

(٤) **السيلان هو الجزء القائم من نصل السيف .**

ولقد عني المسلمون باقتناء السيوف ، وكان للرسول (ص) سيوف مشهورة ، منها المسعور الذي ورثه عن والده ، والقضيب والبتار والحتف والمخزم والراسوب والعبد ، والقلعي « من القلع (أوكالا) في شمالي الهند وهي مشهورة بجودة أسلحتها »[1] •

وانتشرت صناعة السيوف بعد الاسلام في جميع البلاد العربية ومنها دمشق التي كان لصناعة السيوف فيها شهرة وامتياز • وازدهرت صناعة السيوف الدمشقية ابتداء من القرن العاشر الميلادي وكانت صناعتها تتم في دمشق وفق أسلوب خاص أطلق عليه اسم الدمشقة Damascinage بالفرنسية أو Damascining بالانكليزية •

وليس بين أيدي المؤلفين الذين تحدثوا عن السيوف العربية معلومات كافية عن مشاغل السيوف هذه ، وعن طريقة الدمشقة ، مما دفع بعض الباحثين الى الاعتقاد أن هذه التسمية لا تعني صناعة السيوف بل تجارتها •

الحقيقة أن صناعة السيوف قديمة في بلاد الشام وكانت معروفة قبل الاسلام ، ولعلها ابتدأت منذ عهد ديوقلسيان ، ثم برزت في العهد البيزنطي حيث كانت تحصل على الحديد من مناجم الأناضول في أماسيا وأضنة وكيليكيا العليا • ويتحدث المؤرخون العرب عن سيوف شامية اشتهرت في بصرى الشام عاصمة الغساسنة واستمرت رائجة بعد

---

(١) ؛ شطب السيف ج شطبه هي القنوات المحفورة على وجهي نصل السيف لتقلل من وزنه ولتجعله اكثر قوة وليونة .

الاسلام ، ويقول الكندي في وصفها أنها ذات شفرات حسنة ، مختلفة القدود من عراض ودقاق وقصار وطوال ، لم يطبعها أحد من صناع بصرى الا « سليمان » طبعها عام ٩٥ هـ وقطع العمل سنة ١٠٩ هـ . وتذهب عقد فرمذها بعد الطرح ويختفي جوهرها ، وكانت تحمل الى اقليم الجبال بايران وتباع بدينارين ونصف .

كما يتحدث الكندي[1] عن السيوف الدمشقية فيقول ، عرفت تلك بجودتها منذ القدم . وامتازت نصالها بقطعها الجيد ، اذا كانت على سقايتها الأصلية .. والسيوف الدمشقية أقطع جميع السيوف المولدة . وتتراوح أثمانها بين خمسة عشر درهما الى عشرين .

ويذكر الكندي في رسالته نوعا من السيوف يسمى سيوف الشراة ، التي تقع جنوبي بلاد الشام في البلقاء ، وهي سيوف نصالها من الحديد الأنيث (النرماهن) رقيقة طويلة .

واذا أضفنا الى هذه السيوف ، السيوف الحنيفية التي تنسب الى صانعها صخر بن بحر الأحنف بن قيس وكان من مشاهـير التابعة ، والسيوف الأريحية التي تنسب الى أريح في الشام ، والسيوف الديافية نسبة الى دياف في جنوبي البتراء حاضرة الأنباط ، فاننا نكون قد جمعنا أهم أنواع السيوف الشامية التي كانت معروفة قبيل الاسلام وفي صدره حتى عهد الكندي (٨٠١ ــ ٨٧٠) والتي كانت تصنع في مسابك خاصة أورد ذكرها ابن عساكر[2] والقلقشندي[3] وغيرهما .

---

(١) انظر : رسالة الكندي ، السيوف واجناسها طبعة ليدن ٢٨٧ .
(٢) تاريخ مدينة دمشق ــ ج ١ .
(٣) صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨٨ .

انتشار السيف الدمشقي

ومن أبرز نماذج هذه السيوف ، تلك التي كانت للخلفاء الأمويين وهي سيوف متميزة صنعها العمال الدمشقيون ، ما زال بعضها محفوظ في متحف طوب كابي سراي في استمبول من أهمها[١] :

١ ــ سيف معاوية وهو سيف مستقيم •

٢ ــ سيف عمر بن عبد العزيز مؤرخ في عام ١٠٠ هـ ومنقوش عليه اسمه واسم الصانع ولكنه غير مقروء •

٣ ــ سيف منقوش عليه تاريخ ١٠٥ هـ مع اسم هشام بن عبد الملك•

٤ ــ سيف مستقيم عليه اسم سعد بن عبادة من الصحابة مع كتابات ودمشقة متأخرة •

٥ ــ سيف عليه نقوش متتابعة لأسماء عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد والسلطان قايتباي •

ولقد استمرت صناعة السيوف الدمشقية رائجة معروفة في العهد العباسي تحدث عنها الكندي ووصف صناعتها تحت اسم الجوهر • ولكن هذا الوصف لم يكن كافيا للتعرف على أسرار الصناعة •

وانتقلت السيوف الدمشقية وطريقة صناعتها لى الأندلس[٢] ، ولقد عني عبد الرحمن الثاني (٨٢٢ ــ ٨٥٢) بتشجيع صناعة السيوف في طليطلة وفي الميريا التي قطنها الدمشقيون خاصة ، وتحدث عن سيوفها

---

(١) **Cladius : Etudes sur les armes enciennes - vol 1 - IX ..**
C . S : I . Ċ

(٢) **A. Bruhn : Arms and armour in Spain 1972**

المقري ، وقال أنه خلال القرن الثاني عشر فان الميريا كانت من أشهر المدن في صناعة السيوف والأسلحة وكذلك الأمر في اشبيلية ، فيما عدا قرطبة .

أما غرناطة فلقد اشتهرت بصناعة السيوف في عهد بني عبد الله في القرن الخامس عشر ، وفي المتاحف الاسبانية نماذج كثيرة من هـذه السيوف .

ولقد برزت مزايا السيف الدمشقي خلال الحروب الصليبية حيث كان السيف الصليبي بسيطا جدا وقصيرا ، ويصنع من الحديد المطروق أو من البرونز ، في حين كان السيف الدمشقي مصنوعـا من الفولاذ الجوهر . فأخذ المحاربون الصليبيون يبحثون عن خصائصه وطرق صنعه ، وكانت المادة الأساسية التي يصنع منها هي الفولاذ الدمشقي الذي تحدث المؤرخون في ذلك الوقت ، وأوضحوا افتراقه عن الفولاذ الهندي ، مما يدفع كل شك في أصوله .

وهكذا انتقل السيف الدمشقي الى الغـرب عن طريق الصليبيين كلمة Damascining لكي تعني السيف الدمشقي ، كما اشتهرت صناعة السيوف الدمشقية تحت اسم Damascinage .

ولقـد تعرضت صناعة السيف الدمشقي منذ عـام ١٤٠٠ الى الانحطاط بفعل ثلاثة عوامل هي :

غزو تيمورلنك وانتقال الصناع السوريين المهرة الى أصفهان ووفرة الفولاذ الصناعي .

وعندما جاء الغزو التتري العنيف قام تيمورلنك بأسر جميع العمال الفنيين في سورية ، وبخاصة صناع السيوف المهرة الذين نقلهم الى سمرقند منذ عام ١٤٠٠ م ساعيا من وراء ذلك الى اضعاف صناعة السلاح في بلاد الشام واحيائها في بلاده ، مما أدى بهذه الصناعة الى الاضمحلال والغياب .

ثم ظهر الشاه عباس (١٥٥٧ ــ ١٦٢٨) الذي ضم العراق الى ملكه واهتم بالعمران والفنون والصناعات ، واستجلب لذلك الصناع المهرة من جميع البلدان وخاصة من بلاد الشام، وتشهد أصفهان على آثار هؤلاء الصناع في ذلك العهد . ومن المعتقد أن السيف الايراني (الشمشير) الذي اشتهر بخاصة في عهد الشاه عباس وبعده ، كان محاكيا للسيف الدمشقي ، فلقد حدثنا السيد عصام العاني عن مخطوط هندي بالاردية موجود في لندن ووعدنا بتصويره . ويتضمن شرحا عن حياة أسد الله الأصفهاني ، ويذكر أن اسمه الصحيح هو « علي أكبر ». وأنه استعار اسم أسد الله من اسم صانع دمشقي شهير اسمه أسد الله الدمشقي ، ولقد حصل السيد عصام العاني على سيف منقوش عليه اسم أسد الله الدمشقي هذا وأطلعنا عليه . ولا بد من التذكير من أن اسم أسد الله أصبح أشبه بالماركة ، استمر استعمالها خلال قرنين .

ومع ذلك فلقد استمرت صناعة السيوف والنصال في دمشق حتى القرن الماضي ، ثم انقرضت هذه الصناعة عندما بدأ الفولاذ الأوربي الرخيص الثمن والذي تقل جودته عن الفولاذ الدمشقي يغزو أسواق الشرق[1] .

---

(١) د. احمد يوسف الحسن : صناعة الفولاذ الدمشقي محاضرة في حلب ١٩٧٢ .

وانقرض صناع الفولاذ والسيوف الدمشقية وانطوى سر هـذه الصناعة الشريفة التي تميزت بهـا دمشق عبر العصور ، وكان على الباحثين التنقيب وممارسة التجارب لكشف أسرار هذه الصناعة وتحديد مميزاتها التقنية المعدنية .

لقد كانت صناعة الفولاذ الجوهر قديمة في البلاد العربية . ولقد تحدث الكندي عن ذلك في السيوف اليمانية فقال[1] :

« ولا تكاد تخلو السيوف اليمانية من الفرند ، وهو الجوهر ذو اللون الذي يميل الى السواد ، يشبه العروق في تناثرها على النصل . وقد توضع عليه الرسوم والتماثيل وتكتب عليها الأسماء لتخفي أثر الفرند » .

اسرار الدمشقة

قبل الحديث عن أسرار الدمشقة في صناعة السيوف لا بد من التأكيد على حقيقتين ، الأولى أن العرب عرفوا صناعة الفولاذ في البواتق ، وثانيا أن الفولاذ الدمشقي هو غير الفولاذ الهندي Wootz .

ويتحدث الجلدكي في شرحه لكتاب الحديد لجابر بن حيان عن صناعة الفولاذ فيقول : « وأما أصحاب الفولاذ ، فانهم يأخـذون قضبان الحديد ويجعلونها في مسابك لهم مناسبة لما يقصدونه في معامل الفولاذ ويركبون عليه الأكوار ، ويطيلون عليه النفخ بالنار ، حتى يصيرونه كالماء الخرار ، ويطاعمونه بالزجاج وبالزيت المغلي ، حتى يظهر منه النور في النار ، ويتخلص من كثير من سواده بقوة السبك مدى الليل والنهار ، ولا يزالون يرتقبونه في دورانه بالعلامات حتى

(1) رسالة الكندي ، السيوف واجناسها . طبعة ليدن .

يتبين لهم صلاحه ويضيء منه مصباحه فيصبونه في مجاري حتى يخرج كأنه الماء الجاري ، فيجمدونه كالقضبان أو في حفر من طـين مخدرم كالبواطق الكبار • ويخرجون منه الفولاذ المصفى كبيوض النعام ، ويصنعون منها السيوف والخوذ وأسنة الرماح وسائر العدد •

ان وصف الجلدكي يبقى كافيـا لتأكيد صناعـة صهر الفولاذ والحديد من مواده الخام ، في بلاد الشام ومصر حيث عاش • وهو ينفي اعتماد صناع السيوف على الفولاذ الهندي ، فلقد تأكد للباحثين أن صناعة الفولاذ في البواطق (أو البواتق) قديمة في بلاد الشام ، واذا كانت موجودة أيضا ومنذ القدم في الهند ، فان ذلك لا يعني أن الفولاذ الدمشقي هو نفسه الفولاذ الهندي الذي أطلق عليه اسم ووتز Wootz [1] فلقد فرق العرب دائما بـين الفولاذ الهندي والفولاذ الدمشقي •

ولكن من المحتمل أن دمشق خاصة كانت تستورد الحديد الخام من الهند كما كانت تستورده من الأناضول بالاضافـة الى الحديد الموجود في مناجم الشام وبيروت والزبداني والبقاع وبشري[2] •

فلقـد ذكر غودال أن النصال الدمشقية كانت تصنع من حديد مناجم كوناساموندروم Kona Samundrum في حيـدر آباد وكان ينقله التجار الفرس الى دمشق ، وكان هؤلاء يعنون بانتقاء الخامة

---

(١) تعني كلمة Woolz الفولاذ المتفحم ذو الفرند .

(٢) Goodale : Chronology of Iron and Steel P. 26

الجيدة ، ويغسلونها ويحمصونها أحيانا ، ثم يوقدون عليها بالفحم الخشبي في بواتق ، ويتركونها تبرد ببطء • ويلي ذلك الطرق والسقاية حتى يتم صنع النصال الرقيقة • وكانت المواد التي تخلط بالحديد خالية من الكبريت والفوسفور ، وتحوي على القليل من النحاس الأحمر » •

وهذا شرح واضح لأصالة صناعة السيوف الدمشقية ولا يطعن في هويتها استيراد الحديد الخام من مناجم الهند •

ولكن هذه المعلومات عن صناعة الفولاذ التي أوردها الجلدكي لم تكشف لنا بعد عن سر الفولاذ الدمشقي ، لأنها لم تتناول في وصفها ذكر المواد العضوية التي تضاف الى الحديد عند صهره •

ولتوضيح ذلك لا بد من الرجوع الى مرجعين هامين : الأول مخطوط بعنوان (تبصرة الألباب في كيفية النجاة من الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام في العدد)[1] لمؤلفه مرضي بن علي الطرسوسي ، الذي عاش في دمشق والقاهرة خلال القرن الثاني عشر وألف هذا الكتاب الحربي بتكليف من السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهو يتضمن شرحا لصناعة السيوف ، نقله عن الحكماء المتقدمين وعن من لا شبهة في حذقه من صناع هذا الفن من متأخرين •

ولأن الطرسوسي كتب هذا الكتاب عن صناعة السيوف وغيرها في ظل الأيوبيين ومن جاء قبلهم ممن وحدوا بلاد الشام ومصر ، فان ما قدمه من وصف يعني صناعة الفولاذ الدمشقي والسيف الدمشقي على اختلاف طرائق صنعته •

---

(1) حققه ونشره وترجمه كلودكاهن في مجلة :
Buletin d'Etudes Orientales T. XII 1947 . P - 106

وأما الكتاب الثاني فهو كتاب « الجماهر في معرفة الجواهر ، لأبي الريحان البيروني »[1] وهو يوضح بصراحة صناعة الفولاذ الدمشقي نقلا عن كتاب ألفه حداد دمشقي .

ونسوق أولا ما أورده الطرسوسي في مجال التعريف بطريقة صناعة الفولاذ الدمشقي فهو يقول :

« صفة عمل الفولاذ الصحيح : ومعناه بأن تضاف اليه في حين ، شبكة من العقاقير ما يخفف رطوبته ، ويكسبه يبسا يسيرا تعتدل به طبيعته ، وتنفي الترابية المفسدة لترويقه التي خالطته في المعدن . وتصفيه من أذيانه تصفية يشرق بها نوره ويظهر فعله المستبطن .

يؤخذ من الحديد النرماهن وان كان من رؤوس المسامير القدم كان أجود منوال ، فيلقى عليها وزن سبعة عشر درهما اهليلج كابلي وابليلج[2] من كل واحد بالسوية ويضع الحديد في قصعة ويغسل بالماء والملح غسلا نقيا ثم يلوث بذلك الدواء ، ويصير في بوطقة ويذر عليه درهم ونصف مغنيسيا مكسر ، وينفخ عليه في المسبك ثم يذوب ويجتمع بيضه ، وذلك في أيام عدة ثم يبرد ويعمل منه سيفا ، فانه سم قاتل . ونوع منه آخر يصنع بأن يؤخذ ثلاثة أرطال حديد نرماهن ومن الشابرقان نصف رطل يجعل الجميع في بوطقة ويلقى عليه وزن خمسة دراهم مغنيسيا وكف قشور رمان حامض وينفخ عليه حتى يذوب في المسبك ويتدور بيضه ثم تخرجه وتعمل منه سيفا .

---

(١) البيروني ابو الريحان : الجماهر في معرفة الجواهر ، مخطوط الاسكوريال رقم ٩٠٥ .

(٢) الاهليلج او ابليلج ، هو ثمر هندي من كابول .

ونوع منه آخر يصنع من جزء مغنيسيا ذكر وجزء سنبد وجزء تنكار البوركس ، يسحق ذلك جميعه ويعزل ثم يؤخذ من برادة الحديد النرماهن النقي الجسد منّا ، فيجعل في بوطقة ويلقي عليه من هذه الأخلاط أوقيتين وينفخ عليه فانه يذوبه ويرقه حتى يدور في البوطقة ، ثم خذ جزء حرمل وجزء عفص بلوط وجزء صبر ومثل جميع هذه الأجزاء ذراريح ، تسحق ذلك ثم تلق على المن الحديد من هـذه الأخلاط أوقيتين ، ثم ينفخ عليه حتى ترى قد ارتفع من البوطقة شبيه قوس قزح ، فاذا انتهى الى تلك الحال فبرد ثم اطبع منه ما شئت » •

أما البيروني فلقد أورد ما يعرفنا بوضوح على طريقة صناعـة الفولاذ الدمشقي فيقول :

ولمزيد بن علي الحداد الدمشقي كتاب في وصف السيوف التي اشتملت رسالة الكندي على أوصافها • ابتدأ العمل بنصاب الفولاذ ، وصنعة الكور وعمل البواطق ورسومها ، وصفة أطيانها وتعيينها • ثم أمر أن يجعل في كل بوطقة خمسة أرطال من نعال الدواب ومساميرها المعمولة من النرماهن (الحـديد) ومن كل واحـد من الروستنج (الفوسفور) والمرقشيشا الذهباني والمغنيسيا الهشة وزن عشـرة دراهم •

ويطين البواطق وتودع الكـور ، ويملأ فحما وينفخ بالمنافيـخ الرومية ، كل منفاخ برجلين ، الى أن تذوب وتدور ، وقد أعد له صررا فيهـا اهليلج وقشر رمان وملح العجـين وأصداف اللؤلؤ بالسوية مجرشة ، في كل صرة أربعين درهما ، يلقى في كل بوطقة واحدة . ثم

ينفخ عليها ساعة نفخا شديدا بلا رحمة ، ثم تترك حتى تبرد وتخرج البيضات عن البواطق » •

ان هذه الطريقة التي شرحها شرحا عمليا حداد دمشقي ، هي نفسها الطريقــة التي تسمى الدمشقة Damascinage التي ورد تعريفها في معجم لاروس غامضا ومنسوبا للهند ، فهو يقول[1] :

كان السيف الدمشقي أو الفولاذ الدمشقي بصورة عامة يصنع عن طريق دمج قطع من الحديد بعد تحميتها في بوتقة حتى تصبح لينــة قليلا ثم يضاف اليهــا مواد عضوية (قش الرز ــ خشب ــ أوراق خضراء) ، والفولاذ الذي يحصل عليه هو الدمشقي الهندي ، ويصنع على الغالب أيضا بواســطة قضبان الفولاذ ذات الصلابة المختلفــة وذلك لسبب طبيعتها المختلفة التفحم ، ثم تعقد هذه القضبان بصورة غير متساوية ، ثم تلحم مع الاستمرار في العقد والطرق مع ثني جميع هذه القضبان على بعضها ، وعندها لا يبقى الا صقل هذه السبيكة الناتجة ، لكي يقدم لنا السطح مظهرا متموجا •

طريقة صناعة الدمشقة

ويمكننا أن نستخلص مما ورد في مصادر عربية موثوقة ، طريقة صناعة السيف الدمشقي الفولاذي بالنقاط التالية :

١ ــ ان السيف الدمشقي يصنع من الفولاذ الدمشقي المصنوع محليا • وذلك عن طريق تفحيم الحديد المستخرج من بلاد الشام أو المستورد من خارجها وبخاصة الحديد المستورد من الهند أو من نفايات الحديد كالحدوات والمسامير •

(١) Grand Lavousse Encyclopédique . V. Damas

٢ ــ ثمة شبه بين الفولاذ الدمشقي والفولاذ الهندي Wootz ولكن لكل نوع منهما طريقة صنع مختلفة .

٣ ــ يصنع الفولاذ الدمشقي عن طريق تحمية الحديد في كور أو عن طريق صهر الحديد في بواتق وسكبه ، ويضاف الى البوتقة مواد معدنية كالمنغنيس وذلك لزيادة لمعانه ومنع تأكسده .

٤ ــ اضافة مواد عضوية نباتية كالاهليلج أو قشر الرمان أو قش الرز أو الخشب أو أوراق الشجر الى الحديد في البوتقة أو الحديد المحمى اللين ، هذه المواد التي تصبح فحما يختلط بالحديد ليكون فولاذا ذا خصائص متميزة من أهمها : ظهور تنسيمات على صفحة النصال يطلق عليها اسم الجوهر أو الفرند (أو الدمار أو الدبان أو الشرايين) .

٥ ــ يطرق الخليط ليأخذ شكله النهائي وهو شكل السيف المستقيم ذي الشطب والتنزيلات الجميلة والكتابات . وقد يكون سيف أسد الله من أبرز نماذج السيف الدمشقي الذي انتشر في فارس منذ القرن السادس عشر .

ان هذه المبادىء تبقى كافية لايجاد الطريقة الحاسمة في صناعة السيوف الدمشقية . اذ أن التجربة والممارسة قمينة بكشف أساليب هذه الصناعة كشف نهائيا . ونحن ندعو مراكز الأبحاث في العالم للعمل على انتاج الفولاذ الدمشقي ومن ثم السيف الدمشقي .

ولقد حاول الجنرال الروسي أنوسوف(١) أن يدمشق السيوف

---

(1) **Anocoff : Mémoire sur L'acier damassée (Annuaire du Journal des Mines de Russie 1841) PP. 192 - 287 - 184**

الرسمية وقام بتجارب خلال عدد من السنوات ، وفي عام ١٨٣٧ أعلن أنه اكتشف سر الدمشقة ، ولقد تمت صناعة سيوف مدمشقة في روسيا ، واستطاع بياسكوفسكي أن يعرض طرقها وأنواعها وهو يعتقد أن انتاجها ممكن جدا .

وحاول كثير من الباحثين في القرن الماضي كشف أسرار الدمشقة من أمثال بريان Breant الذي نشر دراسة تحت عنوان « وصف طريقة للحصول بواسطتها على نوع من الفولاذ المصهور مشابه لفولاذ السيوف الشرقية المدمشقة » .

وفي بداية هذا القرن ١٩١٨ قام بيلايو Belaiew بأبحاثه فتبين لديه أن صناعة السيوف الدمشقية الجوهر تقوم على مبادىء خاصة ، ولكنه لم يتمكن من استكشافها كاملة ، لأنه لم يطلع على المصادر العربية في هذا المجال .

السجاد الدمشقي

في العصر المملوكي ازدهرت صناعة السجاد في مصر وسورية ، وقد تحدث بعض الرحالة الأوروبيين عن وجود مشاغل لصناعة السجاد في العصر المملوكي ، ولقد اشتهر في سورية نوع من السجاد أطلق عليه اسم سجاد دمشق ، انتشر هذا النوع من السجاد في أوربا خلال القرن السادس عشر وخاصة في البندقية « مرفأ الشرق » ، اذ تردد اسم سجاد دمشق في سجلات الاسرات العريقة أو كانوا يستعملونه كأغطية وستر .



سجاده صنع دمشق ـ القرن ١٦ م

وفي متحف الفن والصناعـة في فيينا مجموعـة من السجاجيد الدمشقية تعتبر من أجمل ما بقي من هذا النوع • وسجاد دمشق يمتاز برسومه الهندسية المترابطة كبلاطات منسقة عدا عن العروق والأشجار والعناقيـد ذات الألوان الحمـراء والزرقاء والخضراء والصفراء • والسجاجيد المعروفة حتى الآن ذات أرضية حمراء خمرية واطارها ذو لون أزرق أو أخضر مصفر ، ولكل لون درجات وأطياف مما يجعل الرسوم ذات أبعاد وأعماق •

وسجاد دمشق مصنوع من خيوط الصوف والسداة من الصوف أيضا • وفي فيينا سجادة واحدة مصنوعة من خيوط الحرير • وبعض نماذج هذا النوع من السجاد موجود في متحف المتروبوليتان ، وثمـة سجادة كبيرة بقياس ٦ × ٩ م موجودة في متحف فيكتوريا والبرت في لندن • وكانت ولا شك مخصصة لمكان رحب قد يكون مسجدا أو قصرا ، وهي بلون أحمر خمري وفيها أشكال هندسية زرقاء مع بعض الأشكال المعينية المخططة شطرنجيا • وفي مركز السجادة جامة كبيرة وتبدو في السجادة اشارات مميزة • وهي نموذج من الرسم العربي الذي قد يرجع الى العهد الأموي • وتعتبر هذه السجادة من أجمل ما تحويه المتاحف من سجاد دمشق • وفي بيروت سجادة ملك هنري فرعون من صنع دمشق •

ولقد اشتهرت سورية بالبسط ذات الوبر ، ولقد ذكر المقريزي أن العصر الفاطمي كان يضم بسطا من صناعة القلمون « محافظة دمشق » ، كما أن متحف المتروبوليتان يحتفظ ببساط من الحصير صنع في طبريا « فلسطين » يرجع الى القرن العاشر الميلادي •

أما السجاد المصري فانه لا يختلف كثيرا عن سجاد دمشق ، بل كثيرا ما يقـع المختصون والمتحفيون في خطأ تحديد هوية السجاد العربي ، اذ أن أسلوب دمشق والقاهرة والمغرب والأندلس أسلوب مستمد من مفاهيم الفن العربي الذي يجنح نحو الأشكال الهندسية أو الرمزية أو النباتية المحـورة أو الكتابات ، مبتعدا ما أمكن عن الرموز والأشكال الحيوانية ، على عكس السجاد الفارسي الذي اهتم بالأشكال البشرية والحيوانية .

والواقع أن السجاد المصري والدمشقي استمدا أيضا الزخارف الهندسية من الزخارف المنقوشة على القطع المعدنية والجلدية والخزفية المملوكية التي تحمل نفس الطابع ، ولعل السجاد التركي كان وريث التقاليد المملوكية هذه .

ويتشابه سجاد القاهرة مع سجاد دمشق في لونه الأحمر الخمري الذي يهيمن على الخلفية ، على أن خيوط هذا السجاد هي من الحرير ، وبعض السجاجيد مصنوع كله من خيوط الحرير ، ومثالها سجادة ترجع الى القرن السادس عشر ، ولكن أكثر سجاد هذا النوع مصنوع من خيوط الصوف ، وطريقة العقد متقاربة مع طريقة العقد الدمشقي والأندلسي ، ومن أقدم نماذج سجاد القاهرة ، سجادة محفوظة في القسم الاسلامي من متاحف برلـين ، وهي ترجع الى أواخر القرن الخامس عشر أي الى العصر المملوكي .

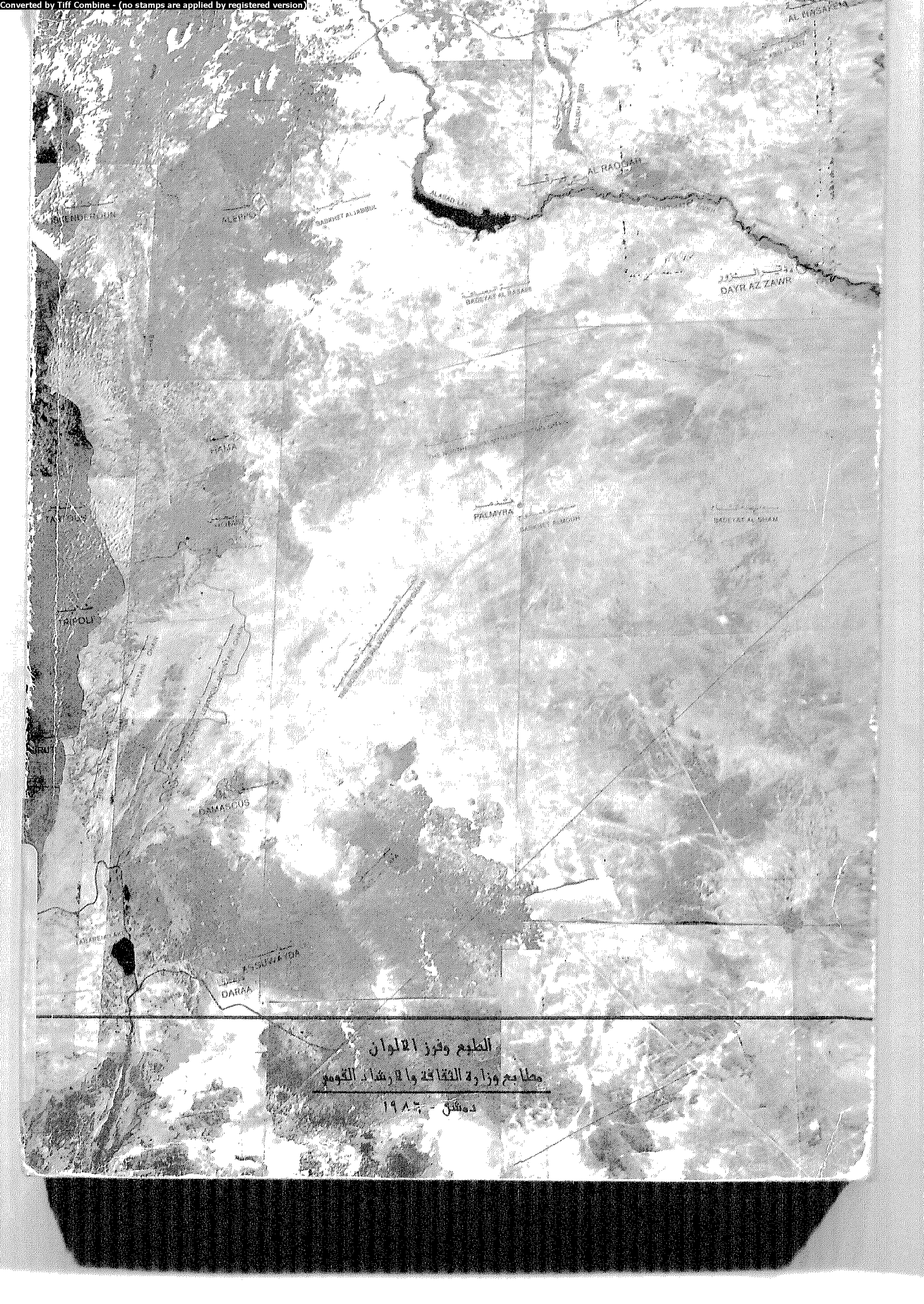
الفهرس

٣٠٠٠ط ١/٢/١٩٨٦

الشام اسم حضاري يمتد خلال التاريخ الطويل وينشر فوق بقعة جغرافية واسعة مازالت موحدة ثقافيا وتاريخيا على الرغم من الحدود السياسية التي ظهرت بفعل الانتداب .

والحديث عن الشام الحضارة طويل جدا ، ولكن لابد من مقدمة لهذا الحديث تضم لما يراقة من حضارة الشام وماقدمته الى الانسانية والى الامة العربية .

وهذا الكتاب هو المقدمة التي ستساعد القارىء في التعرف على مفهوم الشام من خلال المنظار الثقافي ، وليس من خلال المنظور السياسي الذي تضمنته كتب التاريخ.



الطبع وفرز الالوان
مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٦